دكتور
عبد الغفار عزيز

الدعوة الإسلامية

بين التنظيم الحكومي والتشريع الديني

عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

الإهـــداء

إلى من يبحثون عن الحقيقة من أجل الحقيقة
إلى من يدعون إلى الفضيلة حبا فى الفضيلة
إلى الذين يريدون فهم الإسلام بلا تعصب
ويودون الوصول إلى شاطئه الأمـــين

إلى دعاة الإســـلام وحماته
إلى رجال السياسة والحرب
إلى طلاب المعرفة جميعـــا

أهدى هذا الكتاب
د / عبد الغفار محمد عزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الذى أقام بأمر الله دولة وأسس نظاما ليقيم به الحق والعدل وينشر الفضيلة والسلام .

وبعد

لو بحثنا عن الغرض الحقيقى من نزول الأديان وبعث الرسل لوجدنا أن ذلك لم يكن إلا لإقامة الحق والخير فى الأرض وإشاعة الفضيلة والدعوة إلى السلام .

ولو حاولنا المقارنة بين أصحاب الرسالات السماوية الكبرى لوجدنا أن الأساس الذى قامت عليه دياناتهم واحد ، وأن الأصل واحد ، ويلفت نظرنا قول الله تعالى « إن الدين عند الله الإسلام »[١] .

فنفطن إلى أن المقصود من الإسلام هنا ، هو الإسلام الأكبر ، والدين الأوحد الذى انتسب إليه إبراهيم (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما)[٢] ، وهو بنفسه الذى وصى به يعقوب بنيه (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[٣] ، والذى أعلن حواريو

---

(١) آل عمران : ٦٧

(٢) آل عمران : ١٩

عيسى الإيمان به والانتساب إليه حين قال لهم عيسى كما يحكي القرآن (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون)[١]
والذى نجده فى قول عيسى كما حكاه القرآن (مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد)[٢] ونجده أيضا فى قوله كما يحكي الإنجيل (ماجئت لأنقض التوراة بل جئت لأكملها)[٣] ونجده كذلك فى قول الله تعالى عن القرآن وهو آخر الكتب السماوية (مصدقا لما بين يديه الكتاب ومهيمنا عليه)[٤]، ونجده أيضا فى قول الرسول ﷺ (مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، وجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة، قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين[٥] ، وفي قول الرسول أيضا (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد)[٦] .

فنؤمن فى النهاية بعد ذلك كله، بأن الرسالات السماوية كلها أساسها واحد وأصلها واحد والغرض منها واحد (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه)[٧] .

وحين نحاول المقارنة بين الأساس لقيام الحكومات وبين مايدعو إليه الدين، نجده واحدا، فالغاية من إقامة حكومات الدول عموما : هو تحقيق

(١) آل عمران : ٥٢ (٢) الصف : ٦
(٣) إنجيل متى إصحاح ٥ — ١٨ (٤) المائدة ٤٨
(٥) رواية أبو هريرة صحيح مسلم ص ٥١ ج ١٥
(٦) ابن كثير (تفسير) ص ١٠٩ ج ٤
(٧) الشورى : ١٣

مصالح الناس ورفع الضرر عنهم ومقصودها إقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم على بعض .

وما التشريعات التى شرعها الله تبارك وتعالى للبشر إلا وسائل تؤدى إلى نفس هذه الغاية ، ولقد ظهرت حكمة هـذا التشريع واضحة حين نص الله عليها مع الأحكام ، سواء منها ما كان خاصا بالمعاملات أو العبادات ، مثل قوله فى القصاص (ولكم فى القصاص حياة)[١] .

وفى شرب الخمر (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة)[٢] ، وفى حكمة الصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)[٣] ، وفى الصيام (لعلكم تتقون)[٤] ، وفى الزكاة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[٥] ، وفى الحج (ليشهدوا منافع لهم)[٦] .

وقد دل ذلك على أن المقصود منها هو إصلاح حال الناس .

وحين نجد أن هذه العبادات كلها كانت فى الأديان السابقة كما هى فى الإسلام ، وكان فيها أيضا تشريعات للمعاملات وغير ذلك مما بينه القرآن واعترف به حين قال عن اليهود (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين ... إلخ)[٧] .

وقال عن كتابهم (وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء)[٨] .

---

(١) البقرة : ١٧٩
(٢) المائدة : ٩١
(٣) العنكبوت : ٤٥
(٤) البقرة : ١٨٣
(٥) التوبة : ١٠٣
(٦) الحج : ٢٨
(٧) المائدة : ٤٥
(٨) الأعراف : ١٤٥

وتحدث عن الإنجيل فقال : (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه)[1]
حين نجد ذلك ، نؤمن على الفور أن الأديان عموماً قد جمعت بين الدين والدنيا حين تكفل الله تعالى بالإنسان ككل روحه وجسده .

ومادامت الأديان بتشريعاتها قصدت إلى إقامة الحق والعدل والخير فى الأرض ، وجعلت هذه العبادات مجرد وسائل للوصول إلى هذا العدل والخير المنشودين ، فهى ولاشك كانت تقصد إلى أن يظل هذا العدل والخير موجوداً وباستمرار ، ولما كانت القاعدة أنه لابد لكل دعوة من الدعوات من قوة تحميها ، سواء كانت هذه الدعوة دعوة أرضية أو دعوة سماوية ، كان لابد من إيجاد هذه القوة لحماية هذه الدعوة ، أى لأن يظل العدل والخير فى الأرض دون خوف عليه .

وحين قرأت التاريخ الإسلامى ووجدت أن الرسول ﷺ قد أقام الدولة الإسلامية لتكون قوة تحمى هذه الدعوة التى يدعولها ، ولتظل حامية لها حتى تقوم الساعة .

وجدت أنه من التجنى على الديانتين السابقتين أن ننفى عنهما أنهما غير مشتملتين على أمور الدين والدنيا ، خاصة وأنه كما قلنا : الدين واحد والأساس الذى تدعو إليه الأديان كلها واحد ، والدليل على اشتمالهما على الأمرين موجود وفى القرآن نفسه .

ولذلك كان لابد من تقرير اشتمال الشريعتين السماويتين السابقتين للإسلام على الدين والدنيا أيضا باعتبارهما فرعين من الدين الأكبر (الأم) (إن الدين عند الله الاسلام)[2] .

---

(١) المائدة : ٤٧ (٢) آل عمران : ١٩

وحين قرأت لكثير من الكتاب أن الدولة الاسلامية تأسست على يد محمد ﷺ عرضاً وليس غرضاً، أى أن الرسول لم يكن يقصد أن يؤسس دولة كل ماهنالك أنه أصبح بعد انتقاله إلى المدينة فى مركز القوة والسلطة، فعد من هذه الناحية صاحب دولة وإن كان هو شخصياً لم يكن يعمل لهـا ، وأن مهمته فقط هى تبليغ الرسالة ويستدلون على ذلك بمثل قوله تعالى (ماعلى الرسول إلا البلاغ)[1] .

حين قرأت ذلك وجدت أن ذلك تجن على الرسول وعلى الاسلام ، لأن الرسول ﷺ عمل على تأسيس الدولة من أول يوم بعثه الله فيه ، حيث كانت ضرورة من الضرورات وجزءاً من رسالته كما كانت جزءاً من الرسالات السابقة ، فالرسول ﷺ جمع بين السلطتين الروحية والزمنية، فأقام بهاتين السلطتين خير حكومة من حكومات الأرض فى تاريخ البشرية ، وأسس للإنسانية أفضل المناهج فى الحكم حتى فاضت القلوب باليقين الراسخ والطمأنينة الشاملة، كذلك فالاسلام شأنه شأن الأديان السابقة أقام سلطة واحدة ذات شقين ، إحداهما دينية والأخرى دنيوية ، وهما غير منفصلتين ، والسلطة الأولى هى التى تنظم علاقة الإنسان بالإنسان وترسم لتلك العلاقة حدوداً فى المعاملات بشتى ملابساتها .

والحقيقة أن الدين قد ارتبط بالدولة ارتباطاً كبيراً فى الأديان كلها ارتباط القاعدة بالبناء ، لأن الدين هو أساس الدولة وموجهها .

إذ كيف يمكن اعتبار الصلاة والزكاة وبقية الفرائض ديناً فقط ، والنظر إلى إقامة الحدود والنظام العام للحكومة كجباية الأموال ، ووجود القضاء وتنفيذ أحكامه ، وسياسة الدولة الداخلية والخارجية على أنها أمور

---

(١) المائدة : ٩٩

سياسية فقط ، أو اعتبار الموارد العامة للدولة ومصارفها وطريقة تحصيلها ، وغير هذا من الأمور المتعلقة بنظام الدولة أموراً سياسية صرفة لا علاقة لها بالدين؟

فالزكاة مثلا مع أنها فرض من الفروض الدينية التى فرضت على المسلمين إنما وضع لها نظام خاص ومقادير محددة معينة أوجب الشرع على الدولة أن تتولاها بنفسها ، وألا يترك هذا إلى رغبة الناس وحرياتهم ، بل إن الصلاة التى هى علاقة خاصة بين العبد وربه أوجب الشرع على ولى الأمر أن يطالب بها الأمة ، وأن يستتاب تاركها ثم يعزر أو يقتل على تركها كما هو مبين بكتب الفقه ، والجرائم التى ترتكب سواء كانت تتعلق بالأفراد كالزنا وشرب الخمر أو تتعلق بالأمة كلها كقطع الطريق والسرقة وغيرها ، إنما جعل الشرع لها عقوبات محددة معينة ، وجعل إلى الدولة سلطة إتخاذ الإجراءات الكفيلة بمنع هذه الجرائم وتنفيذ العقوبات اللازمة المحددة لها .

ولذلك كان من الصعب التفريق فى الإسلام بين ما يمكن أن يسمى ديناً فقط أو « سياسة فقط » لأن كل ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والخلق والتربية دين — ومع ذلك يمكن أن يطلق عليه اسم «سياسة الإسلام فى إصلاح العقيدة والعبادة » — أو «سياسة الإسلام فى التربية والخلق » وكذلك كل ما يتعلق بالمعاملات العامة دين — يمكن أن نطلق عليه اسم « سياسة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية» .

وما يتعلق بالحكم وتدبير مصالح المسلمين دين أيضاً ، ومع ذلك يمكن أن نسميه «نظام الإسلام السياسى فى الحكم وإدارة الدولة » .

وهكذا نرى أن سياسة الدولة نفسها هى تنفيذ الدين — ويجب أن تكون مبنية عليه — لأن الغاية من إقامة حكومات الدول كما قلنا: هو تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم — ومقصودها إقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم

على بعض — وغاية الدين الإسلامى ومقصوده والذى يظهر لنا من أحكامه وحكمه وآياته — هى نفس غاية ومقصود الحكومات فى الدول .

لهذا كان التنظيم الإدارى للدولة فى عهد النبى الحاكم تنظيما كاملا صيغ على أساس أن يكون هذا التنظيم منهاجاً وأساساً وخطة عمل للمسلمين بعد ذلك ، واعتمد الرسول ﷺ على الدستور الدائم لهذه الدولة (القرآن الكريم) باعتباره الأساس والأصل لكل القوانين والتشريعات التى يحتاج إليها الناس فى حياتهم ، وقد ألزم الرسول ﷺ نفسه بهذا القانون ، والتزم بما فصلته (الصحيفة) كقوانين وتشريعات اعتمدت على هذا الأصل ولم يختلف ما فيها عما جاء فيه .

وكانت إدارة الدولة تعقيداً وتقنيناً لما يجب أن تكون عليه الإدارة بالنسبة لسياسة الحكم ، وكانت الشورى الأساس الأول من أسس هذا النظام الإسلامى ، وكان التقسيم الإدارى للدولة وتعيين الولاة واختيار العمال ومحاسبتهم عن أعمالهم ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب حتى وإن كان أقل من غيره تديناً لميزة معينة فيه ، أو خصوصية يرجح بها على غيره فى إدارة عمل من الأعمال ، واستعمال الكتاب والإحصاء ، وغير ذلك من النظم الإدارية دليلا على أن الرسول ﷺ جاء ليؤسس للمسلمين دولة ، وليقيم لهم نظاماً كاملا متكاملا يكون هو السبيل إلى سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وكانت سياسة الرسول الإدارية تسير جنباً إلى جنب مع سياسته فى تبليغ الدعوة ، بل كان لهذه السياسة الأخيرة أثرها الواضح فى توطيد سلطان الدولة ، واعتمدت السياسة الإدارية دائماً وفى كل شىء على الدعوة وجعلتها الهدف والغاية التى تسعى من أجلها ، بل عرف الرسول والمسلمون

أن هذه الدولة بغير عقيدة لن تستمر أو تدوم ، ولذلك ظل الرسول ﷺ وكان هذا جزءا من التنظيم الإدارى للدولة نفسها ، زيادة على كونه أساساً من أسس الدعوة نفسها التى أمر بتبليغها للعالمين ، ظل يعد الفقهاء والمعلمين بنفسه ومع المخلصين المدربين من أصحابه لمواجهة الحاجات المتزايدة لجماعة المسلمين ويدقق فى أختيار الدعاة ، ويرسل الوفود من هؤلاء الدعاة إلى المناطق البعيدة لتعليمهم الدين والتبشير به بينهم ، باعتبار أن ذلك فريضة من الفرائض وجزءاً أيضاً من رسالة هذه الدولة التى أسسها لتستمر وتدوم .

ولقد سارت الدولة الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين بعد وفاة المؤسس الأول لها صلوات الله وسلامه عليه . على نفس الأسس والقواعد التى وضعها الرسول ﷺ وكان حكمهم هو التطبيق العملى لنظام الحكم الإسلامى بعد غياب مؤسسه ، لأن الرسول ﷺ لم يحدد نظاماً معيناً للحكم وإنما ترك للمسلمين حرية إختيار النظام الملائم لطبيعتهم وبيئتهم وزمانهم . وبخاصة أن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية صالحة لكل زمان ومكان .

بل إن أختيار المسلمين للخليفة الأول أبى بكر كان تطبيقاً للقاعدة التى قعدها النبى ﷺ حيث أوجب الإسلام الشورى وهى أصل من أصول الحكم السليم ، ودعامة من دعائم تقرير العدالة بين الناس ، وكان ذلك من لوازم الحكومة الإسلامية ، لأنها كانت حكومة دستورية ، ليس الأمر فيها خاصاً بفرد ، وإنما هو للأمة كلها ممثلة فى أولى الحل والعقد . وكان هذا الاختيار المبنى على الشورى عهداً بين الخليفة ورعيته ، وتنفيذاً لوجوب ضرورة تنصيب حاكم للأمة يرعى شئونها الدينية والدنيوية .

وقد ظهرت فى هذا العصر أنظمة إدارية جديدة لم تكن فى عهد الرسول ﷺ لتتفق مع حجم وتطور الدولة الإسلامية بعد وفاة النبى ﷺ .

وكان السبب فى ظهور هذه النظم فى عصر الراشدين بالذات لتكون سنة لمن بعدهم على أساس أن عصرهم عصر التوضيح للتشريع إن لم يكن امتدادا له فى بعض فروعه التى لم تكن قد وضحت تماماً للناس ، وعصر التطبيق العملى لنظام الحكم الإسلامى ، على أساس أن الغاية والقصد من قيام هذا النظام هو تحقيق المصلحة العامة للناس مع ضرورة الالتزام بالشريعة ، حيث قام هذا النظام على أصول عامة قابلة لكل نظام يحقق هذه المصلحة مع ضرورة الالتزام بالشرع .

وحين نقارن بين النظام الإسلامى وغيره من النظم السياسية القديمة والحديثة يثبت لنا أن النظام الإسلامى نظام فريد ليس له شبيه بنظم الحكم المعروفة .

ونظراً لاقتصار هذا الكتاب على عصر الرسول وحده فقد راعيت عدم التعرض لعصر الراشدين مع أنه كان عصر امتداد للتشريع كما قلنا ، وكذا العصر الحديث باعتبار الواقع الذى نعيشه ، وارجأت ذلك للجزأين الثانى والثالث من هذا الكتاب إن شاء الله .

وقد راعيت فى كل ما كتبت وأكتب عدم التعرض للروايات التاريخية المتضاربة والتزمت رأياً واحداً اقتنعت به شخصياً .

وقد جعلت تبويب الكتاب بالصورة التى قدمته بها لأثبت مدى ارتباط التنظيم الحكومى بالتشريع الدينى . أى ارتباط الدعوة بالدولة ، والتى سنرى من خلال قراءتنا للكتاب أنهما جزءين لأصل واحد هو الإسلام ، وأنهما لا ينفصلان ولا يمكن فصلهما أبداً .

ونحن بهذا نريد أولا للمسلمين أن يعرفوا حقيقة دينهم ، ولغير المسلمين

أن يفهموا حقيقة الأديان وأسباب نزولها ، ولدعاة الحق أن يؤمنوا بالدعوة من أجل الحق ، ويتأكدوا أنهم يقومون بعمل عظيم ويشرفون بمهمة جليلة .

وصدق الله حين يقول (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين)[١] .

والله أسأل أنه يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به وأن يحيطني بتوفيقه ورعايته ، إنه نعم المولى ونعم المجيب .

د / عبد الغفار محمد عزيز

---

(١) سورة فصلت : آية ٣٣

تأسيس الدولة جزء من الرسالات السماوية

الدين والدولة فى اليهودية

أولا : اليهودية :

كيف أسس موسى الدولة ؟

من المسلم به أن أى دعوة من الدعوات لكي تسود وتنتشر لابد لها من قوة تحميها واتباع مخلصين يدعون لها ويعملون من أجل سيادتها وانتشارها سواء كانت هذه الدعوة دعوة سماوية أو دعوة أرضية ،نظام دينى أوفكر سياسى.

ولقد شاء الله أن تكون الرسالات السماوية فى حماية دول وحكومات تنتسب إلى هذه الرسالات تكفلت بالدعوة لها وحمايتها ونشرها .

ولقد جمع الله لليهودية أتباعا من بنى إسرائيل وغيرهم ممن آمنوا بموسى عليه السلام فهاجر بهم من مصر هربا من بطش فرعون وأذاه ، وانتقالا بهم إلى مكان يستطيع منه أن يعمل وهو آمن من أجل دعوته ورسالته وليؤسس لهذه الدعوة دولة تستطيع حمايتها ورعايتها ، والوقوف بها فى وجه السلطة التى تقف فى وجهها أو تحاول عرقلة سيرها وانتشارها .

وقد وصل موسى عليه السلام بأتباعه إلى سيناء واستقر بهم فيها وأسس لهم هناك دولة كان هو قائدها وزعيمها ، يشاركه فى حكمها الوزير النبى (هارون عليه السلام) (واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى ، أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى)[1]

---

(١) سورة طه : ٢٩ — ٣٢

فكان موسى عليه السلام قائدا سياسيا ودينيا ، ومشرعا يحكم بين أتباعه ورعايا دولته بما أنزل الله عليه، يعيش أتباعه متعاونين متكاتفين بالتشريعات السماوية التى عرفهم إياها موسى عليه السلام وتعلموها من التوراة التى كانت تشتمل على كل مايحتاجون إليه فى حياتهم سياسيا ودينيا ، والتى كان فيها كما يحكي القرآن « موعظة وتفصيلا لكل شىء » (وفى هذا يقول القرآن وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها)[1] .

ولقد ظل هذا الشعب وهذا القائد (النبى) موسى عليه السلام يحكم بينهم بما أنزل الله عليه ويفتيهم ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم ملتزما فى ذلك بالدستور الإلهى السماوى (التوراة) .

(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)[2] « لأن الناس كل الناس لايعودون فى شئونهم إلى نفوسهم ولا إلى معلوماتهم بل إلى السيادة التى تتولى شئونهم »[3] .

ولهذا عملت الحكومات القديمة فى دول العالم القديم على أن يكون الدين مصدر وجودهم فلا يقوم لها بنيان إلا به، فتزلفت إلى الدين ليثبت بناؤها وتعتز مكانتها بل قاد هذا التزلف إلى ادعاء بعض الملوك أن لهم صلة بالألوهية فنظر بعض الشعوب إلى ملوكهم نظرتهم إلى الآلهة، ولقد أشار القرآن الكريم إلى ما ادعاه فرعون مصر من أنه الإله الأكبر (فقال أنا ربكم الأعلى)[4] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٤٥

(٢) « المائدة : ٤٤

(٣) كتاب الأزاهير المضمومة للشيخ أمين ظاهر خير الدين صليبا ص ٢٧٩

(٤) سورة النازعات : ٢٤

ولقد أسس موسى عليه السلام جيشا ودربه على حمل السلاح إستعدادا لرد العدوان ودفاعا عن أنفسهم ووطنهم.

« وقد جاءوا إلى موسى عليه السلام بإحصاء بنى إسرائيل من يطيق حمل السلاح منهم ابتداء من سن العشرين فما فوق؛ فوجدهم ستمائة ألف أو يزيدون وضرب عليهم الغزو ورتب المصاف والميمنة والميسرة وعين مكان كل سبط فى التبعية وجعل التابوت والمذبح فى القلب وعين لخدمتها بنى لاوى من أسباطهم وأسقط عنهم القتال لخدمة القبة »[1] .

وقد حارب موسى عليه السلام بهذا الجيش وتحركت قواته فى حياته حتى نزلوا إلى شاطىء الاردن .

وقال الله لموسى عليه السلام كما تحكي التوراة (قد ملكتكم مابين الأردن والفرات كما وعدت آباءكم) وأكمل الله الشريعة والأحكام والوصايا لموسى وقبضه إليه وهو ابن مائة وعشرين عاما بعد أن عهد إلى فتاه يوشع أن يدخل ببنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة ليسكنوها ويعملوا بالشريعة التى فرضت عليهم فيها[2] .

وقد ذكر الألوسى فى تفسيره أنه رأى فى بعض الكتب أن بنى إسرائيل رجعوا إلى مصر ومكثوا فيها عشر سنين[3] .

كذلك نقل رشيد رضا فى تفسير المنار ماجاء فى حاشية لأحد مباحث المرحوم الدكتور محمد توفيق صدقى فى كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية (٤٤٦ ـ ٤٤٧) من مجلد المنار السادس عشر مانصه :

---

(١) تاريخ ابن خلدون ص ٨٥ ج ٢
(٢) المرجع السابق ص ٨٦ ج ٢
(٣) دارسات إسلامية / عبد المتعال الصعيدى ص ١٩

(جاء فى كتاب الأصول البشرية ص ٨٨ لمؤلفه لينج ان يوسيفوس المؤرخ اليهودى الشهير نقل عن مانيتون هـذه الرواية المصرية القديمة التى ملخصها أن موسى هزم فرعون مصر الذى فر إلى بلاد الحبشة وأنه حكم مصر ثلاثة عشر عاما وبعد ذلك عاد إليه فرعون هو وابنه ومعهما جيش عظيم فقهروه وأخرجوه منها إلى بلاد الشام[1] .

ويروى صاحب المنار رواية أخرى عن (بوست) فى قاموس الكتاب المقدس مجلد ١ (ص ٤١٠) يفهم منها هذا المعنى .

وصاحب المنار يؤيد هـذا ويرى أنه موافق لما فى القرآن الكريم ويقول: « وأما مسألة حكم موسى لمصر والتمتع بها هو وقومه مدة من الزمن بعد الغرق فهو المتبادر من نحو قوله تعالى (فأراد (أى فرعون) أن يستفزهم من الارض فأغرقناه)إلى قوله(وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الارض .. الخ)[2].

وهو يؤكد صحة هذه الرواية فيقول[3](وأما مانيتون المذكور هنا والذى وافقت روايته ماجاء فى القرآن الشريف فكان كاهنا لمعبد من أقدم المعابد وأشهرها ، وقد كتب تاريخ مصر بأمر بطليموس فيلادلفوس فى القرن الثالث قبل المسيح ،وكان من أدق مؤرخى القدماء وأصدقهم،وقد أخذ بأوثق المصادر وأصحها فى كتابة تاريخه .

وفى تفسير قول الله تعالى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها) . . الخ يذكر صاحب المنار أن الليث

---

(١) تفسير المنار ص ٩٨ ج ٩
(٢) نفس المرجع السابق
(٣) » » »

ابن سعد روى عنه أنه قال أنها أرض مصر التى كان فيها بنو إسرائيل ، ويقول أيضا : إن بعض المفسرين أطلق القول بأنها أرض مصر وفلسطين جميعا .

ثم يقول : وربما يتراءى إرادة أرض مصر هى الظاهر المتبادر من قوله تعالى فى قوم فرعون من سورة الشعراء (٥٧ ـ ٥٨) (فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل) وقوله فيهم فى سورة الدخان (٢٥ ـ ٢٨) (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) لأن فرعون خرج بمن معه من الملأ والجند من مصر وتركوا ما كان فيها من النعيم إلى الغرق المؤدى إلى الجحيم .

وأنا أوافق على هذا الرأى خصوصاً وأنه يوافق ماجاء فى القرآن الكريم وصريح الآيات ، وقد قال به كثير من المفسرين وقد أورد القرطبى فى تفسيره (أن الأرض أرض الشام ومصر)[1] وقيل أراد جميع الأرض لأن

---

(١) لا يعنى هـذا ـ أن بنى إسرائيل من حقهم سيناء لأن نبيهم موسى عليه السلام أسس فيها دولته ، كما لا يعنى حكم موسى لمصر فترة من الزمن على فرض صحة هذه الرواية أن لهم حقا فيها .

وإلا لكان معنى هذا تنازع العالم كله على ملكية الأرض ـ ومن من الشعوب يستحقها ؟ حيث دارت الأرض بين كثير من الأجناس والشعوب ولم تظل على حالة واحدة . أو فى يد شعب واحد ـ وقد دارت [مصر] بين الهكسوس ـ والرومان ـ والمسلمين والانجليز والفرنسيين وغيرهم ، فمن من الشعوب صاحب الحق فيها ؟

كما أن هـذا لو كان هـو القاعدة ـ لكان لأى دولة إسلامية الآن الحـق فى استعادة أسبانيا والبرتغال حيث كان للمسلمين هناك دولة إسلامية تحـكم باسم الإسلام لمدة ثمانية قرون كاملة وإن كان الإسلام يعطى المسلمين هذا الحق إلا أن =

من بنى إسرائيل داود وسليمان وقد ملـكا الارض[١] .

وسواء حكم موسى مصر أو لم يحكمها فإنه مما لا شك فيه أنه كان حاكما وكان صاحب دولة ، وقد روى بعض المؤرخين كالسمهودى وابن خلدون[٢] أن موسى أرسل جيشا إلى عمالقة الحجاز بيثرب وهم أولاد عم لفراعنة مصر وأمرهم ألا يتركوا أحدا منهم بلغ الحلم ، وقد حاربهم جيش موسى وانتصر عليهم ونفذ فيهم وصية نبيهم ولم يتركوا إلا الارم ابن الارقم[٣] ملـكهم ، وكان وسيم الطلعة بهى المنظر جميل الوجه جليل النسب وأخذوه معهم إلى نبيهم ، وحين رجعوا وجدوا نبيهم موسى عليه السلام قد قبض . وحين سأل اليهود الجيش عن تنفيذ وصية موسى ، أخبروهم بأنهم لم يستبقوا إلا الأرقم ملـكهم ، فقال بنو إسرائيل حينئذ (إنـكم عصاة حيث خالفتم أمر نبيـكم . ولهـذا فلن تدخلوا علينا بلادنا أبدا . فرجعوا إلى المدينة وساكنوا أهلها وبقوا بين ظهرانيها) .

ولقد حكي القرآن الـكريم طلب موسى عليه السلام من بنى إسرائيل

= منطق السياسة العالمية الذى يحكمونه الآن يرفض ذلك تماما .

والحقيقة أنه لا توجد دولة واحـدة فى كل بلاد الدنيا . على ما هى عليه من يوم نشأتها إلى الآن ، بل إنه يصعب على الباحثين أن يثبتوا أصول الشعوب نفسها .

والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ـ وصدق الله حـين يقـول [ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون] [الأنبياء ١٠٥] وفى سورة الاعراف آية ١٢٨ [قال موسى لقومه إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين] .

(١) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٢٧٢

(٢) وفاء الوفاء ص ١٥٩ ج ١ تاريخ ابن خلدون ص ٨٧ ، ٨٨ ج ٢

(٣) السمهودى يروى أن اسمه الارقم بن الأرقم

الدخول إلى أرض فلسطين لكنهم خافوا من العماليق الذين استوطنوها واستعمروها ، ولعله كان قد دعاهم إلى الله فأبوا ، قال موسى لقومه (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون)[1] .

ثم قالوا كما يحكي القرآن الكريم أيضا (إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون)[2] .

فكأنه طالبهم بالقتال ، والقتال لا يكون إلا بسلاح واستعداد وتدريب وهذا السلاح والاستعداد والتدريب لا يكون إلا فى جيش، والجيش لا يكون إلا لدولة .

ولقد ثبت تاريخيا أنهم دخلوا إلى فلسطين فعلا بعد وفاة موسى عليه السلام ، وبعد انقضاء الأربعين عاما التى حكم الله بها عليهم أن يتيهوا فى الأرض .

فقد حارب (اليعاذر) بن هارون عليه السلام ببنى إسرائيل ملوك كنعان فهزموهم وقتلوهم وغنموا ما أصابوا معهم ، وهزموا سيحون ملك العموريين من كنعان وملكوا بلاده إلى حد عمورية وذلك حين رفض أن يمروا من أرضه إلى الأرض المقدسة وجمع قومه لمحاربتهم[3] .

وحارب يوشع فتى موسى عمالقة الشام وهزمهم وقتل آخر ملوكهم (السميدع هوبر بن مالك) .

---

(١) المائدة ٢١ - ٢٢ .
(٢) المائدة ٢٤ .
(٣) ابن خلدون ص ٨٦ ج ٢

ولقد تتبع يوشع سائر ملوك الشام وصلب عددا منهم واستباح منهم واحدا وثلاثين ملكا ، وقسم الأرض التى ملكها بين بنى إسرائيل[1] .

ولقد ظلت هذه الدولة اليهودية قوية مرهوبة الجانب عزيزة السلطان . أمرهم شورى بينهم يختارون للحكم فى عامتهم من شاءوا ويدفعون للحرب من يقوم بها من أسباطهم ولهم الخيار مع ذلك على من يلى شيئا من أمرهم وتارة يكون نبيا يدبرهم بالوحى وأقاموا على ذلك نحوا من ثلاثمائة عام[2] .

ظلت هذه الدولة كذلك حتى شاء الله أن تسقط وتنهار بعد إبتعادهم عن دينهم وسلط الله عليهم أمما أخرى حاربتهم وهزمتهم وإسترقوا نساءهم وأولادهم وغنموا أموالهم واحتلوا أرضهم .

ولما أحسوا بأن السبب فى هزيمتهم وإذلالهم وبقائهم على هذا الذل والهوان أنهم ابتعدوا عن الله وانحرفوا عن دينه ذهبوا إلى نبى لهم يقال له (شمعون) أو (شمويل)[3] وقالوا له كما يحكي القرآن (إبعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين)[4] .

ولقد اختار النبى شمعون لبنى إسرائيل الملك بوحى من الله وطلب منهم الإنقياد له والإنصياع لأمره كما حكي القرآن أيضا فى سورة البقرة ، وليس من اللازم أن يكون النبى نفسه هو المسئول سياسيا عن شئون الدولة مسئولية

(١) المرجع السابق ص ٨٨
(٢) » » »
(٣) تفسير ن كثير ص ٣٠٠ ج ١
(٤) سورة البقرة : ٢٤

مباشرة ، ولذلك لم يطالب بنو إسرائيل من شمعون هذا أن يتولى هو بنفسه شئون الدولة ، وأن يكون هو الحاكم الرسمى المسئول عنها سياسيا .

ولا يعنى هذا إنفصال الدين عن الدولة ، بل على العكس لم يكن بنو إسرائيل يستطيعون التصرف فى أمر من أمورهم الدينية والدنيوية على السواء إلا عن طريق الوحى لأن شريعتهم شريعة خاصة موقوتة بزمان معين وليست عامة ولا عالمية كشريعة الإسلام .

وفى سفر الملوك الأول العددان ١٥ ، ١٦ من الفصل ١٩ (قال الرب للنبى إلياس إذهب وامسح « حذائيل » ملكا على آرام ، وامسح « ياهو بن نمشى » ملكا على إسرائيل ، وامسح « اليشع بن شفاط » من آبل محولة نبيا عوضا عنك .)[1] .

فأنت ترى أن الله تبارك وتعالى أمر النبى إلياس أن ينصب ملكا على آرام وملكا على إسرائيل وأن يختار وينصب اليشع نبيا عوضا عنه .

والمعروف أن أنبياء بنى إسرائيل كثروا إلى حد كبير حتى بالغ بعض المفسرين فقال (أن بنى إسرائيل قتلوا من أنبيائهم ثلاثمائة نبى فى يوم واحد)[2] .

وعن قتلهم لأنبيائهم يحكى القرآن الكريم (لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون)[3] .

ولقد أشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى أن بنى إسرائيل كانت

---

(١) الأزاهير المضمومه

(٢) تفسير ابن كثير ص ١٠٢ ج ١

(٣) المائدة ٧٠ .

الأنبياء تسوسهم وأنهم من الكثرة بحيث أنه كلما مات نبي خلفه آخر فيروى مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي وأنه لا نبي بعدي وستكون خلفاء فتكثر. فقالوا فما تأمرنا. قال فوا ببيعة الأول فالأول »[1].

ومعنى تسوسهم الأنبياء أي يتولوا أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية، والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه[2].

ثانيا : النصرانية

ولماذا لم يؤسس المسيح دولة ؟

وإن قيل أن عيسى عليه السلام كان رسولا فقط ولم يكن ملكا ولا حاكما بل ولم يعمل من أجل قيام دولة تحمل على كاهلها عبء الدعوة التي يدعو إليها. نقول :

إن رسالة المسيح عليه السلام جاءت على أثر اختلال المجتمع الشرقي اليهودي عن طريق طغيان المادية والفردية وتحكم النزعات الممزقة لعلاقات الأفراد وأواصر القربى بينهم، ولذا كانت دعوتها لكي تعيد التوازن إلى الأخوة والتسامح والمحبة. كانت دعوتها إلى الروحية في مقابل المادية وآثارها المخربة المقوضة للمجتمع[3] (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين)[4].

والمعروف أن رسالة عيسى عليه السلام لم تستمر أكثر من (ثلاث

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ص ٢٣٠، ٢٣١ ج ١٢

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠، ٢٣١

(٣) الإسلام في الواقع الأيدولوجي د / محمد البهي ص ١٥٥

(٤) المائدة ٤٦.

سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام)[١] وما كان عيسى ليستطيع فى هذه الفترة القصيرة من الزمان أن يكون من شعب كهذا قوة يقف بها فى وجه الظلم والطغيان ، خاصة وأن تكوين الدول وتأسيسها يحتاج إلى مجهودات ضخمة وظروف طبيعية تساعد على تكوينها وتأسيسها ، ولذلك فهى فى حاجة إلى وقت وزمان طويلين لهذا التأسيس .

ولم يستطع موسى عليه السلام أن يؤسس الدولته التى كان يحكمها إلا بعد أن خرج بأتباعه الذين هم رعايا دولته الجديدة من مصر واستقر بهم فى سيناء بعيداً عن مناوأة الدول الأخرى ، حتى استطاع فيما بعد أن يجعل من هذه الدولة قوة ، ويؤسس لها الجيش الذى يحمى به دولته وتحتمى فيه الدعوة التى لابد لها ولغيرها من قوة تحميها .

كذلك فان الرسول محمد ﷺ لم يؤسس دولة فى يوم وليلة وإنما ظل يعمل لتأسيسها طيلة عشر سنوات فى مكة حتى بيعة العقبة الثانية التى أصبح بعدها زعيما سياسيا وقائداً للمسلمين ، وظل بعد الهجرة وإلى آخر يوم فى حياته يقوى فى هذه الدولة ويجمع بين شتات قبائلها المتفرقة ويوحد بين بطونها الممزقة .

والمسيح لكي يؤسس دولة كدولة موسى أو محمد عليهما السلام كان فى حاجة إلى جيش قوى يحارب به دولة الرومان العظمى التى كانت تحتل بلاده . وكان فى حاجة إلى أتباع أقوياء مخلصين يستعين بهم على هؤلاء الخصوم وليكون منهم هذا الجيش ، لكن المسيح عليه السلام وجد فى مجتمع

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ٢٠١ ج (تخريج المرحوم الدكتور محمد بن فتح الله بدران

منحل مهزوم محتل إحتلالا أجنبيا ، كذلك لم تستمر دعوته أكثر من ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام كما قلنا .

ولم يكن هو نفسه يستطيع أن يحمى نفسه من بطش الغير ولم يكن أتباعه أقوياء ولا مخلصين ، بل إن أقرب الناس إليه هو الذى وشى به ليقتل .

ولهذا لم تتأسس الدولة المسيحية على يد المسيح نفسه الذى كان يسير هو وأتباعه على ما تأمرهم به التوراة باعتبارها الأصل والأساس ، ويؤمن هو وأتباعه بما فيها من الأمور الدينية والدنيوية على السواء .

ولذا قال لاتباعه (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل)[1] .

ولو نظرنا إلى المجتمع الذى ظهر فيه موسى عليه السلام والمجتمع الذى ظهر فيه محمد ﷺ لوجدنا أنه كان من الضرورى أن تتأسس على يد كل واحد منهما دولة — فموسى عليه السلام كان فى مصر وكان نظام الحكم فيها نظاما ملحدا بعيدا عن العقيدة الصحيحة والايمان السوى ، والشعب لا يؤمن بوجود إله قادر واحد ، وكان ينظر إلى فرعون على أنه إله قادر متسلط فكان لابد من تغيير هذا الوضع الفاسد ، وتأسيس دولة موحدة تسير على شريعة الهداية ، وتنهج نهجا سليما صحيحا تقر فيه العدالة والخير . ولم يكن موسى عليه السلام ليستطيع أن يفعل هذا بمصر وحكامها أقوياء وأتباعه من بنى اسرائيل مستضعفين ، فهاجر بهم إلى سيناء وأسس دولته بأمر الله ، ثم رجع الى مصر ففتحها وحكمها ثلاثة عشر عاما أو عشر سنوات كما روى من قبل .

---

(١) انجيل متى إصحاح ٥ — ٨

ثم ظلت دولته تدعو إلى الله سبحانه وتحارب الشرك والوثنية وتفتح الممالك والبلدان التي تقف في طريق الدعوة وتعرقل مسيرتها .

كذلك فان رسول الله ﷺ ظهر في مجتمع شرك وانحلال وفساد تماما كالمجتمع الذى ظهر فيه موسى ، فكان لابد من تغيير هذا النظام الفاسد وتكوين دولة يكون الحكم فيها لله ، فأسس (الدولة الإسلامية) وأخذ يعمل على تأسيسها من أول يوم بعثه الله تعالى إلى الناس ، ولم يستطع الرسول ﷺ بأتباعه القليلين في مكة أن يحارب نظام الحكم القائم فيها ، ولا أن يكون منهم جيشا يستطيع أن يقف به في وجه السلطة في مكة ، وهى التى تحارب دعوته وتعرقل مسيرتها تماما مثلما حدث لموسى عليه السلام مما اضطره إلى الهجرة بأتباعه إلى مكان آمن شاء الله أن تقوم فيه الدولة الإسلامية ، ثم عاد الرسول ﷺ إلى مكة نفسها واستطاع فتحها وحارب المناوئين له ولدعوته ولدولته ، الواقفين في طريق هذه الدعوة وهذه الدولة ، وفتح الله على يد هذه الدولة الممالك وسادت شريعة الإسلام وانتصرت وكان لابد أن تسود وتنتشر ، فان الرسول وإن كانت وظيفته الأساسية هى إبلاغ الرسالة (ما على الرسول إلا البلاغ)[1] .

إلا أنه لم يكن مجرد معلم أو واعظ فحسب ، ولكنه داع تتمخض دعوته عن حركة إيجابية تبقى وتستمر بعد وفاته ، فالأنبياء محررون اجتماعيون روحيون حملت حركاتهم التحررية بين طياتها معنى كفاح الطبقات ، حيث كانوا ينشدون مجتمعا لاطبقى تسوده المساواة والعدالة ويعمه الرخاء ، ولا يمكن إيجاد هذا المجتمع المثالى ولا استمراره إلا في ظل دولة تحميه وتدعو له .

أما عيسى عليه السلام فقد وجد كما قلنا في مجتمع كتابى يؤمن بكتاب سماوى ويسير على شريعة إلاهية سماوية ، ولم يكن الشعب بحاجة إلى تغيير هذا

(١) المائدة ٩٩ .

النظام وإنما كانت حاجته إلى تهذيب النفوس والبعد عن الشهوات المادية التى جرفت مجتمع المسيح عليه السلام ، ولذلك كانت دعوة المسيح دعوة روحانية أكثر منها دعوة مادية ، لا كرها فى الدنيا ولا طلبا لرهبنة تدعو إليها المسيحية كما تصور بعض الناس (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) (الحديد ٢٧) .

وإنما لمحاولة إيقاف هذا التيار المادى القوى الذى لا يمكن تحويله إلا بتيار آخر مضاد ، حتى يمكن التوازن فيما بينهما ؛ ومع ذلك فان الحواريين حملوا مسئولية نشر هذه الدعوة وقيض الله لها بعد ذلك ملكا قويا اعتنق المسيحية هو قسطنطين الأكبر الذى كان اعتناقه للمسيحية وجعلها الدين الرسمى فى عهد خليفته ، سببا فى انتشارها فى كثير من بلاد العالم ، ولو لم تكن هذه الدولة التى قيضها الله للمسيحية ما انتشرت هذا الانتشار .

ولعل من أسباب قلة عدد اليهود فى العالم اليوم عدم وجود دولة تدعو باسمهم وتحمى دعوتهم قبل تأسيس دولة اسرائيل أخيرا فى فلسطين ، خصوصا بعد أن تحطمت دولتهم على يد طيطس الرومانى سنة ٧٠ ميلادية ، هذا مع عدم إيمانهم بالتبشير بالدين اليهودى لاعتقادهم بأنهم شعب الله المختار وليس لغيرهم أن يشاركهم هذا الشرف .

وقد قلنا أن تاريخ الأديان وغير الأديان يدل على أن الحسام لم يستقر فى غمده فى يوم من الأيام وقد امتشقه أنبياء الهندوس واليهود[1] .

إذا فقد كان من الضرورى لأى دين من الأديان أن تكون له دولة تدعو باسمه وتحمى حماه وتفرض فى بعض الأحيان سلطانها على الآخرين لنشر هذا الدين لمصلحتهم التى قد يجهلونها عن غير قصد منهم ؛ ويكونون فى هذه

---

(١) يطلق على دعاة الهندوس أنبياء تجوزا (المؤلف)

الحالة كالسفيه أو الطفل الصغير الذى أوجب الشرع منعه من حرية التصرف لمصلحته التى يجهلها ، وإذا كان هناك أنبياء لم تكن لهم دول ، ولم يكن لهم سلطان سياسى فى بلادهم ، وقد وصل الأمر الى حد الاعتداء على حياتهم وقتل بعضهم كما حدث ليحيى وزكريا وغيرهم من أنبياء بنى اسرائيل ، فان هذا لم يحدث ولم يكن ليحدث لأصحاب الرسالات والدعوات الكبرى كاليهودية والمسيحية والاسلام ، لأن الله كان لابد أن يتعهد هذه الرسالات ويمنع عن أصحابها الأذى وليس فى تاريخ الأديان ما يثبت أن صاحب رسالة قد قتل أو حتى منع نهائيا من أداء رسالته ، لأنه لو عجز عن إبلاغ هذه الرسالة لكان معناه عجز الإله عن حماية هذه الدعوة والرسالة التى كلف الرسول بتبليغها .

صحيح أن الأنبياء جميعا دون استثناء أوذوا فى سبيل تبليغ هذه الرسالات ووقفت عقبات كبرى فى طريق الدعوة لها، وهذا شىء طبيعى فانهم ما أرسلوا إلا فى مجتمعات فاسدة ضالة، وليس من طبيعة النفوس أن تهتدى بمجرد سماع الوعظ والإرشاد .

كما أن الرسالة عبارة عن انقلاب شامل للمجتمع يقصد به تغيير كلى فى أوضاع هذا المجتمع الفاسد .

وقد أخذ الأنبياء على عاتقهم تضية حاجة الإنسان إلى الدين وإرساء القواعد المعنوية والخلقية للمجتمع الإنسانى ، وما كانت حركاتهم لتكون روحية ، بحتة وإنما أولوا عنايتهم أيضا لتحرير الإنسان معنويا واجتماعيا .

وقد تكفل الله لأصحاب الرسالات الكبرى بتمكينهم من تبليغ هذه الرسالات وحفظهم ونصرهم ، ولذلك كانت النهاية لكثير من أقوام هؤلاء الرسل بعد بذل كل المحاولات لإقناعهم وتغيير مفاسدهم ، إعلان الحرب الإلهية ضد هذه الاقوام، إما بعذاب دنيوى مؤقت كما حدث لآل فرعون وقبل

إعراقهم (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين)[١] .

وإما بإبادتهم إبادة كاملة كما حدث لقوم نوح حين أغرقوا بالطوفان وثمود وصالح بأن أرسل عليهم الصيحة والصاعقة ، وقوم لوط حين أباد الله قراهم وجعل عاليها سافلها أو بانتصار الرسول عليهم بعد الدخول معهم فى حرب كما حدث لموسى وداوود وسليمان ومحمد عليهم السلام .

الأدلة على إشتمال الشريعتين اليهودية والنصرانية على الدين والدولة :

ومن أدلتنا على إثبات أن كتاب اليهود (التوراة) كان دستورا مشتملا على تشريعات دنيوية مع الشرائع الدينية ، وأن عيسى عليه السلام جاء تابعا لشريعة موسى ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وأن القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه أى شاهدا على ما قبله من الكتب لأنه خاتمها وأشملها وأكملها ، حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس فى غيره ، ولذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها[٢] ما يحكيه القرآن فى سورة المائدة عن التوراة وكيف أن الله أنزل (فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)[٣] .

وأن الله كتب عليهم فيها (أنه النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص)[٤] .

---

(١) الأعراف : ١٣٣
(٢) راجع تفسير ابن كثير ص ٦٥ ج ٢
(٣) المائدة : ٤٤
(٤) المائدة : ٤٥

وكيف تحدث القرآن بعد ذكره للتوراة عن أنه جعل النبيين يحكمون بها وذكره لبعض ما كتبه فيها من الحدود كالقصاص والزنا وهى تشريعات دنيوية بين الله حكم الشرع فيها ثم قال (وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين)(١) .

ثم بين أن الإنجيل فيه أحكام ، وأن أهل الإنجيل لابد أن يحكموا بما أنزل الله فيه ، ثم تتحدث الآيات القرآنية بعد ذلك مباشرة عن إنزال القرآن مصدقا لما سبق من الكتب ومهيمنا عليها، وأن الحكمة الإلهية جعلت لكل نبي شرعة ومنهاجا فتقول (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون)(٢) .

ونظرا لما فى هذه الآيات من أدلة تفيد أن الكتب السماوية السابقة على القرآن كان فيها هى الأخرى تفصيل لأحكام وتشريعات دنيوية مثل القصاص، وأحكام الزنا، وغير ذلك من أحكام ، وأن الله كان يطالبهم بتنفيذ هذه الاحكام ويوبخهم حين يبتعدون عن الحكم بما أنزل الله فى هذه الأمور لذا فانا سنضطر للحديث عنها بشىء من التفصيل .

قال تعالى فى وصف اليهود (سماعون للكذب أكالون للسحت فإن

(١) المائدة : ٤٦

(٢) المائدة : ٤٨

جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين)[١] .

قيل نزلت فى يهوديين زنيا. وكان اليهود قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم من الأمر برجم من أحصن فحرفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم والإركاب على حمارين مقلوبين : فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا فيما بينهم تعالوا حتى نتحاكم إليه ؛ أى إلى محمد ﷺ فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبى من أنبياء الله قد حكم بذلك بينكم وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه، وقد وردت الأحاديث بذلك[٢] . . .

ولذلك رد الله عليهم بقوله (وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله)[٣] ثم قال (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون)[٤] وإن كان ابن كثير يروى سببا آخر من أسباب نزول هذه الآيات فيروى عن ابن عباس أن الله أنزلها فى طائفتين من اليهود . كانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن قتلى بنى النضير تؤدى لهم الدية كاملة ؛ وأن قريظة كان يؤدى لهم نصف الدية .

فتحاكموا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم فحملهم رسول الله على الحق فى ذلك فجعل الدية فى ذلك سواء[٥] .

---

(١) المائدة : ٤٢

(٢) راجع تفسير ابن كثير ص ٥٨

(٣) المائدة — ٤٣

(٤) المائدة - ٤٣

(٥) تفسير ابن ص ٦٠ ج ٢

وسواء كان سبب النزول حادثة الزنا أو القتل فإن ذلك يؤكد أن شريعتهم كان فيها تفصيل لهذه الأحكام وهى أحكام تتصل إتصالا مباشرا بنظام الحكم، وتدل ويخهم الله تعالى لعدم حكمهم فى هذه الأمور بما أنزل الله عليهم.

ثم أخذ القرآن يوضح بعضا من هذه التشريعات مما هى موجودة فى التوراة فقال (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف.. .... الخ)[1].

ثم قال (وقفينا على آثارهم) يعنى أنبياء بنى إسرائيل (بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة) أى مؤمنا بها حاكما بما فيها (وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور) أى هدى إلى الحق ونوراً يستضاء به فى إزالة الشبهات وحل المشكلات (ومصدقاً لما بين يديه من التوراة) أى متبعا لها غير مخالف لما فيها إلا القليل مما بين لبنى إسرائيل بعض ما كانوا فيه يختلفون[2].

ثم قال الله (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون)[3].

ثم شرع بعد ذلك فى ذكر القرآن العظيم الذى أنزله الله على عبده ورسوله الكريم بعد أن ذكر التوراة التى أنزلها على موسى كليمه ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الإتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله باقامته واتباع ما فيه[4].

---

(١) المائدة : ٤٥

(٢) راجع تفسير ابن كثير ص ٦٤ ج ٢

(٣) المائدة - ٤٧

(٤) تفسير ابن كثير صفحة ٦٠ ج ٢

فقال تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله)[١] ، أى فاحكم يا محمد ﷺ بين الناس عربهم عجمهم وأميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك من هذا الكتاب العظيم وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه فى شرعك[٢] .

من كل هذا ومن هذا الترتيب لذكر الأديان السماوية الكبرى وكتبها يتبين لنا أن الأديان السابقة قبل الإسلام هى فروع من الإسلام الأكبر والدين الأوحد ، وأنها كانت مشتملة على أمور تشريعية للحكم والسياسة ولكل ما يحتاج إليه الناس فى دنياهم ، وأننا لا أتصور أبدا فصل الدين عن الدنيا فى أى دين أو أى عصر أو أى مصر .

فالدين دين الله وهو دين واحد فى الأولين والآخرين يستوى فى ذلك اليهودية والمسيحية والإسلام . ولا تختلف هذه الديانات إلا فى الصور والمظاهر أما الروح والحقيقة فلا تتغير بتغير الأزمان ولا بتغير الأماكن . وماطولب به العالمون أجمعون على ألسنة كل الأنبياء والمرسلين لا يتغير وهو : الإيمان بالله وحده ، والإخلاص لله فى العبادة ، ومعاونة الناس بعضهم لبعض فى الخير وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ولا يتنافى هذا مع الإرتقاء فى الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم فى كمال الهداية .

وإذا كانت المسيحية قد دعت إلى الروحية فإنها لم تقصد أبدا إلى العزلة

---

(١) المائدة — ٤٨

(٢) تفسير ابن كثير ص ٦٦ ج ٢

عن الحياة كما لم تقصد إطلاقا إلى ما سمى فيما بعد بانفصالية الدولة عن الدين إذ الروحية وهى المعانى والقيم الإنسانية من المحبة والإخاء والتسامح ، لا تعنى فى قليل ولا كثير الإنصراف تماما عن شئون الحياة . كما لا تعنى توزيع الفرد بين سلطتين يخضع لأحدهما بجسمه ويخضع لثانيتهما بنفسه أوروحه[1] .

والمسيح عليه السلام هو روح الله وكلمته ورسوله إلى بنى إسرائيل ، بعث كما حكى القرآن « مصدقا لما بين يديه من التوراة » وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ورشاد فى شئون معاشهم ومعادهم . ولم يطالبهم المسيح أبداً بتعطيل قوة من قواهم التى منحهم الله إياها بل طالبهم بشكر الله عليها ولا يشكر حق الشكر إلا باستعمالها جميعا فيما أعدها الله له .

وإذا كان المسيحيون قد نظروا إلى دينهم نظرة مجافية لواقع الأديان عموما ، وقالوا إن الدين قد أقام سلطتين منفصلتين تماما إحداهما خاصة بالدين والأخرى مستقلة عنها تماما . وخاصة بالدنيا ، فإنهم برغم إعتقادهم هذا لايزالون حائرين ، لأنهم يجدون أن السلطتين تتنازعان وكل واحدة منهما تريد التغلب على الأخرى فيمن تحت رعايتهما معا .

وليس من السهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف فى أبدانهم وأموالهم بل فى عقولهم أيدى الحكام والملوك، بما تقتضيه مصالح الملك الفانى إذا كان ذلك التصرف مخالفا لما جاء فى الكتب السماوية أو لتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم ، فإذا همت هذه السلطة بالمعارضة فهل تصبر الأخرى ؟

وهذا هو الذى وقع فى العالم المسيحى منذ ظهرت سلطة الدين وحق

(١) الإسلام فى الواقع الأيدولوجى . الدكتور محمد البهى ص ١٥٥

الآن ، وكيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها ، والسلطة الدينية إنما تستمد حكمها من الله وبمتد نفوذها بقوة إلى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء ، ولا قوة للحكومة ولا للسلطان إلا بأولئك الناس المغلوبين لسلطة الدين . وهل يستطيع البدن المحكوم بالسلطة الدنيوية أن يأتى بأعمال مستقلة عن الروح الذى يحيا بها . وهل تستطيع الأرواح أن تأتى أعمالها بدون الأبدان التى تحمل قواها[1] .

لقد أخذ المسيحيون جملة قالها المسيح فى ظروف معينة واعتبروها نصا قاطعا فى فصل الدين عن الدولة وهى قوله عليه السلام (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) ولكنهم لو عرفوا سبب هذا الكلام لفهموا أن المسيح لم يقصد بها ما فهموه هم .

فالقصة على ما جاء فى الإنجيل[2] (أن رؤساء الكهنة والكتبة اليهود أرادوا أن يكيدوا للمسيح بعد أن ناقشهم وأفحمهم . ففكروا فى حيلة ليتخلصوا منه . فراقبوه وأرسلوا جواسيس يظهرون أنهم أبرار لكي يمسكوه بكلمة ، حتى يسلموه إلى حكم الوالى وسلطانه ، فسألوه قائلين (يا معلم نعلم أنك بالاستقامة تتكلم وتعلم ولا تقبل الوجوه الا بالحق تعلم طريق الله - أيجوز لنا أن نعطى جزية لقيصر أم لا ؟ فشعر بمكرهم ، وقال لهم لماذا يجربوننى ؟ أرونى ديناراً . لمن الصورة والكتابة فأجابوه وقالوا لقيصر فقال لهم : إعطوا

---

(١) الإسلام والنصرانية للمرحوم الشيخ محمد عبده ص ٤٦ وما قبلها بتصرف .

(٢) إنجيل لوقا إصحاح ٢٠ - ٢٧

إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة تدام الشعب وعجبوا من جوابه وسكتوا) .

ومعنى هذا الكلام وهو الظاهر من سياق القصة . أن صاحب العملة التى تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئاً فادفعوا له ، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ما هو من الله وعليه طابع صنعه فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً . . [1]

ولقد قال المسيح ما قال لأنه عرف كما يحكي الإنجيل أنهم يريدون أن يأخذوا عليه كلاماً فى حق الحاكم ليسلموه إليه ويتخلصوا منه ، وكان هؤلاء جواسيس بنص الإنجيل ، وهو قد شعر بمكرهم وكيدهم وقال لهم لماذا يجربوننى ؟ وعرف مقصدهم وما يرمون إليه .

فكان من السفه أن يقع أمامهم بما يؤخذ عليه ويكون سبباً فى معاقبته بسبب الخوض فى حق الحاكم . ولذلك بعد أن قال لهم ما قال . قال لوقا (فلم يقدروا على أن يمسكوه بكلمة تدام الشعب) ومع ذلك فقد تكلم بالحقيقة دون أن يؤخذ عليه مأخذ .

وهو حين طلب منهم الدينار وسألهم عما عليه من الصورة والكتابة إنما أراد أن يخبرهم بأن قيصر هو صاحب المال وهو الذى أمر بطبعه أو سكه ويستطيع كحاكم متملك على هذا الشعب متحكم فيه أن يمنع هذه الدنانير ، وما دامت له فاعطوها إياه مادام قد طلبها أو فرضها على هذا الشعب فهى حقه أما حق الله فلا تعطوه إلا لله .

فكان هذا إفحاماً من عيسى لهؤلاء الأعداء (جواسيس الرومان) !

(١) الاسلام والنصرانية ص ٤٦

يقول الشيخ محمد عبده « والعلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله ، فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية الدينية فأى تسامح مع العلم فى هذا[1] ؟

ولقد كان المسيح عليه السلام يحض على طاعة الحكومة السائدة أئمة ويؤدى الضريبة الموضوعة عليه عن نفسه كتابع للدولة الرومانية ، وعن تلميذه سمعان الذى أوعز إليه أن يؤدى عنه تلك الضريبة[2] .

ولا يعنى هـــذا أبداً أن المسيحية دين روحى خالص ليس للدنيا فيه نصيب ، وإنما كان وضع الأمة وظروفها يحتمان على المسيح وأتباعه وهم قلة ألا يناصبوا الحكومة العداء فلا يقفوا فى وجه السلطان وهم ضعاف .

ولكن المسيح برغم هذا صرح للحاكم الرومانى الأعلى فى ولاية اليهودية بأن السلطة الدنيوية التى وليها من جانب رومية هى فى الحقيقة صادرة من لدن الخالق ، فقد قال للحاكم الرومانى (لم يكن لك سلطان على البتة إن لم تكن قد أعطيت من فوق) والمراد بفوق ، القدرة الالهية التى هى فوق كل الخليقة وهى التى تعرف باسم الدين[3] .

مقصودنا من الحديث عن اشتمال اليهودية والمسيحية على الدين والدنيا

حين نتحدث عن اليهودية والنصرانية إنما نتحدث عن كتاب موسى وكتاب عيسى وعن الرسالات الصحيحة غير المحرفة .

فكتاب موسى ورسالة إبراهيم وما أنزل على الرسل من بعدهم هو الإسلام الذى جاء به القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من هذه الرسالات .

وحين نقول هذا ، نقوله حتى لا يعترض معترض ويقول : كيف نقول إن...

---

(١) نفس المرجع السابق

(٢) الأزاهير المضمونة ص ٢٦٦ (٣) نفس المرجع السابق

اليهودية والمسيحية قد اشتملتا على الدين والدنيا مع أننا لا نجد واحداً يقول بذلك خاصة من المسيحيين بالذات ، وأن المسيحيين قد فصلوا الدين عن الدولة لما ثبت لهم عدم اتفاقهما ، نقول :

إنهم قد اختلفوا عن دين الله ورسالته سواء على عهد موسى أو عهد عيسى عليهما السلام وقد أثبت القرآن الكريم هذا حيث جعل اليهود والنصارى دينهم دين النخبة الممتازة والصفوة المختارة ، (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض ومابينهما وإليه المصير) .[1]

فهم حرفوا وغيروا وبدلوا فى دين الله ، وبهذا التحريف والتبديل والتغيير حال أن يكون الدين فى اليهودية والمسيحية وفى دولهم المعاصرة من مقومات الدولة كدول عصرية يجب أن تسوى بين جميع الأفراد فى الاختيار البشرى وفى حرية العقيدة .

وحين أعطى المسيحيون القداسة والعصمة للبشر ، وربطوا بين الله وابن الله والروح القدس وآمنوا بحلول الوحدة والتثليث وربطوا بينهما وبين رئيس الحكومة الإلهية الذى جعلوا له وحده حق القول والتفسير وحق الطاعة وحق الولاء .

حين صنعوا ذلك اصطدمت المجتمعات المسيحية المعاصرة مع هذا السيد الكنسى ، فثاروا ضده ، واستنكروا هذه القداسة والعصمة للإنسان فى دين الكنيسة وأعلنوا فصل الدين عن الدولة وذلك بعد أن تغيرت رسالة الله لعيسى بن مريم (عليه السلام) وتحولت إلى مسيحية الكنيسة وأقامت هذه عليها سلطة سياسية وحكومة إلهية معصومة عن الخطأ ، ومن شأنها عندئذ أن تحول

---

(١) سورة المائدة : آية ١٨

دون اعتبارها مقوماً فى دولة إنسانية تصيب وتخطىء فى تقديرها ، كما تحولت قبلها وبعدها رسالة موسى عليه السلام إلى دين النخبة الممتازة والشعب المختار وتحولت إلى اليهودية ومن شأنها عندئذ أيضاً أن تحول دون اعتبارها مقوماً فى دولة عصرية لافرق بين الأفراد فيها ، ولا ترى للشعوبية أثراً فى تمييز هؤلاء الأفراد بعضهم عن بعض .[1]

ولهذا جاء الاسلام مصححاً لتحريف الرسالتين السابقتين قبله ولبيان مااختلف فيه أهل الكتاب هنا وهناك عن كتاب الله، يضع الناس جميعاً أمام الاعتبار البشرى ويرفع العصمة عن الانسان إلا فى نطاق ما يكلف به رسول لتبليغه من وحى الله إلى الناس وهو بهذا يصحح ما اختلف فيه النصارى واليهود من كتاب الله ودينه وهو كتاب موسى وعيسى ومحمد على السواء .

والدكتور محمد البهى فى كتابه (الاسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر ص ١٤٥) لا يفرق بين الأديان جميعها فى أنها إنما ظهرت لتغيير الوضع الاجتماعى وأنها تأتى عقب اختلال واضح فى توازن المجتمع ويقرر بأن هذا ليس قاصراً على الرسالات الدينية سواء منها ما كان دينياً أو فلسفياً وأنها لا تأتى إلا عقب هذا الاختلال ، ويقول :

« إن كل نظم الحكم فى الجماعة الإنسانية تعطى لنفسها الحق فى أنها قامت لتزيل الاختلال فى التوازن وتحقق العدل الاجتماعى »

ثم يتحدث بعد هذا عن فلسفة الثورة الفرنسية وأسباب قيامها وثورات القرن العشرين كالشيوعية والفاشية النازية الأولى فى إيطاليا والثانية فى المانيا .

ويتحدث عن الفلسفة الخاصة لكل هذه الثورات والتى بررت قيامها ثم يتحدث عن الرسالات الدينية (ص ١٥٤) فيقول :

---

(١) ص ٣٦ من مجلة الفكر الاسلامى السنة الاولى العدد العاشر جمادى الثانية ١٣٩٠ هـ من مقال للدكتور / محمد البهى .

(لو انتقلنا من هذه الثورات جميعها ومن فلسفتها الخاصة بها المبررة لقيامها واستمرارها إلى تلك الرسالات الدينية التى تمثل ثورات ومبررات لهذه الثورات ، نجدها قامت على أثر إختلال فى توازن المجتمع لتقييد الميزان أو لتقييد وضع التوازن الموجود فى المجتمع الإنسانى . (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً)[1] .

ويتحدث عن رسالة المسيح التى جاءت على أثر إختلال المجتمع الشرقى اليهودى ، ثم يقول : إن الإسلام جاء أيضاً ليعيد توازن المجتمع الإنسانى من جديد بعد إختلاله .

وقد خلص من هذا كله إلى أن الرسالات الدينية عبارة عن ثورات مثلها مثل الثورات التى قادها زعماء وتوفر على توضيحها فلاسفة ، فقد جاءت هى الأخرى بسبب إختلال التوازن من جديد فى مجتمعاتها التى قامت فيها .

ثم يرى ص ١٥٨ : أن كل ثورة قامت فى أى مجتمع إنسانى أو قدر لها أن تقوم يلاحظ فيها جانبان رئيسيان :

الأول : جانب سياسى .

الثانى : جانب إنسانى .

وبعد أن يتحدث عن الجانب السياسى (١٥٩ ـ ١٦٠) والذى يتمثل فى أن تتاح للفرد الحرية فى الحياة .

ويتحدث عن الجانب الأخلاقى فى (ص ١٦١) الذى يتمثل فى الإحتفاظ بكرامة الفرد حيث لا تهدر آدميته وإنسانيته فيقول (هذان المفهومان للحرية والكرامة الإنسانية للفرد وتحديدها على هذا النحو منبثق من معنى الثورة) ،

(١) سورة القصص : آية : ٤ .

أى الثورة التى قامت لتزيل إختلال التوازن وتعيد من جديد علاقات الأفراد إلى الوضع الطبيعى .

وليس تحديدها الآن مشتقاً ومتنوعاً من ثورة بعينها ، وكما أن تحديدها مشتق من طبيعة الثورة فتلازم أحدهما للآخر من لوازم هذه الطبيعة الأصلية وإذاً السياسة تقوم على أساس توفير الحرية الفردية فى المجتمع لا تنفصل عن الأخلاق التى تدعو لتوفير الكرامة الإنسانية والإحتفاظ بهذه الكرامة فى السلوك والتصرف .

ثم يقول :

(وهنا تتضح العلاقة المشتركة بين معنى الثورة ومعنى الرسالة الدينية فكلتاهما تهدف إلى تحقيق الأمرين معاً فى المجتمع البشرى) .

ثم يقول :

وهنا نشير مرة أخرى إلى أن فصل السياسة عن الأخلاق فى حياة الإنسان والمجتمع فصل مصطنع .

ويواصل كلامه لإثبات تلازم الدين والدنيا والسياسة والأخلاق كما عبر عنها أرسطو فيقول :

(وأرسطو الفيلسوف الاغريقى عندما ربط بين السياسة والأخلاق كان طبيعياً فى تفكيره وكان بعيداً عن التأثر بالعوامل التى اصطنعت هذا الفصل فيما بعد فى تاريخ الفكر البشرى) .[1]

فهل يصبح هناك شك بعد كل ما قيل فى أن الأديان جميعها مشتملة على الدين والدنيا ؟

---

(١) الإسلام فى الواقع الأيدولوجى ، د / محمد البهى ص ١٦١ ، ١٦٢ .

وأن الله تكفل بحفظها ورعايتها وأسس لها دولا تحميها وتدعو لها وتحمل إسمها ؟

الدين والدولة فى الإسلام :

والاسلام ككل الأديان السابقة كان لابد له من دولة تحميه ، وجماعة مؤمنة مخلصة تدعو له وتخلص فى هذه الدعوة ، مما يجعلنا نقرر أن الأديان جميعها إنما هى مشتملة على الدين والدنيا معاً ، لأن الله تعالى الذى خلق النفوس وحماها من الانحراف والضلال ورسم لها ما يكفل سعادة الدنيا والآخرة .

وإذا كان من البدهيات التى لا تحتمل الشك أن الاسلام دين ودولة ، دين يستمد منه التشريع والالهام ، تقوم على مبادئه القوانين والأنظمة والحكم الأعلى فيما يختص بتفسيره وتقنينه إجماع رجال الدين من الأئمة الحفظة الثقات الذين تخصصوا لهذا وأعدوا له حكومة يشرف عليها رجال السياسة والدبلوماسية والخبراء المهرة فى فنون الحكم والادارة ، القادة الدهاة أصحاب الفهم الواسع فى مشاكل العالم وأنظمته وحكوماته ومناوراته[1] .

حيث لا تجد السياسة فى الدين مايقف دون مصلحة ولا تجد منه ما يحمل على إتيان مفسدة خصوصاً إذا كان القابضون على زمام الأمور من حصافة الرأى وفى منعة من أن يعايش بهم التقليد أو إرضاء لطائفة خاصة ، إلا أن يروا الفساد صلاحا فيشرعوه أو يروا الصلاح فى لون الفساد فينصرفوا عنه .

إذا كان هذا فى الاسلام وقد قرره عشرات المستشرقين بعد إجماع المسلمين عليه ، واعتبرنا أنه من البديهيات التى لاتحتمل الشك ، فإنى وإنصافاً للحق وإقراراً به أرى أن اليهودية الصحيحة والمسيحية الصحيحة وهى إستمرار للشريعة اليهودية ، كانتا تشتملان أيضاً على خيرى الدنيا والآخرة ، أى أنهما

[1] راجع دولة القرآن ص ٧٤ . طه عبد الباقى سرور .

دين ودولة أيضاً ، ولا داعى للتعنت والتعصب الأعمى ، وتقرير أن الدين الاسلامى وحـــده هو دين ودولة ، وأن غيره من الأديان ليست فيه هذه الخصوصية ، ولكن من الإنصاف أن نقرر أن اليهودية والمسيحية ديانتان موقوتتان بزمان معين أى إلى ظهور الاسلام ، وهاتان الديانتان فرعان من الدين الأصلى الأم ، الاسلام .

(إن الدين عند الله الاسلام) .[1]

ديانتان فيهمـا من المصالح الدنيوية والتشريعات السياسية وحاجات أتباعهما فى الناحية الروحية والدنيوية ما يكفل لهم السعادة وما يوصلهم إلى طريق الهدى والنور .

وإن كانت هـــذه المصالح الدنيوية والتشريعات السياسية فى هاتين الديانتين تشريعات محددة مؤقتة أيضاً لأنها موقوتة حتى يأتى الإسلام ، ولذلك كان فيها تفصيل وتحـــديد على خلاف ما فى القرآن الكريم وهو الدستور النهائى الكامل الشامل المهيمن على ما قبله من كتب (دساتير) الصالح لكل زمان ومكان .

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه)[2] وهو الذى تقتضى الحكمة كله وشموله بأن تكون مواده عامة بلا تفصيل جزئى حتى تتناسب مع كل العصور والأزمان، خاصة وأنه خاتم الكتب ورسوله محمد ﷺ خاتم الرسل ورسالته خاتمة الرسالات .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ .
(٢) سورة المائدة . آية ٤٨ .

ولذلك كان نظام الحكم فى اليهودية نظاماً إلهياً سماوياً مفصلا لا يتصرفون فيه إلا بوحى، والأنبياء تسوسهم كما ثبت فى حديث رسول الله ﷺ أو تختار لهم حكامهم كما حدث واختار (شموئيل) النبى ملكاً على بنى إسرائيل بعد أن طلبوا منه ذلك، وقد حددت لهم الأمور تحديداً وكان فى التوراة كما يحكي القرآن. (موعظة وتفصيلا لكل شىء).

وكانت أنبياؤهم من الكثرة بحيث يسهل عليهم معرفة أى شىء فى دينهم ودنياهم، وقد قال الرسول ﷺ فى الحديث الذى ذكرناه إن الأنبياء كانت تسوسهم وتحكمهم وأنه كلما هلك نبى خلفه نبى.

وأما الاسلام وباعتباره نهاية الشرائع وختام الحلقة فى سلسلة الديانات والشرائع، وهيمنة دستوره القرآن الكريم على ماقبله من دساتير (الكتب السماوية).

فلقد كان من الضرورى وهو الدين الخاتم أن يشتمل وتشتمل شريعته بنصوصها وأصولها على أحكام ما لا يتناهى من الوقائع وأن تكون هذه الشريعة أحكم ما تساس به الأمم، وأصلح ما يقتفى عند التباس المصالح أو التنازع فى الحقوق. وقد أجمع علماء المسلمين على هذه الحقوق وعرفها عامتهم فمن أنكر واحدة منها فقد ابتغى فى غير هداية الاسلام سبيلا.

فالمجتمع البشرى فى نظر الاسلام مجتمع متكامل ليس فيه إختلال ولا تطرف، أى أنه لا يعتمد على طرف واحد من الطرفين (المادية والروحية) وهو لهذا لا يعرف الانفصالية فى حياة الانسان.

وليس المجتمع البشرى فى نظر تعاليم الاسلام بوجود مستقل عن الأفراد فى علاقات بعضهم ببعض.

وكما لا يستقل فى محيط الفرد جسم الانسان عن روحه كذلك فى محيط المجتمع لا يستقل فرد عن فرد ولذا لا يعرف الإسلام الانفصالية فى حياة الانسان ولا يفرق فى ولائه بين ما لله وما لغير الله من إنسان[1] .

(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيراً وأحسن تأويلا)[2] .

---

(١) الاسلام فى الواقع الأيديولوجى : د / محمد ا
(٢) سورة النساء . آية ٥٩ .

محاولة الغربيين إخضاع الإسلام لتحديدهم الخاص لمفهوم الدين والدولة عندهم

يقول الدكتور محمد البهى فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) وهو يتحدث عن الدين والدولة كيف أن الفكر الغربى والمسيحيون الغربيون يحاولون حين دراستهم للإسلام إخضاعه للتحديد الذى يحددونه هم للدين والدولة ، وإذا رفض الإسلام هذا التحديد قضوا فى شأنه بأنه ليس وحيا ولا رسالة من السماء وهو على الأكثر رسالة إصلاحية قام بها زعيم أو مصلح إنسانى[1] .

ويقول أما تحديده بالدين والدولة معاً فمأخوذ من واقع الصلة بين المسيحية والحكومة فى نظر الغربيين أنفسهم ، تلك الصلة التى تأثرت بعوامل مختلفة وتبلورت أخيراً فيما يسمى الآن بالكنيسة والدولة أو بتمايز السلطتين[2] .

ثم يقول وعلى أساس من الفصل بين الكنيسة والحكومة حدد الغربيون معنى الدين فأرادوا به التوجيه الروحى بين الأفراد كما حددوا معنى الدولة والحكومة ، فقصدوا بها تنظيم العلاقات بين الأفراد واستعانوا فى هذا التحديد بموقف المسيح فى قومه وبطابع رسالته إلى شعب إسرائيل وهى رسالة المحبة بين ذوى القربى .

ثم يقول[3] : وبهذا كان الدين فى تصور الغربيين مشتقا من طابع الرسالة

---

(1) الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د. محمد البهى ص ٢٥
(2) نفس المرجع السابق
(3) « « « ٢٢٦

التى جاء بها عيسى وكذا الحال التى انتهى إليها النزاع بين الكنيسة والحكومة الغربية ، وأصبحت الروحية أو الدعوة إلى صفاء النفوس التى كدرتها شرور المادة والتزاحم فى الحياة الدنيوية مجال اختصاص الدين وماخرج عن نطاق هذه الدعوة فليس من شئون الدين ، ويرجع فيه إلى المصلحة العامة التى تقدرها الرعاية البشرية العامة للجماعة ، وهى تلك الرعاية التى تمثل السلطة الحكومية أو الدولة .

ثم يستطرد ويقول[1] : ومن الغريب أنهم يقفون بهذا التطبيق عند حد الإسلام وحده ولا يتجاوزونه إلى اليهودية مثلا ، فلا ينكرون عليها طبيعة الدين إذا ما اتخذته أساسا لقيام دولة إسرائيل ، وإذا ماحاول اليهود فى العالم وضع خريطة هذه الدولة وتنفيذها طبقا لتعاليم العهد القديم وطبقا لما جاء فى هذا العهد خاصا بشعب الله المختار ، وإذا ماحاولوا أيضا جعل اليهودية دستوراً لعلاقات بعضهم ببعض داخل إسرائيل وكذا لعلاقات هذه الدولة بالعالم الخارجى وبالأخص لجيرانها من العرب .

والدكتور البهى يفسر وجهة نظر هؤلاء للإسلام على أنهم يرونه مجرد دعوة للصفاء النفسى ، ويخرج عن طبيعة الدين ويدخل فى مجال الإصلاح البشرى فقط ، ومن ثم كان تنظيمه لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض آية على بشريته فى تقدير الغربيين المسيحيين .

ويقول الدكتور البهى[2] :

والمسلمون المجددون وهم أولئك الذين تأثروا بالغربيين فى نظرتهم إلى

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د: محمد البهى ص٢٢٧
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٨

الحياة كلها ، وليس هنا مجددون فى الشرق الإسلامى لم يتأثروا بالغربيين ، بعد أن يقروا هؤلاء على نظرتهم للدين وعلى تحديدهم لمعناه ومفهومه يحاولون أن يجدوا تخريجا لهذه الفضلة فى الإسلام حتى يبقوه دينا ، وحتى ينال فى الوقت نفسه رضاء علماء الغرب عن الإسلام والمسلمين لا كمسيحيين ولا كمؤمنين به وإنما كمشاركين للغربيين فى الحياة الحاضرة .

هذه الفضلة هى موضوع التخريج ، أو هى موضوع من موضوعات التجديد فى الفكر الإسلامى الحديث ، وادعاء أن الإسلام دين لا دولة واحد من تخريجات عدة لهذه الفضلة التى عابت الإسلام كدين ، ووقفت فى طريق اعتراف الغرب المسيحى المتحضر به .

ويرى الدكتور البهى : أن هذه التخريجات المتنوعة كلها تؤول إلى شىء واحد هو إلغاء شخصية الجماعة الإسلامية .

ويرى أيضا أن تصريح بعض المسلمين بأن الإسلام دين لا دولة كان واضحا فى قصر الإسلام على الأفراد دون الجماعة ، وبعبارة أخرى كان واضحا فى إلغاء شخصية الجماعة الإسلامية ، وكان واضحا أيضا فى محاولة إلغاء الجهاد أو إنكاره على الإسلام كرسالة من رسالات السماء مع أنه جزء لا يتجزأ منه[1] .

ثم يرد الدكتور البهى : على كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للشيخ على عبد الرازق الذى يعرض دعوى أن دين الإسلام دين لا دولة ، ويفند مايراه مؤلف هذا الكتاب من أن الزعامة النبوية موقوتة بوقت الرسول وبشخصه ولا تكون لإنسان آخر بعده مهما بلغ من مستوى المنزلة فى نفسه أو بين المسلمين

---

[1] المرجع السابق ص ٨٢٢

وأن الإسلام دين فقط وما يدعو إليه من وحدة بين المؤمنين به هو وحدة دينية لا وحدة في الحكومة أو الدولة أو الترابط السياسي والعلاقات العامة.(١)

ويقول الدكتور البهي: وكان لابد للكتاب من أن يتعرض لفكرة الجهاد في الإسلام كمظهر من المظاهر التي تجعله دين جماعة وليس دينا لمجموعة من الناس، مما لا يساعد على الوقوف بالإسلام عند حد الدين في عرف الغربيين، فقد تعرض لها فعلا وشرحها أخيراً على أنها من خصائص الزعامة النبوية، فهي إذن موقوتة بوقتها ولذا فقد انتهى أمر الجهاد بوفاة صاحب هذه الزعامة، وانتهت بذلك شخصية الجماعة الإسلامية، وبقي المسلمون بعد وفاته أفراداً يختار كل فريق منهم الاتجاه السياسي الذي ينزع إليه ولو كان اتجاها شيوعيا.

ثم يقول وهو الذي ينتهي إليه الكتاب بالنتيجة التي ينتهي إليها تفكير السيد أحمد خان ومذهب القاديانية من إلغاء الشخصية الاسلامية(٢).

وأنا هنا لا أحاول ذكر النصوص التي ذكرها الشيخ علي عبدالرازق لإثبات أن الإسلام دين لا دولة جريا وراء المستشرقين والتجديد في الفكر الإسلامي حتى وإن أدى إلى إلغاء بدهية من البدهيات، ولكن سأحاول باختصار إثبات أن الإسلام دين ودولة حتى وإن صمم علماء الغرب على أنه مجرد رسالة إصلاحية بشرية تقوم على الدعوة والصفاء النفسي.

والغريب أن تجربة توزيع السلطة في الغرب بين الكنيسة والدولة وهو ما يعرف بالفصل بين الدين والدولة، لم تثمر الاحتكاك بين السلطتين فقط بل كان من ثمراتها إخضاع إحدى السلطتين للأخرى في النهاية، وفي واقع الأمر كان

---

(١) راجع المرجع السابق صفحات ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي د/ البهي ص ٢٣٠ — ٢٤٠

هو اخضاع الدولة للكنيسة فالدولة الغربية الحديثة فى أوربا وأمريكا تعتمد على النظام الديمقراطى وهو نظام التصويت الشعبى ، وفى معركة التصويت الشعبى يتفوق الحزب السياسى الذى يبذل لتنفيذ أتجاه الكنيسة من الوعود والعهود أكثرها اذا ما وصل الى كرسى الحكم، ومظهر الفصل بين السلطتين فى الغرب يتجلى فى فرض الضرائب وجبايتها ، فللدولة ضرائب وللكنيسة ضرائب أخرى ، والسلطة التنفيذية لا تتدخل فى تشريع ضرائب الكنيسة وإنما تتدخل فقط فى تحصيلها لصالح الكنيسة للعهد بين السلطتين .

ان رجال السياسة فى الغرب عامة يعرفون جيدا الثمن الذى دفعوه للفاتيكان مقابل تأييده للحلفاء ضد النازية والفاشية فى الحرب الاخيرة ويعرفون جيدا الثمن الذى يدفعونه الآن لقاء تعضيده مقاومة الشعوب فى العالم المسيحى ، وكذا رجال السياسة فى كل بلد غربى مسيحى الآن يعرفون متى يحكمون وأنهم لابد لهم من تأييد الكنيسة المحلية لحكمهم .

والتاريخ السياسى الحديث لم يزل يذكر ثورة الارجنتين على دكتاتورها السابق عندما شق عصا الطاعة على رجال الكنيسة الارجنتينية[1] .

الأدلة على أن الاسلام دين ودولة :

قلنا فى الفصل السابق ان أى دين أو دعوة لابد لها من قوة تحميها وقلنا ان الدين والسياسة توأمان لا ينفصلان عن بعضهما ليس فى الإسلام فقط ، وإنما فى كل الأديان والرسالات السماوية ، ولأن الدولة كما قرر أفلاطون لا تعدو أن تكون كائنا عضويا تتساند أعضاؤه وتتعاون من

---

(١) الفكر الاسلامى وصلته بالاستعمار الغربى د/ البهى ص ٢٤٣ - ٢٤٤

أجل صيانة حياته وضمان استمراره، وأن السياسة بسبب ذلك ليست هي مجرد الأحكام والقوانين التي تطبق في مجتمع من المجتمعات، ولكنها في الواقع ذلك العلم الذي تصدر مبادئه العامة عن الفكر السليم والإدراك الصحيح.

ولذلك فإن السياسة علم أخلاق تتحد غايته في تحقيق العدالة في المجتمع، والله تعالى «ما أرسل الرسل إلا ليتعلم الناس الأخلاق وتحقيق العدالة بينهم»، ولذلك تكفل بالإنسان ككل، ورسم له الطريق الصحيح الذي يستطيع أن يسلكه في حياته.

ولقد أرسل الرسل عليهم السلام يرمون في الدعوة إلى أصول الإيمان بالله عن قوس واحدة، ولكل رسول بعد هذا شريعة يراعى في أمرها ونهيها حال من يرسل إليهم خاصة كما تلف، حتى جاء الوقت الذى تهيأ فيه البشر على اختلاف بيئاتهم للانتظام في شريعة واحدة، فبعث الله المصطفى ﷺ، بالحنيفية السمحاء، وجعله خاتم النبيين، وقضى بأن تكون شريعته خاتم الشرائع ولعموم رسالته سواء الشاهد فيها ذو فطرة صافية أو بصيرة نافذة إلا أسلم وجهه لله قانتا.

(وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)[1].

وخلود شريعته جعلها أبلغ الشرائع وأوفاها أصولا وأوسعها للمصالح رعاية[2].

وقد جاء الإسلام بالأحكام والأصول القضائية العامة والصالحة للبشرية

---

(١) الأنعام : ١٩.

(٢) رسائل الاصلاح الخضر حسين ص ١٢١ ج ١

هو وضع فى فم السياسة لجاما من الحكمة ، ومن هذا فإن من يتجاهل القرآن والسنة ويحفل بسيرة الرسول والخلفاء الذين كانوا يزنون الحوادث بمقياس الشريعة ويرجعون عن الاختلاف إلى : كتاب الله وسنة رسوله يجافى الحقيقة ويبعد عن روح الدين .

وفى القرآن الكريم شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل فى المعاملات المدنية وتتولى إرشاد السلطة السياسية قال تعالى :

(أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)[1] .

وكل حكم يخالف شرع الله فهو من فصيلة أحكام الجاهلية ، ولقد طلب كما سبق من اليهود والنصارى أن يكون حكمهم غير مخالف لما شرع الله لهم فى إنجيلهم وتوراتهم :

فقال لهم (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)[2] .

(فأولئك هم الفاسقون)[3] .

وفى قوله تعالى هنا (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)[4] .

إيماء إلى أن غير الموقنين قد ينازعون فى حسن أحكام رب البرية وتهوى أنفسهم تبدلها لا بمثل أحكام الجاهلية ، وذلك لأنهم فى غطاء من تقليد قوم كبروا فى أعينهم ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم .

( ) المائدة : ٥١ .

(٢) المائدة ٤٥ .

(٣) المائدة : ٤٧

(٤) المائدة : ٥٠

وفى قول الله تعالى للرسول :

(وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولاتتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك)[١] .

فرض أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله ، ونبه على أن من لم يدخل الإيمان فى قلوبهم يبغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة مايوافق أهواءهم ، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن يفتنه أسباب الشهوات عن بعض ماأنزل الله ، وفتنتهم له فى أن يسمع لقولهم ويضع مكان حكم الله حكما يلائم بغيتهم[٢] .

فقال لهم (اليهود والنصارى) .

وقال لنا (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)[٣] .

وفى آية (فأولئك هم الفاسقون) وفى آية أخرى (فأولئك هم الكافرون)[٤]

وفى القرآن الكريم أحكام كثيرة فى التشريع ليست من التوحيد ولامن العبادات كأحكام البيع والربا والرهن والدين والإشهاد ، وأحكام النكاح والطلاق واللعان والولاء والظهار ، والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث وأحكام القصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزانى وقاذف المحصنات وجزاء الساعى فى الأرض فساداً بل فى القرآن آيات حربية فيها ما يرشد إلى وسائل الانتصار المادية والمعنوية وفى الآيات الحربية مايتعلق بالصلح وعقد

---

(١) المائدة : ٤٩

(٢) رسائل الإصلاح ص ١٢٦ الخضر حسين ج ١

(٣) المائدة : ٤٥

(٤) « : ٤٤

المعاهدات هـذا عدا ما فى السنة الصحيحة من أحكام مفصلة فى أبواب المعاملات والجنايات وغيرهما .

وفى سيرة أصحاب الرسول وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ما يدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطانا على السياسة فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عند مبايعته شرط العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

ولولا علمهم بأن السياسة لاتنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو سيراه مجلس شوراه مصلحة .

وفى صحيح البخارى (كان الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبى ﷺ) .

وليس لنا لإبطال حجة الشيخ على عبد الرازق وأمثاله إلا أن نقرر أن فى القرآن الكريم أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات كأحكام البيع والربا والزواج والطلاق وغير ذلك من أمور تتعلق بالسياسة ونظام الحكم .

وما فى السنة من أحكام مفصلة فى المعاملات والجنايات وغير ذلك ، كذلك من الأدلة على ارتباط الدين بالسياسة ما نجده من حديث صحيح البخارى (كان الأئمة بعد النبى ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها فإن وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره اقتداء بالنبى ﷺ[1] .

(١) رسائل الاصلاح ص ٧ ج ١

وحين قرر أبو بكر أن يحارب مانعي الزكاة واعترض عمر دارت بينهما محاورة على التفقه في حديث رسول الله ﷺ : الذي استدل به كل منهما على وجهة نظره ، فعمر رضي الله عنه يستدل بهذا الحديث على عدم جواز قتال مانعي الزكاة استناداً إلى قول : الرسول ﷺ .

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلخ . .)[1] .

ومانعي الزكاة يندقون بالشهادتين فلا يجوز قتالهم من وجهة نظر عمر رضي الله عنه استناداً إلى هذا الحديث ، إلا أن أبا بكر أراد أن يقنعه باستناده إلى الشرع ويستدل بنفس الحديث الذي يحتج فيه بقول رسول الله ﷺ إلا بحقها ، ويقول (الزكاة من حق الأموال) ولو لم يكونوا على يقين من أن السياسة لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث .

أو لوجد أبو بكر عندما احتج عمر بالحديث فسحة في أن يقول له ، ذلك حديث رسول الله ﷺ وقتال مانعي الزكاة من شئون السياسة[2] .

ولم يوجد حتى في الأمراء المسلمين القدامى المعروفين بالفجور من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العلمية ، وإن كان كثير من تصرفاتهم على غير ما يأذن به الله جهالة منهم أو طغياناً .

وحين أراد الحجاج أن يأخذ رجلا بجريرة بعض أقاربه وذكره الرجل بقوله تعالى :

---

(١) الحديث بطوله متفق عليه بين البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وهو صحيح متواتر (الجامع الصغير) ج ١ ص ١١٠

(٢) رسائل الاصلاح ص ١٢٧ ج ١

(ولا تزر وازرة وزر أخرى)[1] .

تركه الحجاج وأطلق سراحه ولم يخطر بباله وهو ذلك الطاغية الجبار أن يقول له مثلا ، أن ماتقوله دين وما أفعله سياسة[2] .

وحين بدى لعمر أن يضع حدا لمهور النساء بعد التغالى فيها ، إذا بامرأة تقف فى المسجد تعارض عمر وتقول له كيف هذا والله يقول (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً)[3] .

فلم يزد عمر على أن قال : رجل أخطأ وأصابت امرأة ، وألغى هـذا الرأى وما كان ينوى عمله ، ولم يقل ذلك دين وهـذا سياسة .

إذا فالإسلام دين ودولة رضى بذلك الناس أولم يرضوا .

وكون بعض الرؤساء للمسلمين لم يحافظوا فى سياسة شعوبهم الإسلامية على أحكام الشريعة وآدابها ، فوضعوا لهم قوانين جائرة (ابتعدوا عن قوانين الإسلام وآدابه وتعاليمه وأذنوا بمظاهر غير صالحة ، إنما صنعوا هـذا من ناحية جهلهم بسماحة شرع الإسلام وسعة قواعده وسمو مقاصده ، وتقليداً أعمى للغربيين الذين فصلوا بين الناحيتين الدينية والسياسية وأرادوا الشعوب الإسلامية أن تنفصل عن دينها وأن تضيع هيبتها ، بل وجود الشخصية الإسلامية والجامعة الإسلامية وإذا كان على غير هؤلاء الرؤساء تبعة فعلى أولى الحل والعقد من فضلاء الأمة وعلمائها إذا أهملوا علاجهم ولم يبذلوا فى دعوتهم إلى الاستقامة جهدهم[4] . والله أعـلم .

---

(١) فاطر : ١٨

(٢) رسائل الإصلاح ص ١٢٧ جـ ١

(٣) النساء : ٢٠ وراجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٩٩ ، ١٠٠

(٤) رسائل الاصلاح ص ١٢٧ جـ ١ .

الدولة ومقوماتها

عرف الانسان القديم نظام الدولة فى إطار المدن السياسية فى روما وأثينا وأسبرطة، ومدن الدلتا المصرية، وفى آشور وبابل، وفى مدن الهند والصين القديمة[1]، وقد قام نظام المدن السياسية على أنقاض الوحدات البشرية البدائية التى يؤكد جمهور الباحثين[2]، أنها (أى الوحدات البدائية) كانت مجتمعات سياسية كاملة العناصر والأركان، وإن كانت لا تزال فى بداية التطور الحضارى.

حيث أن قاعدة الحكم فى هذه الوحدات البدائية تقوم أساساً على علاقة الدم ورابطة القرابة، وكانت تعتمد فى تنظيم علاقات أفرادها على الدين والتقاليد.

ولما قام نظام المدن السياسية على أنقاض هذه الوحدات البدائية لم يغير كثيراً من قواعد الحكم القديم، وكانت أحكام القانون تستند إلى العرف والتقاليد وتأخذ من المعتقدات الدينية مصدراً للإلزام[3].

والمدينة السياسية تمثل نوعاً من المجتمعات السياسية الطبيعية، وتختلف عن الأسر وقبائل العشائر، وهى التى يطلق عليها إسم «المجتمعات البيولوجية» لأنها لا تنشأ لمجرد حفظ النوع، وإنما لتحقيق هدف إجتماعى آخر هو كفالة

---

(١) نظرية الدولة، طعيمة الجرف ص ١٧.
(٢) المرجع السابق ص ١٧
(٣) المرجع السابق ص ١٨.

الوجود الأفضل لأفرادها ، كما أنها على خلاف الأسر والقبائل والعشائر تستطيع أن تكفل نفسها بنفسها ، بل لعلها المجتمع السياسي الوحيد الذي يتميز عما سبقه في ذلك الأمر .

ويرى أساتذة القانون الدولي أن هذه المدن السياسية تمثل أول صور معرفة الإنسان القديم بالمجتمعات السياسية المنظمة، التي يمكن أن يطلق عليها اسم الدولة، على خلاف الجماعات البشرية البيولوجية التي سبقت المدن السياسية فإنها تمتد دون الحد الذي يسمح بإمكان معاملتها معاملة الدول[1] .

ومع أن بعض علماء القانون الدولي يعطون صفة الدولة حتى للجماعات البشرية الطبيعية، كالأسر والقبائل والعشائر والبطون ،حيث يرون أن الدولة لا تعدو أن تكون مجتمعاً بشرياً تحكمه فكرة الاختلاف السياسي بين مجموعة أفراده ، بحيث يكون هناك فئة حاكمة وفئة محكومة ، بل يصل إلى الاعتراف بصفة الدولة للقبائل الرحل التي لم تستقر بعد على إقليم معين،إلا أن كثيراً من علماء السياسة والقانون الدولي رفضوا هذه المحاولات للإعتراف بصبغة الدولة لهذه الجماعات ، ولكن الجميع يؤكدون صفة الدولة للمدن السياسية .

والمجتمع الدولي يعترف بهذا النظام في العصر الحديث ، وتوجد مدن سياسية في عصرنا يطلق عليها إسم الدولة (كالفاتيكان وموناكو وغيرهما)

والدولة الإسلامية حين تأسست ظلت عدة سنوات مقصورة على المدينة المنورة ، ومع ذلك كانت دولة بكل مقوماتها ، مع أنها في أول عهدها لم يكن رعاياها أكثر من بضع عشرات من الأفراد .

---

(١) المرجع السابق ، طعيمة الجرف ص ١٧ .

هل كانت مكة دولة ؟

تعتبر مكة من الناحية القانونية قديماً وحديثاً دولة لها كل مقومات الدولة فهي تمثل مرحلة من التقدم الحضاري، وتقوم على ضمير جماعي وصالح مشترك عام، يربط بين الأفراد بمجموعة من الأحاسيس التي لا تعرفها المجتمعات البدائية وهو الشرط الذي قرره الأستاذ (هوريو) لوجود دولة[1] .

الدولة باعتبارها تنظيم سياسي هي مجموعة من الأفراد تعيش حياة دائمة ومستقرة على إقليم معين تحت تنظيم سياسي معين ، كذلك يسمح لبعض أفراد الدولة بالتصدي لحكم الآخرين[2] .

ولذلك يلزم لقيام الدولة أن تتوفر لها ثلاثة أركان هامة على التوالي :

١ — شعب : أي مجموعة أفراد هم رعايا الدولة .

٢ — إقليم أي بقعة من الأرض معلومة ومحددة يعيش عليها الشعب .

٣ — تنظيم سياسي : يسمح بانقسام أفراد شعب الدولة إلى حكام ومحكومين

ومكة كانت تتوافر فيها هذه الأركان ، بل كان التنظيم السياسي فيها تنظيما واضحاً ومتداولاً وكان الحكم فيها حكماً شورياً جماعياً ، وكانت بحق تعتبر الدولة الوحيدة للعرب في الحجاز قبل الإسلام[3] .

كان لمكة جيش أهلي خاص من الأحابيش[4] ، وهم عبارة عن عناصر

(١) راجع ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ نظرية الدولة طعيمة الجرف .

(٢) نظرية الدولة ص ٢ .

(٣) نشأة الدولة الإسلامية أمين سعيد ص ٣ ج ١

(٤) قال ابن إسحاق الأحابيش : بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة . والهون بن خزيمة بن مدركة ، وبنو المصطلق من خزاعة : قال ابن هشام : تحالفوا جميعا فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة (ابن هشام ص ٢٧٣ القسم الأول) .

ضاقت بها سبل العيش فى بلادها فجاءت إلى مكة فجندتها قريش فى جيشها إلا أن قادة هذا الجيش كانوا من العرب، ويشبه نظامه كثيراً نظام الفرق الأجنبية فى الجيش الفرنسى، أو ما نسميه الآن بالمرتزقة فى بعض الجيوش الاستعمارية، وكانت مهمة الجيش فى الغالب حفظ الأمن الداخلى، وتوحيد النظام حتى لا يعبث به عابث، ويمكن أن نعبره جنود شرطة (بوليس) ولم يكن المكيون يحملون كل اعتمادهم على الأحابيش، بل كانوا يتنادون إلى الحرب والكفاح عند الحاجة، معتمدين على أنفسهم فى الدفاع عن مدينتهم، يؤيد ذلك موقفهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق، فقد اصطلوها بأنفسهم ولم يعولوا على الأحابيش .

وأنا أعتقد أن المكيين لم يكن واحد منهم يستطيع أن يتخلى عن اشتراكه فى معركة من المعارك تقررها السلطة فى مكة حتى ولو لم يكن راغباً فى الاشتراك فى هذه المعركة .

وذلك لأنى لا أستطيع تفسير موقف العباس عم النبى من ابن أخيه محمد ﷺ إذ اشترك مع المشركين فى بدر يحاربهم، ثم قبلها يقف مع ابن أخيه سراً ومن وراء قريش، ويحضر معه مع المبايعين له فى العقبة، يستوثق له منهم ويؤكد عليهم ضرورة حمايته، ويطالبهم بتركه إن كانوا عاجزين عن هذه الحماية .

وكانت مكة بالذات تمتاز عن جيرانها من مدن الجزيرة العربية كالمدينة والطائف بهذا النظام، وهى كما قلنا كانت تعتبر الدولة الوحيدة لعرب الحجاز قبل الإسلام .

وكانت دولة مكة مركزاً من مراكز التجارة والثقافة، وكان نظام الحكم

فيها يختلف عما كان قائماً فى الممالك المنظمة ، وكان نظامها . . يباين تماماً أشكال الحكم عند قبائل البدو[1] .

وكان مبدأ توزيع السلطات (القوى) محترما فيها ، فقد اقتسمت عائلات مكة المناصب الكبرى بالتساوى ، والحكم فيها كان حكماً ديمقراطياً جماعياً حيث كان يشرف عليها جماعة من الشيوخ يجمعهم مجلس أو هيئة تسمى الملأ[1] ، وهذا المجلس هو برلمانهم الذى كان يطلق عليه اسم (دار الندوة) والعضوية فيه للأحرار من أهل مكة الذين لايقل سنهم عن الاربعين[3] ، و يكن أحد من هؤلاء متملكا على بقية قريش ، إنما كان ذلك بتراض من قريش عليهم ، وكان ممثلوا الأفخاد من رؤساء الأسر يجلسون على التوالى طبقاً لمقام أفخاذهم ، وكانوا لا يبرمون أمراً إلا بعد بحثه وتمحيصه فى هذا البرلمان ، وكانت قراراتهم محترمة عند الجميع ونافذة على الجميع[4] وكان هذا البرلمان « دار الندوة » ملتقى كبار المواطنين يقومون فيه بتدبير أعمالهم التجارية ويتشاورون عند حروبهم وتعقد فيه الألوية ويتزوج فيه من يريد التزوج .

أما الاجتماع العام من المواطنين فكان يسمى (نادى القوم) وكان يعقد دائما فى فناء الكعبة حيث تناقش المسائل التى تهم الجميع وقد ألقيت المهام العديدة التى تتعلق بالكعبة وشئون مكة بصفة عامة على عدة من الأسر الكبيرة[5] .

---

(١) الادارة العربيــــة تأليف : [أ] ق حسينى ترجمة الدكتور ابراهيم احمد العدوى .
(٢) المرجع السابق ، حسينى ص ٢٧
(٣) » » » ص ٢٧
(٤) » » » ص ٢٧
(٥) » » » ص ٢٧

ا وزيع المناصب :

كانت المناصب فى مكة توزع بين أهل مكة كلها ، وقلنا إن مبدأ توزيع السلطات كان محترماً فيها ، وأن عائلات مكة كانت تقتسم المناصب الكبرى بالتساوى ، وكانت هذه المناصب مناصب دينية وسياسية فى نفس الوقت ، وإن كان الطابع الدينى يغلب عليها ، بل أن الكعبة كانت السبب فى وجود هذا النظام الفريد لنظام الحكم الذى اتفقوا عليه ووزع بينهم ، حتى لا تتنازع بطونهم على الزعامة بالسيطرة على وظائف الكعبة التى كانت منبع نفوذهم وسبب سيطرتهم روحياً ، على عرب الجزيرة كلها ويمكن مقارنة دولة مكة بالفاتيكان الآن .

كانت المناصب عبارة عن :

١ - السدانة : وهى الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها ولها المقام الأول عندهم .

٢ - السقاية . وصاحبها يتولى سقاء الحجيج وكانت فى بنى هاشم ، وكان يلى ذلك قبيل الإسلام العباس عم النبى ﷺ .

٣ - الرفادة : وهى عبارة عن مبلغ من المال كانت تدفعه قريش فى كل موسم من أموالها إلى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاماً يأكل منه الفقراء وكانت فى بنى نوفل ثم فى بنى هاشم .

٤ - الراية : وكانوا يسمونها العقاب ، وإذا أرادوا الحرب أخرجوها وإذا أجتمع رأيهم على واحد سلموه إياها وإلا فإنهم يسلمونها إلى صاحبها .

٥ - القيادة : وهى إمارة الركب وصاحبها يسير أمام الركب فى خروجهم للقتال أو للتجارة ، وكانت فى بنى أمية وصاحبها منهم فى أول الإسلام أبو سفيان .

٦ - الإشناق : وهى الديات والمغارم وكانت لتيم .

٧ - المشورة . وصاحبها يستشار فى الأمور الهامة وكانت فى بنى أسد .

٨ - السفارة . وهى أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبائل حرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيراً ، وإذا نافروهم لمفاخرة جعلوا السفير منافراً ورضوا به وكان آخر سفراء قريش فى الجاهلية عمر بن الخطاب قبل أن يسلم .

٩ - الحكومة : ويمكن أن نشبهها فى الإسلام بالقضاء أو بالتحكيم ، وكانت مهمتها الفصل بين الناس إذا اختلفوا وقيل أنها كانت قبل الإسلام فى بنى سهم .

١٠ - المسئول عن بيت المال . وكانت هذه الأموال عبارة عن النقد والحلى التى كانوا يقدمونها لآلهتهم وكانوا يسمونها لأموال المحجرة (الأموال المقررة) .

وكان هناك مسئول عن دار الندوة ، وعمن يتولى شئون خيل قريش ويدبر شئونها فى الحرب ، ويطلق عليها اسم الأعنة ، وكانت هناك مناصب أخرى ليست ذات أهمية ولكنهم ربما أوجدوها لبعض البطون ، كالأيسار وهى الأزلام التى كانوا يستقسمون بها للإستخارة ونحوها ، إذا هموا بأمر هام من سفر أو قتال وفيها العمارة وهى عبارة عن المحافظة على حرمة البيت .

ويظهر أنهم أكثروا من هذه المناصب مع أن بعضها لا أهمية له على الإطلاق ، وذلك ليرضوا كل بطون قريش خوفاً من التحاسد ، وإجلالا لقدر الكعبة والمبالغة فى تعظيمها .

وقد جمعوا بها بين السياسة من الحكومة والدين ، والإدارة والحرب

ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية ، أو هو نوع من الحكومة لاترى له شبيهاً بين الأمم المتمدنة، وربما أشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه إلا أن للشورى رئيساً كالملك أو السلطان أو رئيس الجمهورية ، وليس فى هذا شىء من ذلك إلا ماقد يكون لصاحب الندوة أو السدانة أو الرياسة[1] وتفوق بعضهم فى الشخصية على الآخرين ، فيعترف لهم بالزعامة المطلقة مثل هاشم الذى كان أول من سن الرحلتين (رحلة الشتاء والصيف)[2] ولذا كانت تسمية قريش الفيض لسماحته وفضله ، وعبدالمطلب الذى حفر بئر زمزم[3] .

كانت مكة تتعامل مع الدول المجاورة على أنها دولة لها سيادتها وقد حصلوا منها على عهود وامتيازات تسمح بحرية مرور قوافلهم التجارية عبر طرق خاصة إلى أماكن معينة وكانت هذه العهود تعرف بعهود قيصر وكسرى[4] .

كذلك فقد أبرم أهل مكة اتفاقات مع نجاشى الحبشة وشيوخ نجد الأقوياء وأقيال اليمن وبطارقة غسان وملوك الحيرة[5] .

وكانت مكة تجبى المكوس على المتاجر المارة بها ، ولابد أنه كان هناك نظام بدائى لحفظ السجلات تحفظ بمقتضاه معاهدات التحالف والاتفاقيات التجارية[6] ، كما وجدت إدارة مماثلة يعهد إليها تحصيل الضرائب من التجار الأجانب[7] .

---

(١) التمدن الاسلامى جورجى زيدان ص ٣٩ ، ٤٠
(٢) سيرة ابن هشام ص ٣٦ ، ٣٧ القسم الأول
(٣) سيرة ابن هشام ص ١٤٢ — (٤) دائرة المعارف مادة مكة .
(٥) الادارة العربية ص ٢٣ — (٦) المرجع السابق ص ٤
(٧) المرجع السابق ص ٢٩

إذاً فقد كان لمكة كل مقومات الدولة وإن كان الطابع الدينى يغلب عليها وكان لها سيطرة روحية على كل الجزيرة العربية ، فقد كانت مكاناً محترماً لدى جميع العرب ، وكانت الكعبة بيت الله الحرام يحج إليها الناس من كل جدب حتى اليهود والنصارى يرسلون الهدايا إلى هذا البيت الكريم[1] .

ولعلها كانت هدايا قصد بها جذب مودة العرب ، لا لتعظيم البيت وكان هذا شأن اليهود دائماً) .

ولو حاولنا البحث عن كل مقومات الدولة فى مكة ، لوجدناه موجوداً فى كل نظمها الداخلية والخارجية ، نجـده فى نظامها الحربى وفى الخدمات الاجتماعية كلها بلا تفصيل ، وغير هذا من النظم الدولية بمفهوم العصر القديم والحديث على السواء .

ولقد صور بعض المؤرخين[2] عرب الجاهلية تصويراً بعيداً عن كل الحقيقية وذلك لإثبات أن الرسول ﷺ استطاع أن يجمع بين هؤلاء برغم ماهم فيه ، وأن يغير هذه الطباع القاسية المنحرفة ، وأن يؤسس منهم أمة عظيمة وظنوا أنهم بهذا ينصفون الرسول وينصفون رسالته ، ونسوا أن العرب لم يكونوا جميعاً موصوفين بهذه الصفات وفيهم هذه الطباع ، وأن من كان يئد البنات منهم لم يكن كل العرب ، وإنما هى قبائل معينة صنعت ذلك لظرف خاص وكان هذا فى طبقات خاصـة من الشعب أبرز ما توصف به الفقر وقلة الحياء ، وكان أهل مكة بالذات ذو حضارة ومدنية وتقدم .

وقد أثبتنا فى الصفحات السابقة بعضاً من نظامهم المتقدم المتحضر ، وقد

---

(١) الاسلام ظهوره وانتشاره

(٢) مذكرات فى التاريخ الاسلامى (ص ٧ ، ٨) محمـد حبيب أحمد .

عرفوا بالصدق والأمانة والوفاء واشتهروا بالكرم — حتى تباروا مع بعضهم فى التفانى فى إكرام الوافدين وكان ، مقياس الكرم عند العرب أن يعطى الرجل منهم أكثر مما يأخذ[1] .

كانت هذه خصالهم بدواً وحضراً ، أما الحضر فكانوا يعيشون عيشة استقرار يشتغلون بالزراعة والتجارة ، قامت حياتهم على دعائم لإقامة الحق وإجراء العدل بينهم .

ويرى الأستاذ الخضرى ، أن علاقة العربى بأهله كانت على درجة من الرقى أكثر مما يخيل إلينا وكان للزوجة من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، إلا أن الرجل كان يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها .

ولا يمنع هذا أن كان بعض القبائل العربية تعيش على السلب والنهب إلا أننا يجب أن نعرف أن ذلك لم يكن موجوداً فى كل القبائل ، وإنما كانت بعض القبائل العربية والموجودة فى غير مكة ، أو فى الحضر وكان ذلك لظروفها ووضعها الاجتماعى وحصرها فى هذه المنطقة المجدبة ما جعلها تتخذ لنفسها مراكز فى الخلاء الواسع ، وفيها تغير لتنهب ، وتسلب لتعيش ، فقد كانوا يعيشون فى ضنك دائم وجوع مستمر ، بسبب ضيق واردات الجزيرة بينها وحتى مع وجود التجارة كانت محصورة فى المدن وبين الحضر فقط .

وقبيل الإسلام حاول الكثيرون من أبناء الجزيرة أن يهاجروا منها ، بحثاً عن الكسب وهرباً من الفقر والحاجة ، إلا أن ثقل القوة فى العالم وتمركزها آنذاك فى دولتى الفرس والروم اللتين استولتا على جميع الجهات المحيطة بالجزيرة

---

(١) ص ٩ مذكرات فى التاريخ الاسلامى (محمد حبيب أحمد) .

العربية حبست القبائل فى مكانها ، الأمر الذى أدى إلى توسيع هوة الخلاف بين القبائل بسبب النقص (والصعلكة) فقامت المنازعات المتكررة بينهم وعجزوا عن تأسيس قوة سياسيةموحدة، لها نظامها الواحد وجيشها المسلح[1]

لكن مكة ومدن الجزيرة على الخصوص كان وضعها يختلف اختلافاً كبيراً وكان لمكة بالذات وضعها الخاص، ونظامها السياسى المستقل، وتأثيرها الكبير خصوصاً فى الناحية الدينية على كل القبائل العربية سواء كانوا بدواً أو من أهل المدن .

ولعل هذا هو السر فى استقرار الحكم فى أهل مكة وقريش بالذات بعد وفاة الرسول ﷺ برغم وجودهم فى مدينة أخرى ، حيث كان تأثير هؤلاء الناس (المكيين) باعتبارهم أهل الرسول أولا ، وأبناء البيت ثانياً ، والسبب فى استمرار الحكم فيهم ورضوخ الناس لحكمهم أكثر من غيرهم ، حتى وإن قامت حركة سياسية مصبوغة بصيغة الدين بعد وفاة الرسول، هى عبارة عن حركة إنفصالية وهى ما يطلق عليها المؤرخون اسم (الردة) لكن مالبث الحال أن هدأت واستقرت الأمور بعد أن حاربهم أبوبكر وانتصر عليهم .

وأرى أن الصدمة التى ألمت بهؤلاء بعد وفاة الرسول ﷺ واعتقاد بعضهم أن الرضوخ للرسول كان خصوصية له دون غيره، وأنه ليس عليهم وهم الذين لم يتعودوا وحدة كهذه أن يرضخوا لسلطان رجل يحكمهم ويتحكم فيهم بعد الرسول ﷺ ، كان هو سبب رفضهم للرضوخ لحكم أبى بكر وامتناعهم عن دفع الزكاة ظنا منهم أنها أتاوة وكانوا يدفعونها لرسول الله ﷺ ، وهم الذين لم يستقر الإسلام فى قلوبهم استقراراً كاملا، لكنهم مالبثوا بعد قليل

---

(١) الدعوة الاسلامية لاقرار السلام غلوش ٩٤

أن استسلموا الحكم المكي القرشي أبي بكر ، وصاروا من أخلص الناس للدولة والدعوة معاً ، بل انضم بعض متنبئيهم إلى جيش المسلمين جندياً عادياً يدفع عن الدولة والإسلام ، ويدافع عنها ويبلى بلاءاً حسناً في حروبه ومعاركه كطليحة بن خويلد .

ولابد للمؤرخ المنصف والباحث الذى يبغى الحقيقة، أن يصور الواقع الذى كان عليه أهل مكة فى بدء الإسلام، وأن ينصف أهلها من هذه الهمجية والتخلف الذى نعت به غيرهم من المقيمين خارجها ، وأن يذكر لأهل مكة بالذات ما كانوا عليه من استقرار فى الحكم وتنظيم فى السياسة وأن ذلك كان يسير وفق السياسة العالمية آنذاك حتى أنهم ليقولون أن دار الندوة بنظامها قد أخذوها عن البلاط الرومانى ، وهذا أيضاً يفسر نجاح المكيين فى قيادة الدولة الإسلامية بعد وفاة الرسول ﷺ وذلك لتمرسهم على نظام الحكم فى الجاهلية والإسلام .

وضع الرسول فى الدولة المكية .

بهذا كله أردت أن أوضح أن رسول ﷺ حين خرج على الناس بدعوته كان خروجه بالدعوة خروجاً على الدولة ، ومن هنا عدوا الرسول ﷺ من الخارجين على الحكم، وعلى نظام هذا الحكم الدينى الذى يتمتع به أهل مكة ويتوزعونه فيما بينهم .

ولو لم يتعرض الرسول لديانتهم ومعتقداتهم التى يعتمد عليها نظام حكمهم ما وقفوا فى طريقه ولو كان الحكم فى مكة فى يد بطن من بطون قريش وحدها ، ربما أمكن بسهولة انتشار الدعوة فيها ، إلا أنهم عرفوا أنهم باعتناقهم لهذا الدين وإيمانهم بهذا الرسول إنما يتنازلون برغبتهم واختيارهم عن سلطانهم الذى اعتادوا عليه، وسيادتهم التى ظنوا أنهم سيفقدونها

---

(١) غلوش : ٩٣

بتركيز السلطة فى يديه إن اتبعوا هذا الرسول ، خاصة كبراؤهم وعظماؤهم وشهوة الحكم ليست مما يتنازل عنها الناس بسهولة وإن كلفتهم حياتهم، بل إن الوالد يحارب إبنه والإبن يقتل أباه، ولامانع لديه من إفناء آلاف البشر فى سبيل الوصول إلى الحكم ، والتاريخ القديم والحديث يروى لنا كثيراً من هذه الحوادث .

وقد وجدوا فى دعوة رسول الله ﷺ إلى المساواة بين البشر جميعاً وحربه لعبادة الأصنام والأوثان التى هى منبع نفوذهم وسبب سيطرتهم على العرب وتحقيره لشأنها ، أنهم سيفقدون هيبتهم ونظرة التقديس التى كان ينظر بها إليهم أهل الجزيرة العربية كلها .

ومن هنا نرى كيف أنهم حاولوا إرضاء محمد ﷺ بشتى الطرق حتى أنه لامانع لديهم من أن يولوه ملكا عليهم بشرط أن يترك هذه الدعوة التى تقلل من شأن هذه الأصنام ، ولا مانع أن يجمعوا له المال الوفير ليكون أغناهم وأثراهم ، كل ما يرجونه أن يترك عبادتهم لهم ، ولا يتعرض لها فقد قام نظامهم السياسى على هذه العبادات والمعبودات .

ولذلك فهم لايمانعون أيضاً فى اعتناق الدين بشرط أن يقر الرسول ﷺ بعبادتهم ومعبوداتهم ولذلك نزل عليه قول الله (قل يا أيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ولاأنتم عابدون ماأعبد ولاأنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ماأعبد لكم دينكم ولى دين) :

لقد هادنوا الرسول ﷺ قبل محاولاتهم الكثيرة لإقناعه وتهديده وتهديد عمه أبى طالب[1] ، وهو فى نظر القرشيين حامى حماه لكنهم بعد

---

(١) ابن هشام : ٩٦٦ .

أن فشلوا فكروا تفكيراً يبدو منه النظام والدقة ، وإن كان يمر على كثير من الناس دون فهم لمعناه ومغزاه حين عجزوا عن إقناع محمد ﷺ بالعدول عما يدعو إليه ، وحالت بينه وبينهم أهله وعشيرته حمية وعصبية ، وكانت قريش تحسب لها ألف حساب ، وكان أهله يمنعون عنه اعتداء قريش مع اختلافهم معه واختلاف معظمهم على هذا الدين ، ولكنها العصبية القبلية التى كانت موجودة فى مكة آنذاك وعند العرب على العموم ، ولاتزال حتى فى عصرنا الحاضر فى كثير من دول العالم تقف وراء كثير من الزعماء والحكام تؤيدهم وتحميهم وتثور حين يعتدى عليهم .

فنقول أن قريشاً أو بمعنى أدق (حكومة قريش) أصدرت أمرها واتخذت قرارها فى دار الندوة (البرلمان) أن تقاطع محمداً وأهله مقاطعة قاسية كاملة .

وصدر بذلك مرسوم حكومى مكتوب ، وقع عليه كبار الزعماء فى مكة ، واتفق على تعليقه فى الكعبة ليكون حجة على كل أهل مكة وأن يؤخذ بالشدة والقسوة كل من يخالف هذا القرار .

ويقضى هذا القرار بعدم التعامل مع محمد وأهله ببيع أو شراء ، ولا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم .

وحوصر الرسول ﷺ ومعه بنو هاشم وبنو عبد المطلب فى شعب أبى طالب ثلاث سنوات تقريباً[1] .

وقد طبق القرار تطبيقاً حازماً حتى أن أبا جهل ضبط حكيم بن حزم وهو يحمل قمحاً لعمته خديجة بنت خويلد زوجة الرسول ﷺ فتعلق به وحاول منعه

---

(١) حياة محمد : ١٤٦

وهدده بإفشاء أمره في مكة ومخالفته القرار لولاتدخل أبو البخترى بن هشام وتخلية سبيل حكيم ليصل بالقمح إلى عمته[1] .

ماذا لو أرسل هـذا أو غيره إلى رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين مايحمله علنا وبلا خفاء ؟ وما الذى يمكن أن يصنعه أهل مـكة أو حكومتها لأولئك الذين لاينفذون القرار الذى أصدروه وعلقوا نصوصه فى الـكعبة ؟

إنه كان حتما سيحاسب ويؤاخذ على هذا ويعاقب ، ولذلك لم يستطع واحد من أهل مكة أن يخالف مافى القرار حتى وإن كان غير راض عما فيه، حتى أكل المسلمون الجيف وأوراق الشجر وكانت أصوات أطفال المسلمين وعويلهم من شدة الجوع يسمع من بعيد .

لماذا كتبوا الصحيفة مادام أمرهم نافذاً ؟

وربما يسأل سائل ولم هذه الصحيفة المـكتوبة ؟ ولم علقت فى الـكعبة ؟ ولـماذا لم تـكتفى الحـكومة المـكية باتخاذ قرار وإصدار الأمر به دون حاجة إلى وثيقة مكتوبة ؟ خصوصاً ونحن نثبت أن حكام مـــكة أمرهم نافذ وكلمتهم مسموعة ؟

لعل السبب فى هذا بل أرى أنه سبب كتابة هذه الصحيفة وأخذ التواثق عليها وحرص قريش على أخذ إجماع القبائل على هـذه الوثيقة التى استجاب لها فعلا كل البطون القرشية[2] ، ماعدا بنى هاشم وبنى عبد المطلب غير أبى لهب ، أنه كان هناك حلف يعتبر قانونا نافذ المفعول هو (حلف الفضول)

---

(١) سيرة ابن هشام ص ٣٥٣ ، ٣٥٤
(٢) مكة والمدينة ص ٢٧٥

الذى عقدته بعض بطون قريش وتعاهدت فيه على منع الظلم فى مكة[1] .

كان لابد من تعطيل هذا الحلف مؤقتاً بالنسبة لبنى هاشم وبنى عبدالمطلب وهم آل محمد حتى لايطالب بنو هاشم حلفاءهم من أصحاب الفضول لوقوف إلى جانبهم .

ولهـذا كانت قريش حريصة على الإجماع وعلى التواثق على ذلك فى صحيفة مكتوبة لأنهم اعتبروا الدعوة الإسلامية ذات خطر على مكة يهدد الجميع بالخراب ، لذلك اجتمعوا وتضامنوا على إيقاف هـذا التيار ، وتوقيع هذه العقوبة على هذا البطن القرشى لعلها تجبره على التخلى عن موقفه فى حماية النبى وتضطرهم إلى تسليمه والكف عن نصرته ثم علقوا هذه الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً لهم على أنفسهم .

ولولا تحرك العاطفة « عاطفة الرحم » فى بعض القرشيين الذين اتفقوا على نقض هذه الصحيفة وخوف حكام مكة من أن يحدث فتنة فى مكة أو حرب أهلية ، خصوصاً بعد أن حدثت مشاحنات واشتباكات كادت تؤدى إلى هذه الفتنة ، حين حاول زعماء قريش إيقاف المـدد إلى المحاصرين من بعض ذوى القلوب الرحيمة[2] لطال الحصار أكثر من هذا حتى يستسلم هؤلاء لهم وكانت حكومة قريش ورجالاتها يحاولون ما استطاعوا الحفاظ على وحـدة قبيلتهم وتماسكها ، ولم يقبلوا أن يحدث تفكك فى صفوفها أو ينشب خلاف يؤدى إلى تعارك العشائر .

وهذه الرغبة فى تماسك القبيلة هى التى جعلت قريشاً تنظر إلى رسالة محمد ﷺ هذه النظرة القاسية ، وتعامل المسلمين فى الدور المكى من حياة الرسول هذه المعاملة وصانت دولة مكة وقبيلة قريش من التفكك والحرب الداخلية .

---

(١) راجع ابن هشام ص ١٢٣ القسم الأول

(٢) مكة والمدينة : ٢٧٥

اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة

ولد محمد ﷺ فى دولة مكة وفى هذه البيئة فى بيت حسب ونسب ، وكان لابد أن يكون هكذا حتى تكون له عصبية وشوكة تحميه وتقف بجانبه حتى يستطيع أن يبلغ بها رسالته .

ـ فأبوه عبد الله من أسرة بنى هاشم القوية فى مكة ، وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش ، وقد اشتهر معظم أجداده فى الجاهلية بالسيادة أو بالتجارة الرابحة فى مكة .

ـ فقصى جده هو الذى يرجع الفضل إليه فى أستيطان قريش بمكة بعد أن قادها فى حرب ناجحة ضد خزاعة .

ـ وهاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش[1] وهما رحلة الشتاء والصيف وقد تحدث عنها القرآن الكريم .

ـ وعبد المطلب هو الذى شرف قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه حيث أعاد حفر بئر زمزم بعد أن طمست ، وكان يسقى منها الحجاج الوافدين على مكة[2] .

وكان يمكن أن يظل محمد إنساناً عاديا يعيش فى مكة يرعى الأغنام وهو

---

(١) ابن هشام ص ١٣٦ جـ ١
(٢) « « ١٤٢ جـ ١

طفل فى عشيرة بنى سعد ، يكد ويكدح كأى شاب فقير مثله ، ويقطع الفيافى والقفار ليتاجر وليكسب قوته بنفسه ، ولا يظل عالة على عمه أبى طالب . حيث يخرج معه إلى الشام فى تجارة ويشاركه مع قومه إحدى وقائع البدو المشهورة بحرب الفجار .

ومع هذا كله وفى هذه المرحلة الأولى من حياته ، كان محمد ﷺ يبتعد عن المذمومات ، فلم يشترك فى عبادة الأصنام مع مواطنيه والله يكلؤه ويرعاه ويحفظه من أقذار الجاهلية . كما أن تصرفاته كلها كانت تدل على أنه رجل صادق صريح . حتى اشتهر بين عشيرته وأهله (بالأمين) وذلك لاستقامته وكمال خلقه .

ولعل ثناء القرآن الكريم على أخلاق النبى ﷺ فى آيات مبكرة جداً فى النزول ، وهى آيات سورة القلم (ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم)[1] ما يدل دلالة حاسمة على أنه لم يكن يتورط فى عادة أو تقليد جاهلى ينبو عنه الذوق السليم والخلق الكريم ، ولا يتسق مع إنصرافه إلى الله وحده واعتكافه ورياضاته الروحية ، من مثل أكل الميتة وشرب الخمر وتقريب القرابين للأوثان والإشتراك فى حفلات وطقوس عبادتها وتكريمها .

وفجأة وفى سن الأربعين بعد فترة من الزمن كان يخرج خلالها للخلوة على عادة الكثيرين من العرب ، وبينما هو يتحنث فى غار حراء أحد جبال مكة ويبحث عن الدين القويم بالتأمل والخلوة ، وهو يكتسب بهذا التحنث

---

(١) سيرة الرسل (دروزة) ص ٣٧ .

والتفرغ خبرة وممارسة عملية واستعداداً لتلقى الرسالة (دون إنتظار لها) (وما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان)[1].

إذ بالوحى يأتيه من السماء بأول ما نزل من القرآن (إقرأ باسم ربك الذى خلق)[2].

سؤال وجواب:

قد يسأل سائل ما هو نوع العبادة التى كان يتعبد بها (محمد) قبل البعثة ؟

يقول محمد عزه دروزه[3] : المعروف أن أهل هذه البيئة من العرب كانوا يعرفون أن الصلاة مظهر من مظاهر العبادة لله أو الآلهة ، وأنهم كانوا يقيمون صلاة تعبدية ، وأن حالات القيام والركوع والسجود كانت معروفة ؛ وممارسة كيفيات تعبدية عند العرب والكتابيين وعند العرب أمام الكعبة بنوع خاص معروفة أيضاً .

وبناء على هذا فإنا نستطيع أن نقرر أن النبى ﷺ كان يعرف هذه الكيفيات وأنه كان يمارسها كثيراً عند الكعبة فى خلواته كعمليات تعبدية قبل بعثته ؛ لله وحده تبعاً لاتجاهه الدينى .

واصطفاء الله للرسل يتم على مرحلتين :

١ — مرحلة تهيئة وإعداد .

٢ — مرحلة تكليف وإبلاغ .

ولولا أن النبوة إصطفاء وإحسان لقلنا أن الرسل بصفاتهم يستحقونها

---

(١) الشورى : ٥١

(٢) العلق : ١

(٣) سيرة الرسول ص ٣٧

كسباً، لكن جمهور المسلمين يجمع على أن الرسالة لا تكتسب ، فلابد أن يخلق الله لها استعداداً خاصاً عند صاحبها يجعله أهلا لحلها وإبلاغها وبعد ذلك يصطفيه للرسالة[١].

ومحمد ﷺ كان يتمتع بكرامة الأصل ورفعة النسب ومحافظة آبائه على السمو الأخلاقى والدينى ، وكانت فى نشأته عوامل جعلته بعناية الله يكتسب منها الخبرة والممارسة العملية ، عن طريق المخالطة مع كل الأجواء والأجناس والأفهام .

مع أنه من المقرر أن أهل بيئة النبى ﷺ كانوا على اتصال بالأمم الكتابية وغير الكتابية عن طريق المستعمرين منهم فى الحجاز ، وعن طريق الرحلات المستمرة إلى البلاد المجاورة ، وأن كثيراً من أخبارهم ومعارفهم وعقائدهم ومقالاتهم وأحوالهم ، قد تسربت إلى العرب وشاهدوا مشاهدها التاريخية والمعاصرة ، وليس من الطبيعى ولا من المعقول ، أن يبقى النبى ﷺ فى عزلة أو غفلة عن هذا ، صحيح أن الله علمه بوحيه وتنزيله أموراً كثيرة متنوعة ما كان يعلمها هو ولا قومه ، لكن هذا لا يعنى أنه كان غافلا عن كل ما حوله من أمور وما يدور فى بيئته وعلى ألسنة معاصريه من كتابيين وغير كتابيين عرب وغير عرب من أنباء وقصص وظروف وحالات فإن هذا يناقض طبائع الأشياء .[٢]

وكان من الحكمة الإلهية أن محمداً ﷺ لم يبدر منه فى السنين الطويلة

---

(١) بحث الدكتور غلوش للدكتوراه تحت عنوان الدعوة الاسلامية لتحقيق السعادة وإقرار السلام .

(٢) سيرة الرسول ص ٣٨ (دروزه) .

السابقة على نزول الوحي والتي قضاها بينهم أي بوادر تشير من قريب أو بعيد أنه نبي أو أنه النبي المنتظر.

حيث كانوا يعرفون أو ينتظرون نبياً سيظهر في مكة نفسها ، حيث كان كعب بن لؤي بن غالب يذكر بالنبوة ويبشر بها أهل مكة ويقول لهم (زينوا حرمكم وعظموه فسيأتي له نبأ عظيم وسيخرج منه نبي كريم[1].

بل وصل خبر ظهور النبي إلى أقصى الشمال وأقصى الجنوب ، وقد عرف اليهود أنه قد أظل زمان نبي ، وكانوا كما يقول ابن عباس يستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مبعثه[2].

وقد روى الأزرقي[3] (انه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذي يزن لعبد المطلب بما علمه من أن نبياً سوف يظهر في العرب يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة.

بل انتشر خبر هذه النبوة إلى أماكن كثيرة ، فهذا هو كاهن عمورية يقول لسلمان الفارسي حين أراد أن يترك المجوسية ويبحث عن الدين الحق (إنه قد أظل زمان نبي وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض من العرب مهاجراً إلى أرض بين حرتين بينهما نخل ، وبه علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة وبين كتفيه خاتم النبوة[4].

وتذكر كتب السيرة قصة بحيرى الراهب وما قاله لأبي طالب عن نبوة

---

(١) بلوغ الأرب ج ١ ٢٧١ .
(٢) ابن كثير ص ٢١٣ .
(٣) بلوغ الأرب ج ١ ٢٧١ .
(٤) راجع حديث إسلامه في ابن هشام .

محمد حين رآه معه وهو في رحلته إلى الشام في تجارة له، وحيث استطاع تحديده في طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموجودة في التوراة والإنجيل، ويوصيه أن يحافظ عليه من كيد اليهود وبطشهم به [1].

وحين يظهر أن محمداً هو النبي المنتظر فلا غرابة برغم انتظارهم للنبي أن ينكروا نبوته حسداً وحقداً، وحفاظاً على وضعهم ومكانتهم السياسية والدينية في مكة.

ولكن كيف تجدى الحيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التي قدرت ظهور الدعوة واختارت لها هذا الزمان الذى تميز بالصراع والنضج وانتظار الرسالة لكي تنتشر الدعوة وتظهر على الأديان كلها بقدرة الله أو على سنن البشر (الله أعلم حيث يجعل رسالته) [2].

ومع أن النبي ﷺ كان من بطن ذى مكانة محترمة وعصبية عزيزة كما ذكرنا آنفاً، إلا أنه لم يكن من الزعماء البارزين في بيئته، ولم يكن من الزعماء السياسيين الذين تولوا أحد المناصب السياسية لدولة مكة، وكان هذا من أسباب وقوف زعماء قريش منه موقف الإستكبار والأنفة ترفعاً عن إتباع شخص ليست له زعامة توجب الطاعة وتبرر الإتباع، حيث كان للزعامة أثر ودور قويان في بيئة النبي ﷺ وعصره قبل البعثة.

ولذلك قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) [3].

---

(١) راجع القصة ابن هشام ص ١٨٠ - ١٨٣.
(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.
(٣) سورة الزخرف: الآية ٣١.

ومع أن النبي ﷺ كان يُعرف بكرم الخلق ورجاحة العقل، وكان مشهوراً عند أهل مكة كلهم بالصادق الأمين، إلا أنه لم يكن بارزاً قبل البعثة في مجال الزعامة بروزاً يلفت النظر، كأبي سفيان وأبي جهل وغيرهما من زعماء مكة وحكامها، وكان هذا مما جعل القرشيين يحنقون عليه وخاصة زعماؤهم، ويعجبون لعدم نزول القرآن على عظيم من عظماء مكة أو الطائف واختصاص النبي ﷺ بهذا الشرف الرباني دونهم، فقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم وترفعوا عن إتباع شخص ليست له زعامة الزعماء المطاعين إذا أمروا، وقالوا أيضاً (أأنزل عليه الذكر من بيننا) (؟) ولذلك كان الرد الإلهي عليهم (أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون)[1].

لم لم يشارك محمد صلى الله عليه وسلم في زعامة مكة قبل البعثة؟

ولعل سائلا يسأل لم لم يشارك الرسول ﷺ في الزعامة في قريش قبل البعثة؟ ولم لم يكن عضواً ممثلا في الهيئة الحاكمة في مكة أو له عمل متصل بهذه الهيئة كأبي بكر وعمر مثلا؟

وقد يرى البعض أن زعماء مكة الذين أبدوا العجب لاختصاص النبي من دونهم بالرسالة، مع أنهم الزعماء النافذون المطاعون إذا أمروا، والمستجابون إذا دعوا قد اختصهم الله بهذه الأعراض، أعراض الزعامة، وهذه أعراض دنيوية أما النبوة عموماً فهي رحمة ربانية منوطة بمؤهلات عظمى لا تمت إلى تلك الزعامة والأعراض الدنيوية بسبب، ويستدلون على هذا بمثل قوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[2].

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٣٢. (٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٤.

إلا أنني لست مع هؤلاء في كل ما يقولونه ، ومع إيماني بأن النبوة رحمة ربانية خاصة إلا أنها لا تنفصل إطلاقاً عن الزعامات الدنيوية ، كل ما هنالك أنه بالنسبة لرسول الله ﷺ وكونه لم يكن سياسياً أو كان يشغل منصباً سياسياً في المجتمع المكي قبل البعثة ، فإن ذلك كان لحكمة إلهية عظيمة .

لأنه لو كان يشغل منصباً سياسياً في المجتمع المكي وخرج عليهم بهذه الدعوة لتصوروا أنه من طلاب الرياسة والملك وأنه من المتطلعين إلى الدنيا ومتاعها .

فحين عرضت الرياسة والملك والزعامة على رسول الله ﷺ عن طريق كبار زعماء قريش ومنهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبوسفيان بن حرب وغيرهم وساوموه على الدعوة وحاولوا إغراءه إن قبل السكوت عن سب آلهتهم ومحاربة عبادتها ، رفض الرسول ﷺ هذه العروض لأنه قصد بها إبعاده عن المهمة الأصلية التي أمره الله بها وهي الدعوة إلى الإسلام الذي يدعو إلى الإصلاح الكامل الشامل[1] ، والزعامة حين تكون في رجل ينتمي إلى بطن من البطون ذات المكانة المحترمة ، ويكون من بيئة متوسطة لاهي بالغنية الثرية أو الفقيرة المعدمة ، تكون زعامة ناجحة مقبولة عند الجميع ، ولذلك نجحت رسالة محمد ﷺ وظهرت زعامته بعد البعثة رغم أنف قريش ورغم حقدهم وحسدهم له ومحاربتهم إياه .

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ص ٢٩٥ القسم الأول .

الوضع القانوني لمحمد صلى الله عليه وسلم في مكة بعد الدعوة

إذاً فمحمد برغم معرفتهم له وتأكدهم من صحة نبوته ورسالته وأنه النبي المنتظر الذي عرف العالم كله أن زمانه قد أهل .. أعتبر الثائر على هذا النظام العتيق ، وأن هذا الثائر يجب الوقوف في طريقه وفي طريق دعوته حتى لا تضيع سلطة وهيبة مكة والمكيين ، خصوصاً وأن أول شيء دعا إليه النبي ﷺ هو نبذ عبادة الأصنام التي تعتمد عليها مكة وأخذت شهرتها ونفوذها السياسي والروحي عن طريقها .

ولكن هذه الدولة مع سلطانها على كل رعاياها كانت تعتمد إعتماداً كبيراً على النظام القبلي .

وكان هذا النظام القبلي هو نظام الحكم فيها ، وهو كما رأينا سبباً من أسباب عدم إستطاعة حكومة مكة إتخاذ موقف صارم تجاه هذا الثائر على الحكم الخارج على النظام ، ولم تكن حكومة مكة تستطيع أن تصدر أمراً بطرد مواطن أو حرمانه من حقه السياسي أو الحكم عليه بالإعدام ، إلا بعد إجماع من كل أصحاب السلطة في مكة ومنهم أهل وعشيرة هذا المحكوم عليه .

وهؤلاء نراهم غالباً ما يقفون بجانب إبنهم حمية وعصبة له ، ومن هنا ترى أن محمداً ﷺ برغم تبعيته لهذه الدولة وانتمائه إليها وكونه فرداً من رعيتها، لم يستطع حكام مكة أن يصدروا قرارات بشأنه تنفذ عن طريق القوة والقسوة نظراً لوقوف أهله وعشيرته بجانبه .

وأعتقد أن آل محمد ﷺ لولا خوفهم من وقوف قريش كلها ضدهم وخوفهم من اصطدامهم بالقرشيين فى مكة ، وخوفهم على نفوذهم السياسى أيضاً لأعلنوا إنضمامهم لرسول الله ﷺ من بادىء الأمر واتبعوا دعوته ، لكنهم كانوا أذكياء . وقفوا مع القرشيين فى معتقداتهم خوفاً على نفوذهم السياسى ، ووقفوا مع محمد ﷺ يحبونه وينصرونه حمية وعصبية .

ولعل هذا مايعلل تأخر إسلام العباس عم النبى وموقفه من الرسول ، وذلك حتى لا يفقد منصبه الرسمى فى حكومة مكة حيث كان يتولى السقاية ، مع أن العباس نفسه كان يخاف على ابن أخيه لدرجة أنه حاول أن يستوثق بنفسه من إخلاص المبايعين له فى العقبة قبل الهجرة (ليلة بيعة العقبة الثانية) .

والغريب أن نجد العباس يخرج بنفسه مع جيش مكة لمحاربة ابن أخيه محمد برغم حبه له وحدبه عليه ، لأنه كرجل مسئول فى دولة مكة كان لابد له من الخروج معهم بعد أن أعلنت مكة الحرب على رسول الله ﷺ .

وربما كان عدم إسلام أبى طالب عم الرسول لنفس السبب .

أسباب اعتناق المكيين للاسلام :

(محمد) إذا من جهة نظر المكيين . ثائر على الحكم خارج على النظام ، ولو لم يتعرض الرسول لآلهتهم التى كانت موضع هجومه ، ولو لم يحقر من شأنها ماتعرضوا له ، إذ أن نفوذهم كان يرتبط أشد الإرتباط بعبادة الأصنام التى جمعها عرب الجزيرة فى الكعبة فهى منبع نفوذهم وسبب سيطرتهم عليهم.

كما أن وجود هذه الأصنام فى مدينتهم سبباً فى وفود آلاف الحجاج إليهم كل عام ، ووقف الحج إلى مكة ستكون نتيجته حتما القضاء على وسائل معايشهم وتجارتهم الواسعة .

فزعماء مكة لم تأخذهم الدهشة لدعوة محمد ﷺ إلى دين إبراهيم بقدر دهشتهم بقوله إنه رسول الله إلى أمته، وذلك لأن الحنفية كانت معروفة في الجزيرة، وأن الله كان يعرف عند العرب على أنه رب الكعبة وأنه الواحد، فكان يقال في الجاهلية أعيذنا بالواحد.[1]

(ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله)[2] والذي جعل المكيين يعارضون دعوة محمد ﷺ أيضاً هو إنكاره عبادة الأصنام التي كانوا يدركون بحق إضمحلالها وتدهورها[3]. ولكن التطاول عليها معناه التطاول على عبادة الأجداد التي تعودوا عليها منذ زمن بعيد فهي معارضة كبرياء.

كما أن بيوتات قريش منذ سكنتها مكة كانت تتنازع على الزعامة بالسيطرة على وظائف الكعبة من رفادة وسقاية، بحيث أن الحرب كادت تدمر القرشيين في سكناهم مكة لولا تحاجزهم بالصلح.

إلا أن النزاع على الزعامة بين هاشم وهو أحد أجداد النبي ﷺ وأمية ابن عبدشمس جد الأمويين كانت أول عداوة وقعت بين بني هاشم وأمية[4] وظل الأمويون على موقفهم من الدعوة الإسلامية خوفاً على ضياع الزعامة من أيديهم وتركزها في يد بني هاشم إذا ما نجحت دعوة النبي ﷺ، ولذلك كان البيت الأموي من أشد المعارضين للإسلام.

---

(١) التاريخ السياسي للدولة العربية (عبد المنعم ماجد ص ١٠٠، ١٠١)

(٢) العنكبوت ص ٦١.

(٣) التاريخ السياسي للدولة العربية (عبد المنعم ماجد) ص ١٠٢

(٤) المرجع السابق ص ١٠٣.

ومن ذلك خوف الزعماء القرشيين وأثرياء مكة على ما كان لهم من مركز ومنافع أدبية ومادية عظيمة ، بسبب وجود بيت الله فى مكة وسدانتهم له ، والبيت كان مثابة للناس وأمناً لجميع العرب على اختلاف أديانهم وقبائلهم يؤمونه من كل فج وصوب ويقيمون أسواقهم ، ويعتبرون قريشاً إماماً لهم فى الأمور الدينية والدنيوية ، مع خوفهم من ضياع هذه الزعامة ، ومن نجاح الدعوة الجديدة ، وبما يكون ذلك سبباً لإنصراف الناس عن مكة والحج أو تجهم العرب لمكة وأهلها ، كما تلهم هذه الآية (وقالوا أن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا) .[1]

كذلك من أسباب إمتناعهم عن الإيمان بهذه الدعوة[2] ما كان من قوة رسوخ عصبية التقاليد فى المجتمع العربى ، وما استهدفته الدعوة من هدم كثير من تقاليد العرب الأصلية والفرعية أو تعديلها ، كالشرك على أنواعه والاستشفاع بالملائكة ، وعقيدة كونهم بنات الله ، وما شاب الشرك من وثنية مادية ، كالعصبية الإجتماعية الضيقة ، وما كانت لتشدد فيهم حزبيات عائلية وقبلية وتنجر إليهم من إسراف فى الدماء ، وغير هذا من الأمور التى خوجئوا بالدعوة تتعرض لها ، كما تتعرض لشئون اليتامى والمرأة والرقيق والتحليل والتحريم فى الأطعمة والأنعام ، حين كانت هذه الأهداف مما احتوته السور والفصول القرآنية الأولى ، ثم استمرت بدون انقطاع ولا تراخى إلى آخر العهد ، وكان هذا من بواعث مناوأة ومعارضة الدعوة النبوية منذ أول عهدها ، وكان ذلك كله نقط اصطدام وتشاد .

---

(١) سورة القصص : آية ٥٧ .

(٢) دروزة ص ١٦٣ .

كذلك مما يمكن إدخاله فى الأسباب :

ما أثاره الإنذار بالبعث والقيامة والوصف المسهب للحياة الأخروية الواردة فى القرآن الكريم من عجب واستغراب إليهم . لاسيما وأن هذا مما لم يكن معروفاً بهذه الصراحة والإسهاب عند الأمم الكتابية التى كان لها أثر كبير فى أفكار العرب ومعارفهم .

ولعل هذا الموضوع من أهم مواضيع القرآن المكي الوسائلية والتدعيمية حتى لا تكاد تخلو سورة من سوره منه ، مما يدل من دون ريب على أنه كان من أهم المواضيع التى ثار حولها الجدل واللجاج والتشاد بين النبى ﷺ والعرب[1] .

ولعل مايتصل بهذا أيضاً ما احتواه القرآن الكريم من نعى على الأغنياء والأقوياء والزعماء لكثرة تفاخرهم وتكاثرهم بالأموال والأولاد والأنصار والأحساب ، ومن إنذاره لهم بأن هذا كله لن يجديهم فى الآخرة نفعاً ، ويمكن القول دون استطراد بأن طبيعة النفس البشرية تأبى أن تخضع بسهولة لأشياء تتحكم فيها وتقيد من حريتها وتمنعها من مزاولة هواها وشهواتها .

لذلك رأينا أن أكثر الذين استجابوا للدعوة تتألف أكثريتهم من الطبقة الدنيا ، مما يدل على أن مبادىء الدعوة التى كانت تحتويها سور القرآن الأولى ، كانت تلقى إقبالا من هذه الطبقة بنوع خاص ، فليس لها ما يجعلها تقف من هذه الدعوة موقف المتحفظ أو المعارض أو الخائف على مركزه وثروته مما كان سبباً فى بقاء الإسلام فى نطاق ضيق .

---

(١) دروزة ص ١٦٥ — ١٦٦ .

ومع أنه من المفروض أن تكون هذه الطبقة هى الأغلبية إلا أنهم كانوا يخشون إضطهاد هؤلاء الزعماء والأغنياء لهم .

وهكذا تبدو الدعوة الإسلامية منذ بدئها عظيمة رائعة فى حدبها على هذه الطبقة التى تتألف منها عادة أكثرية الجماهير وتحريرها ورفع مستواها .

(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون . ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ...[1])

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا)[2] .

ومن الإنصاف أن ننوه بانضواء بعض الأغنياء والشرفاء من قريش إلى الراية النبوية فى خطوات الدعوة الأولى ، كأبى بكر وعثمان وغيرهما ، إذ أن هذه القلة من المجتمع القرشى الرفيع والغنى ، تفلتت من تأثير التقاليد وانبعثت فيها الرغبة الخالصة والإخلاص التام وسارعت إستجابة للحق وإندماجاً فيه بعد أن رأت أعلامه الباهرة وأنواره الساطعة ، ولم تبال بما يمكن أن تتعرض له أو تصير إليه[3] .

---

(١) سورة الأنعام : آية ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة الكهف : آية ٢٨ .

(٣) دروزة . ص ١٦٦

ولابد لنا قبل أن نختتم هذا الفصل وننتقل إلى غيره ، أن نحاول التحليل العلمى للوضع الاقتصادى والاجتماعى لهؤلاء الذين ناصروا الأنبياء والذين حاربوهم ، فالأنبياء لم يجـــدوا بالضرورة تأييداً من قبائلهم أو عائلاتهم أو أصدقائهم ، بل هم على النقيض من ذلك تعرضوا لمحاربة هؤلاء لهم ، بل كان هؤلاء أول من وقفوا فى طريقهم وناصبوهم العداء ، مع أنه كان من المفروض منطقياً أن يكونوا أنصارهم ، لـكن المسيح عليه السلام بين لنا السبب بقوله (إنه ليس نبى مقبولا فى وطنه) كما بين ورقة بن نوفل أيضاً ذلك حين قال للرسول (إنه لم يأت رجل بمثل ما أوتيت به إلا عودى ولتـكذبن ولتؤذين ولتقاتلن ولئن أدركت اليوم الذى تقاتل فيه لأنصرن الله نصراً يعلمه) .

ولهذا نرى الرسول ﷺ قد تعرض لحرب عنيفة واضطهاد بالغ من قبيلته (قريش) الأمر الذى اضطره إلى ترك مكة حيث اشتدت عليه حملات الاضطهاد ، وأحس أن الدعوة أصبحت بطيئة الحركة وقتئذ ، والأمر يضطره إلى تغيير المكان واتخاذ أساليب أخرى جديدة للدعوة وتجميع أتباعه والمؤمنين به فى مكان واحد ، بعيداً عن الضغط والحصار ، ولإعلان الدولة الجديدة رسمياً وتثبيت دعائمها والمحافظة على رعاياها .

ولهذا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الهجرة ، ويأمر أتباعه فى كل مكان من الجزيرة العربية أن يتجمعوا فى يثرب العاصمة الجديدة للدولة الإسلامية الـكبرى ، التى ستشمل الجزيرة العربية وتستوعب فيما بعد فى داخلها معظم النفوس بلاد فارس والرومان .

ولم يكن للرسول (محمد) صلى الله عليه وسلم ، ولا لأى رسول أن يقف وحده فى الصراع مع أعدائه : وإنما أيدته صحابة مخلصة مؤمنة من المتحمسين للإسلام العاملين له ولانتشاره ، ووقف بجانبه عـدد من الأتباع والأنصار شأن غالبية الأنبياء قبله .

(وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)[1] .

هؤلاء الربيون أى أنصار الرب ضربوا المثل فى البطولة والإخلاص والوفاء والتضحية للأجيال التالية لهم وكما سيتضح إن شاء الله من خلال حديثنا عن الدولة الإسلامية فى المدينة فى عصر الرسول وفى عهد أصحابه الراشدين .

---

(١) آل عمران : ١٤٦

كيف بدأت الدعوة وهل كانت سرية

يرى كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن الدعوة بدأت سرية وأنها ظلت على هذا الحال ثلاث سنوات كاملة حتى نزل قول الله تعالى :

(فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين)[1] ، فكان هذا إيذاناً بالجهر بها ، ومن يومها من وجهة نظرهم صارت الدعوة علنية ، ويرون أن الدعوة ظلت على سريتها حتى أمر الله رسوله أن ينذر قومه أولا ، فنزل قول الله تعالى :

(وأنذر عشيرتك الأقربين)[2] ، ثم أمره بالجهر بها وإعلانها بعد ذلك .

ولكني أرى أن الدعوة الإسلامية مثلها مثل كل الدعوات لم تبدأ سرية على الإطلاق فهي في جوهرها وحقيقتها تختلف عن بعض المذاهب والأفكار الإنسانية ، التي يرى أصحابها وأتباعها أن تكون سرية حفاظاً على حياتهم وخوفاً على هذه المذاهب والأفكار من أن تموت قبل أن تنتشر وتسود ، فتتكون الخلايا والعشائر وتعمل بعيدة عن أعين الدولة التي يعيشون في كنفها ، خاصة إذا كانت هذه المذاهب والمعتقدات مما تحرمه الدولة أو تمنع نشاطه وذيوعه وهـذا هو الفرق الكبير الذي يجب أن نفرق به بين الدعوات السماوية والدعوات الإنسانية، كالشيوعية وغيرها من مذاهب ونحل انتشرت وسادت بعد فترات طويلة من الزمان وظلت تعمل فيها في سرية وكتمان ، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها من الرسالات السماوية، لم يكن يخشى عليها من المحاربة أو عدم الذيوع فهي رسالات سماوية تكفل الله بحفظها وحفظ أصحابها

---

(١) الحجر : ٩٤ (٢) الشعراء : ٢١٤

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] .

(إنا كفيناك المستهزئين)[2] .

(والله يعصمك من الناس)[3] .

ولهذا لم يكن هناك ضرورة مطلقاً لأن تبدأ الدعوة الإسلامية سرية خاصة وأن الفترة التى اعتبرها هؤلاء الذين قالوا بالسرية فترة قصيرة لم يؤمن فى خلالها بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم غير عدد قليل لايزيد عن اثنين وأربعين ، ولم يكن هذا العدد القليل يستطيع أن يصنع للدعوة ولا لصاحبها ولا حتى لنفسه شيئاً .

كذلك فإننا لو تحرينا دعوات الرسل السابقين ما وجدنا رسالة بدأت بالسرية ، فإبراهيم عليه السلام جاهر بدعوته وحاور قومه وأباه غير خائف ولا هياب من بطشهم معلناً كلمة الحق والتوحيد ، بل وأكثر من هذا لم يكتف بمحاولة إقناعهم باللسان وإنما أمسك بالفأس وكسر الأصنام بيده ليثبت لهم عملياً أن هذه المعبودات لاتضر ولاتنفع ، ولما أرادوا قتله واحراقه بالنار كان الأمر الإلهى لهذه النار المحرقة التى تصوروا أنها ستأتى عليه فى لحظات (قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين)[4] .

فإبراهيم عليه السلام لم يكن له أهل ولا عشيرة تحميه من القتل أو تمنعه من أن يلقى فى النار، بل ربما كان أبوه نفسه[5] الذى وقف مع قومه فى طريقه

---

(١) الحجر : ٩ (٢) الحجر : ٩٥

(٣) المائدة : ٩٧ (٤) الأنبياء : ٦٩ ، ٧٠

(٥) على الرأى القائل بأن آزر هو أبو إبراهيم عليه السلام

وطريق عودته من المحرضين على قتل ابنه وإحراقه ، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله أهل وعشيرة تحميه وتقف معه وبجواره ، وتمنع قريشاً من أن تؤذيه أو حتى تسبه حمية ، وإن كان معظمهم على غير دينه .

ولقد رأينا كيف أسلم حمزة حين عرف أن أبا جهل قد سب ابن أخيه (رسول الله صلى الله عليه وسلم) وضربه على رأسه بالرمح فشج رأسه ، وكيف وقف أبو طالب بجانب ابن أخيه مع أنه ظل على شركه حتى مات ، وكيف امتنع عن أن يسلمه إليهم وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن رأى منه تمسكاً بهذه الدعوة (اصنع مابدالك فوالله لن أسلمك إليهم أبداً) بل وكيف ببنى هاشم وبنى عبد المطلب جميعهم مسلمهم وكافرهم ينضمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عدا أبى لهب حين حاصرته قريش فى الشعب ثلاث سنوات إذا كان هذا قد حدث لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع تكفل الله لحمايته ورعايته وحفظه وحفظ دعوته ، فكيف يقال إن الدعوة حين بدأت بدأت سرية ؟ وماالذى أفادته هذه السرية ؟ وهل يطلب الله تعالى من موسى (الغريب عن مصر أن يذهب أول مايذهب وأن يدعو أول مايدعو ، الملك الجبار المتكبر المدعى الألوهية والذى يقول بصلافة وكبرياء (إن لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى)[1] والذى يقول لرعيته (أنا ربكم الأعلى)[2] والذى يتمنى أن يرى موسى بفارغ الصبر ليقتله بعد أن عرف حكاية قتله المصرى وهروبه من القصر الذى تربى فيه .

هل يطلب من موسى أن تكون دعوته علنية غير متخفية ، وأن يبدأ بأكبر رأس فى الدولة وأن يدعوه إلى عبادة الله ، ويطلب من محمد صلى الله

---

(١) الزخرف : ٥١ (٢) النازعات : ٢٤

عليه وسلم أن تكون دعوته سرية مستخفية مع حماية قومه له ووقوفهم بجانبه عصبية ؟

هل يحمى الله تبارك وتعالى موسى من بطش فرعون، ولا يستطيع أن يحمى محمداً من بطش قومه ؟ وقد حماه فعلا طيلة بقائه بينهم فى مكة ، وهل إسلام أربعين رجلا أو أقل آمنوا بالدعوة فى خلال الثلاث سنوات الأولى تمنع من إيذاء الرسول ؟

إن موسى عليه السلام حين خاف فى بادىء الأمر من بطش فرعون به طمأنه الله إلى أنه سيحميه هو وهارون أخيه (قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى)[1] .

لهذا فإنى أرى أن الدعوة لم تبدأ سرية، وإنما بدأت علانية ، كل ما هنالك أنه يمكن أن نقول إن الفترة الأولى من حياة الدعوة كانت الدعوة فيها فردية ، وأنها أى الدعوة ، كانت تسير فى طريقها المعد لها ، بجهود الرسول ومن اتبعه من أصحابه ، فالمعروف أن أبا بكر حين أسلم ذهب إلى بعض أصحابه واستطاع أن يقنع خمسة[2] من كبار رجالات قريش بالإسلام وأحضرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلنوا إسلامهم، ولم يكن هذا سراً فإن قريشاً كانت تعرف بذلك ، خاصة وأن مثل هذه الأشياء مما لا يمكن كتمانه ، وإذا جاز أن يقال إن أبا بكر حين كان يدعو أصحابه كان يدعوهم سراً بمعنى أن يلتقى بهم بعيداً عن أعين الناس :

---

(١) طه : ٤٥ ، ٤٦

(٢) هم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص [أنظر ابن هشام ص ٢٥٠ ، ٢٥١ جـ ١

فنقول إن هـذا كان لمجرد الخوف على حياة بعضهم أو إيذائهم ، خاصة المستضعفين منهم ، وليس لأن الدعوة لم تكن قد عرفت ، بل إن هـذا لم يكن مقصوراً على فترة معينة يمكن أن نطلق عليها فترة السرية ، وإنما كان ذلك دائماً منه ومن غيره وحتى الهجرة إلى المدينة .

بل إنى أرى أن إسلام كثير من العبيد والمستضعفين فى بدء الدعوة دليل على أنه لم تكن هناك سرية على الإطلاق ، فكيف عرف سادتهم من القرشيين بإسلامهم ، ومع تعذيب هؤلاء المستضعفين كبلال وغيره فإنه لم يمنعهم العذاب من أن يجهروا بالإيمان مع إمكان كتمانه ، بل كيف عرف السادة بإيمان هؤلاء اللهم إلا لأنهم دائماً ما كانوا يجهرون بهذا الإيمان .

وإن قيل فماذا تصنع فى قول الله تعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين)[(١)] ؟ أليس هذا دليلا على أن الله قد طلب من رسوله إنذار الأقربين ، وأن الرسول طلب منه أن يدعو قومه أولا فدعاهم على وليمة كما يحكي الحديث ، ثم دعاهم بعدها إلى الله[(٢)] ؟

وما الذى نصنعه مع قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر) وما يروى من وقوف الرسول ﷺ بعدها على الصفا ينادى (يابنى عبدالمطلب يابنى فهر يابنى لؤى أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسطح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى[(٣)] ؟

أقول أن القرآن يجب أن يؤخذ كله كوحدة متكاملة فلا يؤخذ بعضه ويترك بعضه فهو يوضح بعضه بعضا .

---

(١) الشعراء : ٢١٤

(٢) راجع نص الحديث فى تفسير ابن كثير ص ٢٥٠ ج ٣

(٣) راجع نص الحديث فى تفسير ابن كثير ص ٣٤٩ ج ٣

فآية: (فاصدع بما تؤمر ، فى سورة الحجر وسورة الحجر ليست من أوائل ما نزل من القرآن ، وإنما ترتيبها فى أصح الروايات السورة رقم (٥٢) وترابطها مع ماقبلها ومابعدها من الآيات يوضح أنها لم تنزل وحدها ، كما أن المفسرين اختلفوا فى تفسيرها اختلافاً بيناً .

يقول القرطبى[1] : (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) أى بالذى تؤمر به أى بلغ رسالة الله إلى جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم فقد أمرك الله بذلك .

والصدع الشق وتصدع القوم أى تفرقوا ، ومنه يومئذ يصدعون أي يتفرقون ، ثم يأتى القرطبى برأى الفراء فيقول فقوله (فاصدع بما تؤمر) قال الفراء أراد فاصدع بالأمر أى فأظهر دينك .

ثم يواصل القرطبى كلامه فيقول : وقال ابن الأعرابى معنى فاصدع بما تؤمر أي اقصد ، وقيل فاصدع بما تؤمر أى فرق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفر .

وقال ابن إسحاق[2] : لما تمادوا فى الشر وأكثروا برسول الله الاستهزاء أنزل الله (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) والمعنى اصدع بما تؤمر ولاتخف غير الله فإن الله كافيك من أذاهم كما كفاك المستهزئين، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والحارث بن الطلاطلة أهلكهم الله جميعاً ، قيل يوم بدر فى يوم واحد لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم[3] .

(١) القرطبى ص ٦١ ، ٦٢ ج ١٢ (٢) القرطبى ٦١ ٦٢ ج ١٢
(٣) راجع القصة بتفسير القرطبى ص ٦٢ ج ١٢

ورواية ابن إسحاق فى أن الله تبارك وتعالى أنزل عليه (فاصدع بما تؤمر) بعد أن تمادوا فى الشر، وأكثروا برسول الله الاستهزاء دليل على أن الدعوة كانت معروفة ولم تكن سرية؛ بدليل أنهم كانوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وسلم وتمادوا فى شرهم نحوه، وكان هذا الاستهزاء والتمادى فى الشر بسبب الدعوة نفسها، وبسبب سب الرسول صلى الله عليه وسلم لآلهتهم ومعبوداتهم، لأنه من الثابت أن القرشيين لم يتعرضوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالسب أو الإيذاء إلا بعد أن تعرض هو لآلهتهم، فهل يكون معنى (فاصدع بما تؤمر) بناء على هذا، أظهر الدين بعد أن كان مستخفياً ؟

صحيح أن بعض المسلمين كانوا يخفون إسلامهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكوّن من بعض المسلمين أسراً (خلايا) وكانت هذه الأسر تختفى اختفاء استعداد وتدريب لا اختفاء جبن وهروب، أما الدعوة نفسها فقد كانت معروفة للجميع وفى ذلك يقول أحد العلماء[1]، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل من المسلمين أسراً فكان يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة وسعة من المال، فيكونان معه ويصيبان من فضل طعامه ويجعل منهم حلقات، فمن حفظ شيئاً من القرآن علّم من لم يحفظ فيكون من هذه الجماعات أسر أخوة وحلقات تعليم .

وكان ممن أسلم فاطمة بنت الخطاب أخت عمر وزوجها سعيد بن زيد، وهو ابن عم عمر فكان فى أسرة واحدة مع نعيم عبد الله النحام بن عدى (أسرة عمر) وكان معلمهم خبّاب بن الأرت، وكان اختفاء المسلمين فى تلك الفترة إختفاء استعداد لا اختفاء جبن وهروب، وكان اشتغالهم بالقرآن لا بقة معروفة

---

(١) أخبار عمر للطنطاويين : ٢٠ ، ٢١

منه على تجويد تلاوته وضبط مخارج حروفه ولا على الاستكثار من سرده والإسراع في قراءته بل كان همهم دراسته وفهمه ومعرفة أمره ونهيه والعمل به .

وأما الألوسي في الجزء الرابع صفحة ٢٣٠، ٢٣١ فيفسر قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر به) بمعنى واجهر به ويقول مجاهد فيما أخرجه عنه ابن أبي حاتم أن المعنى أجهر بالقرآن في الصلاة ، وماروى عن ابن زيد أن المراد بما تؤمر القرآن الذى أوحى إليه صلى عليه وسلم أن يبلغهم إياه وأن تكون مصدرية أى فاصدع بأموريتك .

إذا فلم يجمع المفسرون على أن معنى (فاصدع بما تؤمر) إظهار الدين بعد أن كان مستخفياً ، وإنما رأى بعضهم وأنا أميل إليه ، أن معناه استمر فى دعوتك حتى تصدعهم فتفرق بين جماعتهم .

ولو أخذنا سورة الحجر كلها كوحدة متكاملة لوجدنا أن هناك ترابطاً بين آياتها ، فقد بدأت السورة بذكر القرآن والقسم بآياته ، ثم بدأ يهدد قريشاً ويقول إنهم سيتمنون الموت يوم القيامة حين يعرضون على النار أن لو كانوا مسلمين ؟ ثم أخذ الله يطمئنه إلى أن القرآن الذى ينزل عليه تعهد الله بحفظه ورعايته ، ثم بدأ يحكي للرسول عصيان الأمم السابقة لرسولهم واستهزائهم بهم، وأخذ يوافق بين قدراته فى خلقه للسموات والأرض وحفظه لهذه السموات من عبث الشياطين، واستراق السمع منها، وامتلاكه لخزائن السموات والأرض وإرساله الرياح لواقح ، وإنزاله الماء من السماء وخلقه الإنسان من صلصال .

وماحدث من عصيان إبليس حيث عصى وامتنع عن السجود لآدم، ثم بعدها مباشرة أراد أن يطمعهم فى مغفرته فقال (نبىء عبادى أنى أنا الغفور

الرحيم)[1] ، وأن يخيفهم من عذابه فقال تعالى : (وأن عذابي هو العذاب الأليم)[2] .

ثم واصل الحديث عن عصيان الأمم السابقة لرسلهم وماحدث لهم تطميناً لرسول الله ، وتخويفاً لمن كفر به وبرسالته ، فتحدث عن لوط وقومه ، وعن أصحاب الأيكة قوم شعيب ، وعن أصحاب الحجر قوم صالح — ثم طمأن الرسول وبشره بما أعطاه إياه من فضل فقال (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم)[3] وأخبره أن هذه أفضل بكثير من زخرف الحياة الدنيا ومامتع الله به بعض الناس من طعام وشراب ، وألا يحزن على عدم اتباعهم إياه وأن يخفض جناحه لمن اتبعه منهم ثم أمره أن يقول لهم تهديداً (أني أنا النذير المبين كما أنزلنا على المقتسمين) أي المتحالفين الذين تحالفوا على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم[4] ، (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) (فاصدع بما تؤمر) أي لاتخف واجهر بقرآنك وبصلاتك وأعرض عن المشركين (فإنا كفوك شرهم وحافظوك منهم)[5] .

فأنت ترى أن هناك ترابطاً بين آية (فاصدع بما تؤمر) وماقبلها من الآيات مما يوضح أنها لم تنزل وحدها — أما أمر الرسول ﷺ بإنذار عشيرته الأقربين فليس معناه كما توهم كثير من الناس، أن الدعوة حين بدأت أول مابدأت لم تكن عامة، وأنه أمر بإنذار الأهل والعشيرة أولا ثم أمر بعد

(١) الحجر : ٤٩

(٢) الحجر : ٥٠

(٣) الحجر : ٨٧

(٤) تفسير ابن كثير ص ٥٥٠ ج ٢

(٥) راجع تفسير الحجر لابن كثير من ص ٥٤٠ فما بعدها ج٢

ذلك بالإنذار العام ، خاصة وأن معظم المفسرين يرون فى تخصيص عشيرته صلى الله عليه وسلم الأقربين بالذكر مع عموم رسالته دفع توهم المحاباة[١] ، وفى تخصيص عشيرته للإنذار أيضاً حسم لأطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب فى مفارقته إياهم على الشرك[٢] .

وإذا كان بعض الناس قد فهموا من قول الله لرسوله (وأنذر عشيرتك الأقربين) أنه لم يكن قد تم إنذارهم ، فما رأيهم فى قول الله تعالى للرسول فى المدينة بعد اشتهار الدعوة وانتشارها وظهور أمرها (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)[٣] ؟

وقوله (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم)[٤] ؟

فهل فى قوله بلغ ماأنزل إليك ، وقوله وادع إلى ربك مايفيد أنه لم يكن يبلغ أو يدعو قبل ذلك ؟ حاشا لله ، وإنما هو لمجرد التذكير (فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيى ، قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى)[٥] .

فقد طلب الله من رسوله أن يذكر قومه ويداوم على هذا التذكير والتذكير إنذاراً ، وهذه الآيات من سورة الأعلى وهى من أوائل مانزل من من القرآن فترتيبها فى النزول السابعة .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢ ص ٢٦

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٣ ص ١٤٣ .

(٣) المائدة : ٦٧ (٤) الحج : ٦٧

(٥) الأعلى : ٩ - ٢٧

بل ما رأى السادة العلماء فى الأوليات الأولى من القرآن، ومنها قوله تعالى (ياأيها المدثر قم فأنذر)[1] .

فهل كان المقصود هنا الإنذار المخصوص، أم الإنذار العام ؟

والواضح أن قول الله تعالى فى سورة الشعراء (وأنذر عشيرتك الأقربين) جاء بعد قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) فهذا إنذار عام ثم خصص فقال (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

والله أعلم .

---

(١) المدثر : ١، ٢

كيف بدأ الوحي

نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تحنثه فى غار حراء فترة من الزمان كان الرسول لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان ذلك لمدة ستة شهور[1] ، ثم نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول الله (اقرأ) ثم انقطع لمدة سنتين ونصف[2] ، ظن الرسول خلالها أن الوحى لن يعود إليه حتى هم أن يلقى بنفسه من فوق الجبل ، ثم رأى الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل مرة ثانية حين ناداه ونظر فإذا هو يسد الأفق فخاف منه وارتعد وذهب إلى زوجه خديجة وقال : دثرونى دثرونى ، ثم نزل عليه الوحي بعد ذلك وهو فى بيته (ياأيها المدثر قم فأنذر) .

وهنا يمكن أن نقول أن فترة الرسالة والدعوة فى مكة قد بدأت بعد نزول هذه الآيات ، عامة جهرية وأنها كانت عشر سنوات فقط .

فقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس قوله[3] (أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وأربعين ، فمكث بمكة عشراً ، ومات وهو ابن ثلاث وستين) ويقول ابن كثير وهكذا روى يحيى بن سعيد وسعيد بن

---

(١) المختار من تيسير الوصول ص ٢٧

(٢) نفس المرجع

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ص ٢٨١ ج ١

المسيب، كما روى الإمام أحمد أيضاً حديثاً مسنداً إلى الشعبي[1]، (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته جبريل فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة ، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة) .

وسواء صح هذا الإسناد أو لم يصح ، فإني أعتقد أن بعض العلماء ظنوا أن الدعوة بدأت سرية ولمدة ثلاث سنوات إعتقاداً منهم أنه في خلال هذه الفترة (فترة انقطاع الوحي) كانت الدعوة سرية .

وقد روى البخاري ومسلم والترمذي[2] عن يحيي ابن كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ، فقال : (ياأيها المدثر) قلت : إنهم يقولون (اقرأ باسم ربك الذي خلق) قال أبو سلمة سألت جابراً عن ذلك فقال : لاأحدثك إلا ماحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فرأيت شيئاً ، فلم أثبت له — فأتيت خديجة فقلت — (دثروني) فنزل (ياأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر) . وذلك قبل أن تفرض الصلاة .

ولا يتعارض هذا مع حديث عائشة الذي رواه البخاري ومسلم أيضاً[3] ، وفيه أن أول ما نزل هو (إقرأ) حيث أن جابراً لا ينفي نزول شيء قبل المدثر، وعائشة رضي الله عنها تثبت ، فالمثبت مقدم

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ص ٣٨٨

(٢) راجع تفسير ابن كثير ص ٢٧ جـ ٢

(٣) المختار من تيسير الوصول للدكتور / محمد عبدالله دراز ص ٤ بتصرف

على النافى ، لأن عنده زيادة علم[١] ولأن جابراً لاينفى المقالة الأخرى ولايكذبها ، وإنما هو واقف عند حد ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينتفى التعارض ، فكأنه يقول إن دعوى نزول اقرأ قبل المدثر تحتاج إلى توقيف لم يبلغنى ولا أقول إلا ماسمعته[٢] .

ونحن لاننكر نزول اقرأ قبل المدثر ، ولكن نريد أن نثبت أن نزول المدثر كان بعد انقطاع الوحى الذى رأى بعض العلماء أنه إمتد إلى ثلاث سنوات، مماجعل جابراً يعتقد أن المدثر هى أول مانزل من القرآن على الإطلاق.

حينذاك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمر أول ماأمر بالإنذار العام وليس بالإنذار الخاص كما يرى كثير من العلماء .

يقوم المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (المختار فى تيسير الوصول ص ٣٦ (وفتر الوحى من الفتور ضد الحدة : أى لم يعد عن قرب ولم يتتابع . بل مضت عليه فترة طويلة كما رواه البخارى فى كتاب التعبير ولفظه هكذا :

(وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كى يتردى من شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه تبدى له جبريل فقال يامحمد إنك رسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك .

ثم يواصل الدكتور دراز الكلام فيقول : وقد حددت هذه الفترة فى

[١] المرجع السابق [٢] ابن كثير جزء ٤ ص ٤٤٠

حديث مرسل رواه أحمد عن الشعبي بأنها كانت سنتين ونصف سنة ، ويقول : وظاهر رواية البخاري التي نقلناها لكم عن كتاب التعبير لاينافي هذا التقدير ، ثم يقول : وأما ماروى عن ابن عباس أن الفترات التي كان يسكن فيها جأش الرسول إنما كانت أياماً ثم يعاوده الحزن ، فإنه لا يعارض رواية الشعبي ، لأنه لاتحديد في كلام ابن عباس لمجموع هذه الفترة ، فكلتا الروايتين صحيح

ويقول الدكتور دراز وبعد : فإذا ضممت مدة فترة الوحي إلى مدة الرؤيا كان مجموعهما ثلاث سنين ، وهي مدة النبوة التي لم يؤمر فيها بالتبليغ والرسالة بالفعل ، فمكث على ذلك عشرين سنة ، نصفها في مكة ، ونصفها في المدينة ، وبهذا يجمع بين الروايات المختلفة ، فهي مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد الوحي وهي ثلاث عشرة سنة ، وعشر إذا حسبت مدة الرسالة وحدها ، والله أعلم .

والنص في هذا الحديث على أن هذا كان قبل أن تفرض الصلاة ، دليل على أن الفترة التي كانت بين نزول اقرأ والمدثر وهي التي نرى أنه لامانع من أن تكون ثلاث سنوات ، وكانت فترة نبوة كما يراها المرحوم الدكتور دراز دليل على أن الدعوة والرسالة بدأت فعلا بعد نزول المدثر ، فالمعروف أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم التالي لنزول الوحي عليه وعلمه الصلاة والوضوء ، والروايات التاريخية تكاد تجمع على أن إسلام علي رضى الله عنه كان بعد أن رأى الرسول صلى الله عليه وسلم يصلي مع زوجه خديجة ، ولما سأله على أخبره بأنه رسول الله ودعاه إلى الإسلام .

ومعروف أن عليا هو أول من أسلم من الشباب بل يرى البعض أنه أول من أسلم من الشباب والرجال معاً ، ومعناه أنه لم تكن هناك دعوة خلال هذه الفترة .

والله أعلم .

هل تأسست الدولة الإسلامية فى مكة ؟

إذا كنا قد اعتبرنا محمداً صلى الله عليه وسلم ثائراً على الحكم والنظام فى مكة . رافضاً لهذا النظام الكهنوتى العتيق ، فلماذا لم يعلن تأسيس دولة له فى مكة ؟

الحقيقة أنه لو استطاع أن يلغى هذا النظام بقوة السيف لفعل ، ويجب أن نكون واقعيين عمليين ، فإشهار السيف فى وجه الظلم ليس منقصة ، وإنما هو ضرورة لابد منها لأن امتشاق الحسام (السيف) قد يصبح أحياناً من أسمى الواجبات الإنسانية ، فإن الإنسان لا يمكن أن يكون مرتاح الضمير إذا وقف مكتوف اليدين يتفرج على إنتهاك حرية شعب مظلوم ، أو إذا تعرضت الحرية الدينية للأخطار .

ولم يكن إمتشاق الحسام فى مكة لو استطاع محمد صلى الله عليه وسلم ، كما نقول : « لإرغام الناس على اعتناق دينه لأنه (لا إكراه فى الدين) ولكن لمنع تسلط الحكام والمتجبرين فى مكة على الشعب المكي ، وقد رأينا مالاقاه أتباع محمد صلى الله عليه وسلم من الأذى والعذاب الذى أودى ببعض الأرواح خلال ثلاثة عشر عاماً ، وأن أى دعوة من الدعوات لابد لها من قوة تحميها وتقف بجانبها وتضمن عدم الإعتداء عليها .

ولذلك فإنى أقرر أن السياسة والدين توأمان لا ينفصلان يخدم أحدهما الآخر ، فبالدين يمكن السيطرة على الأفراد وضمان ولائهم للدولة ، وبالسياسة والدولة يمكن إقامة الدين وحمايته .

ولذلك نجحت الدعوة المحمدية ، حيث لم يكن طابعها سياسياً صرفاً ولا دينياً صرفاً ، وإنما أخذت بالإثنين معاً ، وكان تجمع المسلمين وارتباطهم بالدولة يشكل هذا المعنى للسياسة والدولة ، ويشكل قوة كبيرة لحماية الدين والدعاية له ، ولذلك نرى أنه بعد أن كثر معتنقوا هذه الدعوة . أصبحت هذه الدعوة فى حماية الدولة عسكرياً ، وأصبحت أجهزة الدولة كلها فى حماية هذه الدعوة ، وفى نفس الوقت كانت الدعوة من العوامل القوية التى مكنت لإستقرار الحكم ونظامه .

إذاً فإنه كثيراً ما تعرض فى الحياة مواقف يصبح استعمال السيف فيها ضرورة ملحة ، وقد دل تاريخ الأديان وغير الأديان على أن الحسام لم يستقر فى غمده فى يوم من الأيام ، وقد امتشقه (أنبياء)[١] الهندوس واليهود ، فلا الشريعة اليهودية ولا الشريعة الهندوكية تنطوى على حب السلام ، وقد صرح عيسى عليه السلام (أمير السلام) أيضاً (أنه جاء لا ليلقى على الأرض سلاماً ولكن سيفاً)[٢] وجاء (ليكمل الناموس والأنبياء)[٣] وكانت أحكام دينه تسمح باستعمال السيف ، وقد شهر أتباعه الحرب .

فالواقع أنه لو سنحت الفرصة المناسبة للجأ إلى السيف ، ولكن الفرصة لم تتهيأ ، وما لم يفعله عيسى بنفسه قد فعله أتباعه على الوجه الأتم ، وقد تحقق ماتنبأ به من شر مستطير ، فإن المسيحيين يصرفون الجزء الأكبر من ثروتهم وذكائهم فى إختراع الوسائل التى تؤدى إلى إطلاق نار السيف ، وإيقاد نار

---

(١) يطلق على دعاة الهندوس أنبياء تجوزا .
(٢) إنجيل متى إصحاح ١٠ — ٣٥ .
(٣) إنجيل متى إصحاح ٥ — ١٨ .

الحرب فى العالم ، لا سعياً وراء غاية إنسانية نبيلة ، بل إرضاء لشهوة البغى والعدوان ، وطمعاً فى السلب والنهب[١] .

والنبى محمد عليه السلام وعده الله بتأسيس الدولة وهو فى مكة (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون)[٢] .

وأمره ألا يقابل الشدة بالشدة (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره)[٣] ومن وعد الله له بنصر حكومة الإسلام ، ومنها نفهم فكرة الدولة فى مكة (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله)[٤] وقول الله (سيهزم الجمع ويولون الدبر)[٥] وقول الله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا)[٦] .

ولقد كان التشريع المكي الذى جاء به القرآن فى مكة دليلا على أنه بصدد قيام الدولة ومقدمة لتأسيسها ، فلم تكن السور المكية مقصورة على الرد على المشركين وتسلية أصحابه ، ولكنها شملت مع ذلك التشريع أهم المقاصد التى بعث الرسول الكريم لتقريرها كما أتت به الشرائع .

وخلاصة ذلك مبينة بقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا

---

(١) محمد المثل الأعلى للأنبياء ، تأليف كمال الدين ، تعريب أمين محمود الشريف ص ١٥٩ .
(٢) سورة الصافات : الآيات ١٧١ إلى ١٧٣ .
(٣) سورة البقرة . الآية ١٠٩ .
(٤) سورة الشورى : الآية ٤٠ .
(٥) سورة القمر : الآية ٢٥ .
(٦) سورة غافر : الآية ٥١ .

والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[١] .

وقوله جل شأنه (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير)[٢] .

فكان التشريع المكي تشريعاً كلياً عاماً يعنى بالمسائل التى عنيت بها جميع الأديان السابقة الحقة ، وهو القدر الضرورى لكل زمان ومكان ، المشتمل على الأحكام التى يتوقف على العمل بها تطهير القلوب وإصلاح النفوس وتكوين السلوك .[٣]

صحيح أن المسلمين فى مكة كانوا أفراداً قلائل مستضعفين لم تتكون منهم أمة كاملة ولم تكن شئون الدولة الصحيحة قد وضحت بعد ، وكان هم الرسول الأكبر موجهاً إلى بث الدعوة وإلى توحيد الله ، ولم يكن فى هذه الفترة متسع للعمل السياسي المنظم الكامل .

فلم يكن هناك داع إلى التشريع العملى ، ولا ضرورة عاجلة لسن القوانين المدنية والتجارية ونحوها .

ولذلك كانت معظم آيات السور المكية خاصة بالعقيدة والخلق والعبر من السير الماضية .

---

(١) الشورى : ١٣

(٢) الشورى : ١٥ .

(٣) الاسلام ظهوره وانتشاره . حامد عبدالقادر ص ١٨٩

وهذه التشريعات عبارة عن تفريعات عن الأصل والأساس الذى لابد من تقريره والإقرار به أولا وهو : إثبات وحدانية الله والإقرار بعبادته ونبذ ماعدا ذلك من تفريعات يراعى فيها سنة التدرج والبدء بالأهم فالمهم .

ولذا فلا مجال هنا لدعوى بعض المستشرقين من أن الرسول ﷺ تغير فى المدينة عنه فى مكة ، وأن الطابع السياسى زاد بروزاً والطابع الدينى زاد تراجعاً ، وأنه لم يعـد بعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس لإقناعهم بالحجة بصدق الدين الذى أوحى إليه ، وإنما ظهر الآن أقرب ما يكون إلى التعصب مندفعاً يستغل مافى سلطته من قوة ومهارة سياسية فى فرض نفسه وفرض آرائه[1] .

فقد راعى الرسول ﷺ سنة التدرج الطبيعى فبدأ بالأصل ثم عرّج بعد ذلك على الفروع كما قلنا ، بادئاً فيها بالأهم فالمهم ، وكان من الحكمة الإلهية أن تكون التشريعات سواء كانت أحكاماً قرآنية أو أحكاماً شرعها الرسول ﷺ باجتهاده ، إنما تشرع إما لحادث اقتضى تشريعها كالأحكام القرآنية كلها ، أو قضاء فى خصومة أو فتوى فى واقعة ، أو جواباً عن سؤال ، كأحكام الرسول الاجتهادية التى لاتعدو أيضاً عن أن تكون تعبيراً عن إلهام إلهى ، فهى أحكام إلهية ليس للرسول فيها إلا التعبير عنها بقوله أو فعله أو أحكام صدرت عن بحثه ونظره دون إلهام إلهى ، ولكن الله لايقره إلا على الصواب منها ، لأنه ملحوظ برعاية الله[2] .

---

(١) يوليوس فلهوزن وجولد تسيهر ، راجـع للأول تاريخ الدولة العربية ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريده ص ٥ - ٦ وللثانى العقيدة والشريعة فى الإسلام ترجمة د . محمد يوسف موسى وآخرين ص ١٦ ومابعدها .

(٢) التشريع الإسلامى د . عبد الوهاب خلاف ص ٧ ، ٨ ، ٩ بتصرف .

وكان من الحكمة أن تكون هذه التشريعات هكذا حتى تكون أثبت في النفوس عنها ما لو كانت مجرد قوانين مجردة عن حوادثها وأسبابها .

كما أن التدرج الزمني للأحكام ، وعدم تشريعها دفعة واحدة في قانون واحد كان لتيسير معرفة القانون بالتدريج مادة فمادة ، ولتيسير فهم أحكامه على أكمل وجه للوقوف على الحادثة والظروف التي اقتضت تشريعها[١] .

ولقد كان التخطيط النبوي دقيقاً ومنظماً ، وكان تخطيطاً سياسياً محكماً ، فما كان اختيار رسول الله ﷺ لدار الأرقم بن أبي الأرقم لمجرد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح دينية فقط ، وإنما كانت مكاناً للإجتماع والتشاور في كل شيء وليس لمؤرخ أن يقول إنما كان يدور في اجتماعات هذه الدار هو شيء معين يستطيع أن يحدده ، ولكني أعتقد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد حدد لكل فرد من هؤلاء عمله بدقة وتنظيم ، أليس هو الذي أشار على بعض أتباعه بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه)[٢]

لو كان الرسول كما يقول بعض المغرضين مجرد داعية فقط لرسالته لبلّغ الرسالة وترك أتباعه وأنصاره يتصرفون كما يشاءون ، ولما جمعهم بهذا الشكل ، ولما اختار لهم ناديا يجتمعون فيه ومقراً لهم يلتقون ويتناصحون ويتفهمون ويتعلمون وينتظرون اللحظة الحاسمة التي يكون فيها لتجميعهم هذا شرعية العمل المنظم ، وحرية الحركة الإيجابية للدعوة إلى الله ، ولن يكون ذلك

---

(١) التشريع الإسلامي د. عبد الوهاب خلاف ص ٧ ، ٨ ، ٩ بتصرف

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٢٢١ ، ٢٢٢ والتاريخ الإسلامي د. حسن ابراهيم ص ٨٧ ج ١

إلا بوجود الكيان المنظم الذى يجمعهم والهيئة المنظمة التى تدبر أمرهم وترعى شئونهم ، والذى يظن أن الرسول لم يفكر فى إقامة الدولة ولا فى تأسيسها إلا بعد وصوله للمدينة إنما هو مخطىء جانبه الصواب ، صحيح أن الدولة الإسلامية لم تتوافر لها الأركان الأساسية التى يجب أن تتوفر ليكون للدولة كيان ووجود عملى إلا فى المدينة ، لكن التفكير فى هذه الدولة إنما كان فى مكة ، وقد قامت الدولة بالفعل والرسول فى مكة بعد بيعة العقبة الثانية ، وقبل أن ينتقل الرسول إلى المدينة وكما سأثبته فى صفحات قادمة إن شاء الله .

وقد كانت فكرة الدولة موجودة فى عقل الرسول وفكره لحماية هذه الدعوة، ولنشرها من أول يوم أمر فيه بتبليغ الرسالة ، وكما قلت لابد لكل دعوة من قوة تحميها ، فكان من الطبيعى والمنطق أن يكون الذين دخلوا فى دعوة جديدة ، جماعة واحدة ، وأن يعملوا مايستطيعون ليكون لهم القيام بشعائر دينهم فى حرية وأمن ، ثم لتكون لهم القدرة على نشر الدين بين الذين آمنوا به ودخلوا فيه ، وهذا وذاك لايتأتى إلا إذا كانت لهم دولة حرة آمنة تشرف عليهم وتدبر أمورهم الدينية والدنيوية[1] .

ومن ثم كان لابد أن يفكر الرسول فى ذلك وهو فى مكة ، وليس كما يقول بعض المستشرقين ومن فى قلوبهم مرض من أن الرسول لم يفكر فى إقامة دولة إلا بعد الهجرة إلى المدينة ، حينما رأى أنه وأصحابه قد أصبحوا فى منعة وقوة تمكنهم بعون الله من الوقوف أمام المشركين .

كانت فكرة التأسيس موجودة فى فكره ، وكان يعمل لها بالفعل كما قلنا ، ولم يكن هناك مانع من قيام هذه الدولة إلا قلة عدد المسلمين وضعفهم .

---

(١) نظام الحكم فى الاسلام د محمد يوسف موسى ص ١٢ .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتمنى أن تؤمن قريش كلها بدعوته حكاماً ومحكومين ، وأن تقوم مكة باعتبارها حامية للبيت بواجبها نحو الدعوة الجديدة ، وأن يكون أول دولة تتأسس فى الإسلام عاصمتها مكة .

ولكن شاء الله أن تكون حاضرة دولة الإسلام مدينة أخرى هى (يثرب) ومع أن القرشيين وقفوا فى وجه الدعوة خوفا منها لأنهم تصوروها ستقضى على وسائل معايشهم وتجارتهم الواسعة ، وستقضى أيضاً على نفوذ مكة والكعبة على العرب ، إلا أن محمداً الرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يكن فى واقع الأمر يريد أن ينال من نفوذ مكة أو الكعبة ، بل على العكس كان يرى دائماً أن من واجبه المحافظة على هذا النفوذ ليستغله هو فى نشر دعوته بين العرب ، إذا ما تحول أهل مكة إلى الإسلام خصوصاً وأن مكة يرتبط تاريخها بإبراهيم عليه السلام الذى تنسب إليه الحنيفية (أى الإسلام) .

والله أعلم .

الهجرة للحبشة وأسبابها

كان أمر الرسول للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة لغرضين :

١ - غرض سياسي :

٢ - غرض ديني :

فهجرة هؤلاء إلى بلد بعيد ، وإلى مملكة تعتنق المسيحية لم يكن الغرض منها خوف الرسول على فتنة هؤلاء فقط كما يرى كثير من المؤرخين ، فلقد كان في هذا إعلام للدول المجاورة بالدعوة المحمدية ، وإخبار للناس خارج الجزيرة العربية بأمر هذه الدعوة ، وربما كان الرسول يقصدها ، فالمعروف أن الدعوة الإسلامية مطالب بتبليغها إلى الناس أجمعين كل المؤمنين بها بقدر استطاعتهم ولذلك اختار الله تبارك وتعالى الأمة العربية بالذات ، فهي أقدر من غيرها على حمل هذه الرسالة لأن الدعوة الدينية لابد لها من حماس معين يحقق الإندفاع الذاتي وراء المعتقد ، والالتزام به على أي حياة ، ولابد لها كذلك من تفتح العقل والفكر والفهم ، ليكون مع الحماس بساطة التصديق والإستعداد للإنفاق دون تردد .

والعرب كانت فيهم هذه الصفات ولذلك اخلصوا للدعوة واستماتوا في سبيل نشرها وتبليغها للناس ، وكأن الرسالة لم تكن لمحمد وحده وإنما كانت للعرب كلهم ، وكأن محمداً ﷺ ليس مسئولا وحده عن تبليغ الرسالة ولكن الأمة كلها مسئولة معه عنها وعن تبليغها .

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله)[١] بل كان هناك تبليغ من الله فعلا للمؤمنين بهذه الدعوة، ومسئولية انتشارها.

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)[٢].

ولقد أحس أبو بكر بهذا من أول الأمر، فحمل على كاهله مسئولية الدعوة إلى الله، واقنع وحده مجموعة من كبار رجالات قريش بالإسلام واحضرهم إلى رسول الله ﷺ ليعلنوا إسلامهم أمامه، وكان جعفر بن طالب زعيم المهاجرين بالحبشة وقائدهم يعرف ذلك، ولذلك نرى فى خطبته أمام النجاشى حين استدعى لسؤاله عن هذا الدين الجديد الذى اعتنقه هو وأصحابه وجاء سفيرا قريش إلى النجاشى يخبرانه بذلك ويطلبان منه تسليمهم إليها محاولين إغراءه بهدايا قيمة ليقتنع برد المسلمين من مواطنيهم إليهم[٣].

نرى فى خطبة جعفر أمام النجاشى، إيمانا واقتناعا كاملا بهذه الدعوة، بل تعد الخطبة نفسها دعوة غير مباشرة للنجاشى وبطارقته ولكل الأحباش لاعتناق الإسلام واتباع الرسول الكريم، ولعل تأثير هذه الخطبة فى النجاشى دعته لاستدعاء جعفر مرة أخرى للإستزادة من تعاليم الإسلام ومعرفة الكثير عن أحوال الرسول وأخباره، خصوصاً بعد أن اطمأن النجاشى إلى صدق هذه الدعوة وآمن بما تحدثت عنه الآيات القرآنية عن طبيعة خلق المسيح عليه السلام، وما قيل من أن النجاشى أسلم حتى ثار شعبه وخاصة جيشه عليه بسبب هذا الإسلام فاضطر لمداراتهم حفاظاً على ملكه فسكتوا وانصرفوا عنه[٤].

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٤.
(٣) راجع القصة فى حياة محمد ص ١١٦، وابن هشام ٣٣٤-٣٣٦ القسم الأول.
(٤) ابن هشام ص ٢٤١.

ولعل قريشا رأت أن حماية النجاشى لجعفر وأصحابه بعد سماعه لأقوالهم قد تكون ذات أثر فى إقبال أهل جزيرة العرب على دين محمد وإتباعهم إياه أو أنهم خافوا إن بقى هؤلاء فى الحبشة أن تشتد شوكتهم ، فإذا عادوا بعد ذلك لمعونة محمد عادوا أقوياء بالمال والرجال[1] ، أو لعلهم تصوروا تأثير هؤلاء فى النجاشى نفسه فيحاول محمد صلى الله عليه وسلم أن يستعد لمحاربتهم ، ويفهم من القصة وإرسال النجاشى إلى المهاجرين يستدعيهم أن مكانهم كان معروفاً فى الحبشة ولعلهم لم ينزلوا فى مدن أخرى غير العاصمة ولم يتفرقوا فى البلاد .

فقد اجتمعوا بعد استدعائهم وقبل مثولهم أمام النجاشى (وقال بعضهم لبعض ماتقولون للرجل إذا جئتموه ، قالوا نقول والله ماعلمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كأننا فى ذلك ماهو كائن)[2] .

وهذا تخطيط سليم وترابط بين المسلمين وتكافل فيما بينهم ولإمكان قيامهم بواجبهم نحو الدعوة إلى الله .

يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه حياة محمد[3] من حق من يؤرخ لمحمد أن يتساءل : —

أكان كل القصد من الهجرة التى قام بها المسلمون بأمره ورأيه الفرار من كفار مكة ومايلحقونه بهم من الأذى ؟ أم أنها كان لها كذلك غرض سياسى إسلامى رمى محمد من ورائه إلى غاية عليا ؟ .

من حق مؤرخى محمد أن يتساءلوا عن هذا بعد الذى ثبت من تاريخ هذا

---

(١) حياة محمد ١١٧

(٢) ابن هشام ص ٢٣٥ القسم الأول .

(٣) هيكل ص ١١٦

النبي المؤلّف في أدوار حياته جميعاً أنه كان سياسياً بعيد الغور كما كان صاحب رسالة وأدب نفسي لا يدانيهما في السمو والجلال والعظمة مدان ، ويدعونا إلى هذا التساؤل ما تجرى به الرواية من أن أهل مكة لم يستريحوا إلى خروج من خرج من المسلمين إلى الحبشة، ثم بعثوا رجلين إلى النجاشي ومعهما الهدايا القيمة يقنعونه كي يرد المسلمين من مواطنيهم إليهم ، والحبشة ونجاشيها كانوا نصارى فليس تخشى قريش عليهم من الناحية الدينية أن يتبعوا محمداً .

ثم يقول في ص١١٩ من نفس الكتاب أ كانت هجرتهم لمجرد الفرار والأذى ؟ أم كان لها ولو في تدبير محمد وحده غاية السياسية يجمل بالمؤرخ أن يجلوها ومن حق مؤرخ محمد أن يتساءل .

كيف أمن محمد على أصحابه ؟ الواقع أن النصرانية في ذلك الوقت دين الحبشة، والنصرانية دين كتاب ، ورسولها عيسى يقر محمد رسالته ثم لا يخاف عليهم فتنة كفتنة قريش ، وإن تكن من نوع آخر ، وكيف أمن هذه الفتنة والحبشة بلاد بها من الخصب ما ليس بمكة فهي أشد لنا من قريش فتنة .

ولقد تنصر بالفعل أحد المسلمين[1] ، الذين ذهبوا إلى الحبشة فدل تنصره على أن خوف هـــذه الفتنة كان جديراً بأن يساور محمداً ﷺ وهو ما يزال ضعيفا وما يزال الذين اتبعوه في أشد الريب من قدرته على حمايتهم أو الانتصار به على عدوهم ، وأكبر الظن أن يكون ذلك قد دار بخاطر محمد أن كانت سعة ذهنه وذكاء فؤاده وبعد نظره عدلا لسمو روحه وكرم نفسه وحسن أدبه ورقة عاطفته .

ويرى الدكتور هيكل أن الرسول من هـــذه الناحية كان مطمئناً تمام

---

(١) عبيد الله بن جحش زوج أم حبيبة بنت أبي سفيان التي تزوجها النبي بعد ذلك .

الاطمئنان لأن الإسلام وقتها كان صافى الجوهر، ولم يكن قد اندس فيه من شوائب الخلاف ما اندس فى نصرانية الحبشة ونجران، والحيرة والشام بين مؤلهى مريم ومؤلهى عيسى والمخالفين لهؤلاء وأولئك، فكان يرى هيكل أنه لايخشى مع هذا على أولئك المسلمين الذين كانوا ينهلون من نبع الرسالة المصفى.

وإن كنت أرى أن للمسيحية فى الحبشة كانت صافية سليمة وسأثبت هذا فيما بعد، ولقد أثمرت دعوة هؤلاء المهاجرين فى الحبشة، بل اعتنق النجاشى الإسلام بعد فترة وجيزة من وصول المسلمين إلى بلاده، وكان هذا سبباً من أسباب ثورة الحبشة عليه[1] الأمر الذى جعل المسلمين، مسلمى الهجرة الأولى على ما أعتقد يتركون الحبشة عائدين إلى بلادهم خوفاً على حياتهم وحتى لايشاركوا فى هذه الثورة، خصوصاً وأنهم فى بلادهم غرباء عنها، ولامانع من أن يكون من بين أسباب عودتهم إلى مكة مابلغهم من حسن الجوار بين المسلمين والقرشيين، خاصة وأن معظم المؤرخين يرون أن عودة المسلمين من الحبشة كان بسببها (أى العلاقة الطيبة بين المسلمين والمشركين) لابسبب قصة الغرانيق التى أوردها بعض المؤرخين الكبار كابن سعد فى طبقاته الكبرى والطبرى فى تاريخ الرسل والملوك، وأوردها كثير من المفسرين المسلمين وكتاب السيرة وأخذ بها جماعة من المستشرقين، ووقفوا يؤيدونها طويلا، ولكن كما يرى الدكتور هيكل[2] (كانت هذه العلاقة الطيبة الجديدة التى عبر عنها بأنها كانت هدنة بين المسلمين والمشركين، كانت بسبب إسلام عمر الذى جهر بإسلامه وتحدى قريشاً وصمم على أن يصلى هو والمسلمين عند الكعبة بعد أن كانوا يستخفون بصلاتهم فى شعاب مكة فاضطرت قريش مؤقتاً لمهادنة المسلمين

---

(١) ابن هشام ص ٢٤٠ - ٢٤١ الجزء الأول.

(٢) حياة محمد ١٢٦

خوفا من أن تثير بتحدياتها لعمر ولحمد وأصحابه حرباً أهلية لايعرف أحد مداهـا ولامن تدور عليه دائرتها .

ويقول الدكتور هيكل [1] وربما ترددوا فى هذا العود لو لم يكن السبب الثانى الذى ثبت عزمهم ، ذلك أن الحبشة شبت بها يومئذ ثورة على النجاشى كان دينه وكان ماأبدى من عطف على المسلمين بعض ماأذيع من تهم وجهت إليه ولقد أبدى المسلمون أحسن الأمانى أن ينصر النجاشى على خصومه ، لكنهم لم يكونوا ليشاركوا فى هذه الثورة وهم أجانب ، ولم يكن قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل .. واعتقد أن إسلام حمزة وعمر فقط ليس هو السبب المباشر فى دعوة المهاجرين من الحبشة وإن كان هذا من المشجعات فقط ، فقد ثبت أن عمر وحمزة لم يمنعا عن المسلمين الأذى ولاحتى عن الرسول نفسه بل وربما عن نفسيهما .

والذى أميل إليه أن السبب فى عودة المهاجرين هو ثورة الأحباش على النجاشى بسبب إسلامه وعطفه على المسلمين ولعل الرسول ﷺ هو الذى أشار عليهم بهذا .

ولقد رجعوا إلى الحبشة ومعهم عدد آخر من المسلمين بعد أن استتب الحال وعاد النجاشى إلى حكمه وملكه، مما يرجح ماذهبنا إليه من أن إسلام عمر وحمزة لم يكن أبداً هو السبب فى عودتهم ، وإلا لظلوا فى مكة وفى حمايتها ، وذلك مالم يحدث .

---

(١) حياة محمد ١٢٦

رأيي في أسباب الهجرة إلى الحبشة

معظم المؤرخين على أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة لضعفهم ولخوف الفتنة ، ولكني أرى أن الرسول ﷺ حين أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة لم يكن هذا لضعف ولا لخوف من الفتنة ، خصوصاً وأن معظم الذين هاجروا لم يكونوا من المستضعفين ، بل إن المستضعفين الحقيقيين لم يهاجروا أمثال بلال وعمرو بن فهيرة وزنيرة وغيرهم ممن اشتراهم أبوبكر وأعتقهم ، ولو حاولنا معرفة أسماء هؤلاء الذين هاجروا ، لعرفنا أن معظمهم كان من علية القوم وأنهم من أشراف بطون مكة .

وهل يعقل أن يهاجر جعفر بن أبي طالب خوفاً من الفتنة وأبو طالب يحمي محمداً نفسه ، وإذا كان جعفر لم يكن لهمن يحميه في مكة فمن كان يحمي علياً أخاه . ؟

كذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف وعبيد الله بن جحش وأخوه عبدالله والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وغيرهم من كبار رجالات قريش ومن هم من أحسن عائلاتها وبطونها ، فالمعروف أن الذين خرجوا من بني أمية وبني هاشم وبني أسد وبني نوفل وبني عبد الدار وبني تيم وبني جمح وبني سهم وبني عدى ٦٧ مهاجراً[١] من عدد المهاجرين الذين هاجروا للحبشة ، وهذه البطون التي ذكرتها هي ما انتهى إليها الشرف من قريش .

يقول محمد شكري الألوسي في بلوغ الأرب ص ٢٤ ج ١

---

(١) راجع في ابن هشام أسماء وبطون من هاجروا إلى الحبشة ص ٣٢٢ إلى ص ٣٢٣ ج ١

(إعلم أن من انتهى إليه الشرف من قريش إلى بزوغ نور الإسلام عشرة رهط من عشرة أبطان وهم (هاشم — أمية — نوفل — عبد الدار — أسد — تيم — مخزوم — عدى — جمح — سهم) .

إذاً فلم يكن الغرض من الهجرة هو الضعف والخوف من الفتنة خصوصاً وأن معظمهم كما قلنا لم يكونوا من المستضعفين .

ولعل الرسول زيادة على ما قلناه كان يريد أن يطمئن الراغبين فى الإسلام إلى أن الإسلام له بلد آخر يمكنه الالتجاء إليه عند الحاجة .

وإذا كان معظم اتباع الرسول من المستضعفين فإن الرسول أراد بالهجرة لبعض وجهاء المسلمين إفهام هؤلاء المستضعفين أن الهجرة ليست مقصورة على المستضعفين من المسلمين وحدهم .

هـذا زيادة على ما قلناه من أنها أفادت من الناحية الإعلامية للدعوة الإسلامية ، حيث تسامع العرب وغيرهم فى الجزيرة العربية ، وخارجها بهـذا الدين ، وعرفوا أن مجموعة من المكيين قد خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم وهو دين جديد ظهر فى مكة على يد نبى ، فيحاولون البحث عن صاحب هذه الدعوة ومحاولة معرفة حقيقتها ، وبهذا تنتشر الدعوة خارج مكة ولعل هذا كان من أسباب قدوم الطفيل بن عمرو الدوسى إلى مكة وذهابه إلى الرسول برغم تحذير قريش له حين عرفت أنه قد جاء ليسأل عن الدعوة التى يدعو إليها محمد ﷺ وإسلامه بعد أن ناقش الرسول فيما يدعو إليه الإسلام وعرف أنها دعوة حق ، حتى أن الطفيل فى هذه الفترة المبكرة من حياة الدعوة كان سبباً آخر من أسباب انتشار الإسلام فى الجزيرة العربية حيث حمل الطفيل على كاهله عبء دعوة قومه إلى الإسلام ، ولم يكن الطفيل الدوسى إلا مثلا من كثير[1]

(١) راجع ابن هشام وقصة إسلام الطفيل ص ٣٨٢ إلى ٣٨٥ القسم الأول

كذلك (قدم على الرسول وهو بمكة عشرون رجلا من النصارى حين بلغهم خبره فجلسوا إليه وسألوه واستمعوا له فاستجابوا وآمنوا به وصدقوه مما غاظ قريشاً ، حتى سبوهم وقالوا لهم خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهـــل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلتطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ولم تثن مقالة قريش هـذا الوفد عن متابعة محمد ولم ترده عن الإسلام[1] .

ثم إنه ولاشك قد آمن بهـذه الدعوة عن طريق هؤلاء المهاجرين بعض الأحباش وإن كانوا ، قلة ولم يظهر أثرهم واضحاً فى زمن الرسول ، إلا أنه من الثابت أن الرسول قد التقى بنفسه ببعض الأحباش المسلمين فأكرمهم وقام على خدمتهم[2] .

وكان هؤلاء المسلمون ولاشك نواة انتشار الاسلام فيما بعد فى الحبشة وإن كان ذلك لم يحدث إلا بعد زمن طويل .

ولقد أثمرت هجرة هؤلاء ثمارها فى قلب الجزيرة العربية وفى خارجها ، فخروج ثلاثة وثمانين رجلا من مكة غير النساء والأطفال إلى بلد آخر لم يكن ليخفى على القبائل العربية الموجودة فى قلب الجزيرة العربية ، حيث تسامعوا ولاشك عن هـــذه الدعوة وعن هجرة بعض أتباعها ولو عن طريق قوافل التجارة المتنقلة بين أجزاء الجزيرة العربية وبينهما وبين الشام واليمن .

---

(١) حياة محمد ص ١٣٧

(٢) روى البيهقى بسنده عن أبى أمامة قال : قدم وفد النجاشى على رسول ﷺ فقام يخدمهم فقال أصحابه نحن نكفيك يارسول الله فقال [أنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم] شرح الفتح الربانى لترتيب مسند الأمام أحمد للشيخ الساعاتى : ج ٢٠ ص ٢٢٠ الطبعة الأولى .

بل إنى أرى أن ذلك كان من العوامل التى ساعدت على قبول اليثربيين للدعوة حين عرضت عليهم ، بعد أن عرفوا مدى تمسك أتباع هذه الدعوة بها وبصاحبها وتركهم بلادهم وأوطانهم وأهليهم فى سبيل الدعوة ، هذا مع سماعهم من اليهود وهم أهل الكتاب من قرب ظهور نبى .

وإنى أرى أن بقاء بعض المهاجرين فى الحبشة حتى السنة السابعة للهجرة وبعد استتباب الأمن للرسول واستقراره فى المدينة ،وزوال السبب الذى يرى كثير من المؤرخين أنهم هاجروا بسببه وهو خوف الفتنة فى دينهم .

أرى أن بقاء هؤلاء فى الحبشة حتى هذه الفترة كان مقصوداً،ولعل الرسول ﷺ أراد ببقائهم وفيهم جعفر بن أبى طالب نشر الدعوة الاسلامية فى بلاد الحبشة ، خاصة وأن الرسول ﷺ لم يكن يألو جهداً فى إرساله الدعاة إلى كل المناطق التى يعتقد الرسول إمكان استجابتها للدعوة .

وسنتحدث عن إرساله للدعاة فى فصل آخر إن شاء الله،وإلا فكيف يفسر بقاؤهم فى الحبشة حتى أوائل السنة السابعة من الهجرة ، مع حاجة الرسول إليهم لمساعدته فى حروبه ضد المشركين ؟

فلقد كان بقاؤهم هناك فى الحبشة مع نشرهم للدعـــوة عبارة عن بعثة دبلوماسية تمثل المسلمين فى بلاد الحبشة وتتعرف على أحوالها .

ولعل الرسول كان يخشى محاولة غـــدر الأحباش وهجومهم على الدولة الاسلامية ، ووجود جعفر وأصحابه فى الحبشة سيمكن الرسول من معرفته للأخبار أولا بأول ومعرفة ماإذا فكر الأحباش فى مفاجأتهم ومحاولة الغدر بهم .

وقد يسأل سائل : ولماذا لم يبق المهاجرون إذاً فى الحبشة حتى ينتهى الرسول

من السيطرة على كل الجزيرة العربية ، ويطمئن إلى أنه لم يعد هناك عدو يمكن أن يحاربه ويشغله في داخل الجزيرة ؟

أقول . إن الرسول كان قد اطمأن إلى الحبشة وملكها ، بعد أن خبرها عليا طيلة هذه الفترة ، وكان الرسول مطمئنا بالذات إلى ملكها النجاشي ،خاصة وأكثر الروايات على أنه قد أسلم ، وليس معقولا أن يحارب المسلم المسلم .

ولا يبعد أن يكون الرسول ﷺ خاف على هؤلاء من بطش الأحباش بهم بعد وفاة النجاشي الذي مات فعلا بعد شهور من وصول هؤلاء المهاجرين إلى المدينة،خاصة وأن النجاشي أسلم قبل ذلك وحاولوا خلعه عن الحكم ،وكان من بين الأسباب التي أدت إلى الثورة عليه هي سماعهم بإسلامه وحمايته لهؤلاء المهاجرين ،ولا يبعد أن يكون الرسول قد عرف عن طريق الوحي أن النجاشي قد قرب أجله فطلب استدعاء أصحابه خوفا عليهم .

والرسل يعتمدون في كثير من أحوالهم على الوحي وخبر السماء (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون)[١] .

فقد عرف نوح عن طريق الوحي أنه لن يؤمن بعد الآن إنسان ، ولذلك حين دعا على قومه قال :—

(رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً)[٢] .

---

(١) سورة هود ٣٥ .
(٢) سورة نوح ٢٦ .

وقد روى أن النجاشى حين مات أخبر النبى بوفاته فصلى عليه الرسول ﷺ صلاة الجنازة واستغفر له[1].

ويمكن اختصار أسباب الهجرة إلى الحبشة ونتائجها فيما يلى : —

١ — اطمئنان الرسول إلى عدالة النجاشى ، وأن قومه لن يظلموا عنده ولن يهضم حقهم بدليل قول الرسول (لو هاجرتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد)[2] .

٢ — كان الرسول يأمل فى أن ينتشر الاسلام فى الحبشة . فرسالته عامة .

٣ — رغبة النبى ﷺ فى إعلام العرب جميعا والدول المجاورة على وجه الخصوص بالدين الجديد ، وهو من أدلة عالمية الدعوة الاسلامية .

٤ — كان الرسول يعرف بالوحى من الله أن الدعوة ستنتشر فى الجزيرة العربية وبلاد الشام وغيرها من ربوع آسيا وأفريقيا ، وكان إسلام صهيب الرومى وسلمان الفارسى وبلال الحبشى عنوانا على عالمية الدعوة واعتناق شعوبهم لها .

ولقد وكل الرسول إلى بعض أتباعه ، نشر الدعوة الإسلامية بين قبائلهم العربية كالطفيل بن عامر وأبو ذر وغيرهم ، ولما كانت الحبشة فى حاجة إلى دعاة يدعون للإسلام ، وكانت قريش تحارب الدعوة وتؤذى اتباعها ، رأى النبى بثاقب فكره أن يبعث بهؤلاء يدعون للإسلام وفى نفس الوقت يبعدهم عن أذى قومهم وليس بسبب الأذى وحده .

---

(١) ابن هشام ص ٣٤٠ القسم الاول .
(٢) ابن هشام ص ٣٢١ القسم الاول .

٥ ـ ولاشك أنه كان لهجرة المسلمين للحبشة أثر كبير فى نشر الاسلام وترغيب الناس فيه . فقد ذاع بين العرب أن فريقاً من القرشيين هاجروا إلى الحبشة فرارا بدين تلقوه عن نبى بمكة ، وبذلك سمع بالدين الجديد من لم يسمع به من قبل ، وكما قلنا عرف الأحباش الاسلام وأسلم بعضهم وإن كانوا قلة .

٦ ـ كما أنه لخروج هذه الجماعة أثر فى تخفيف حدة عداء قومهم إذا رأوا فريقا يشترك معهم فى العروبة قد أصبح مضطهدا وأوذى فى دينه حتى اضطر أن يهاجر إلى مكان بعيد[1] .

٧ ـ لقد خافت قريش من نتائج تأييد الحبشة للمسلمين . فإنهم لم ينسوا أطماع الحبشة فى الجاهلية فى بلادهم وتجارتهم وكعبتهم ، ورأى الكفار أن هؤلاء المهاجرين يعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبى قوى[2] ولذلك أوفدوا سفيرين لمحاولة إعادة المسلمين لكنهم فشلوا .

---

(١) أنظر الدولة العربية ص ١٠ الدكتور حسنى الخربوطلى .
(٢) المرجع السابق .

لماذا لم تفتح الحبشة بالذات

الذى يستحق الذكر بوجه خاص . هو . أن جميع البلاد التى كاتب الرسول ﷺ ملوكها وأمراءها واتصل بهم خضعت كلها للمسلمين ودخلت فى دينهم سلماً أو حرباً . ما عدا الحبشة .

فقد فتح المسلمون بلاد كسرى وقيصر وحوران ومصر واليمامة والبحرين وهى البلاد التى كتب إليها واستولوا عليها .

أما الحبشة فهي القطار الوحيد الذى لم ينفر المسلمون إليه . مع أن الرسول كتب إلى النجاشى يدعوه وقومه للإسلام . فلم يفكروا فى فتحه مع أنهم حملوا على جميع الممالك الأخرى واخضعوها لحكمهم تدريجياً ؟

يرى بعض المؤرخين أن سبب ذلك ما كان بين الإسلام والحبشة من علاقات ودوثيقة نشأت عن المعاملة الحسنة التى عامل بها الأحباش المهاجرين المسلمين الذين لجأوا إليهم قبل الهجرة هرباً من إضطهاد قريش وظلمها . حيث آووهم وأكرموا مثواهم وأبوا أن يسلموهم إلى أعدائهم حينما جاء وفدها يطالب بهم[1] .

ويضيف هؤلاء ما كان من النجاشى حين أمهر (أم حبيبة) بنت أبى سفيان حينما عقد لها على رسول الله ﷺ وهى من اللاجئات إلى الحبشة التى توفى زوجها وتزوجها الرسول بعد أن خطبها من النجاشى[2] .

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية أمين سعيد ص ١٢٨ ج ١ .

(٢) نفس المرجع .

وكذلك يرى أمين سعيد[1] أن ترك المسلمين الحبشة حيث أبقوا لها استقلالها وصانوا وحدتها وعاملوا أبناءها معاملة حسنة . وأكرموهم وبروهم كان مكافأة لهم على ما أسدوه من يد بيضاء لإخوانهم، وليقيموا الدليل على أن المسلمين يحفظون الجميل ويكافئوا عليه . ويقولون إنه لولا ذلك لانتظمت مملكة أثيوبيا فى اعداد الممالك الإسلامية الأخرى المجاورة لها . ولدانت للمسلمين وخضعت لهم كما خضع غيرها وما كان أمر الحبشة ليعجزهم . وما كانت قوتها لتقف فى وجوههم بعدما بسطوا نفوذهم على مصر والسودان وإفريقيا وآسيا[2] .

ولكنى أرى أن هذا ليس هو السبب الوحيد فى عدم غزو بلاد الحبشة مع قربها من بلاد العرب وسهولة فتحها وضمها إلى مملكة المسلمين .

بل انى أعتقد أن السبب الأهم هو أن الحبشة كان إيمانها بالمسيحية إيماناً نقياً خالصاً لا تشوبه شائبة . وأن الخلاف فى طبيعة المسيح الذى إنتشر فى معظم بلاد العالم وقتها وتأليه أمه لم يكن قد عرف بعد فى الحبشة . ولم يكن الأحباش وقتها يمنعون الدعوة الإسلامية ولا يقفون فى وجه دعاتها . بل كانت هناك حرية دينية مطلقة .

ولقد ثبت أن حروب النبى صلى الله عليه وسلم كلها كانت حروب دفاع كذلك كانت حروب أصحابه الراشدين .

ولم تكن فيها حرب هجوم للرسول أو الراشدين . إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال . وتستوى فى ذلك حروب الرسول صلى الله عليه وسلم مع اليهود أو مع الروم أو مع قريش .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق .

وفى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة وكان قد سرى النبى ﷺ نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على قدر ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره[1].

والمسلمون حينما حاربوا وفتحوا البلاد التى فتحوها، إنما كانوا يحاربون سلطة تقف فى طريق الإسلام وتحول بينه وبين اسماع المستعدين للإصغاء إليهم والسلطة تزال بالسلطة، ولا غنى فى إخضاعها عن القوة، ولو فتح المسلمون الحبشة وحاربوا حكامها وهم الذين لم يقفوا فى وجه الدعوة ولا الداعين إليها لعيب عليهم أن حاربوا بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالإقناع والبرهان. والإسلام ليس من مبادئه أن يفرض على الناس عقيدته بالقوة.

وأما ما قلناه من أن الحبشة كان إيمانها بالمسيحية إيماناً صادقاً خالصاً وأن الخلاف فى طبيعة المسيح الذى كان قد انتشر فى معظم بلاد العالم لم يكن موجوداً فى الحبشة، فذلك لأن النجاشى وبطارقته معه حينما تلا جعفر أمامهم من أول سورة مريم إلى قوله تعالى « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا. قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا. وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً. والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ».

عرف النجاشى والبطارقة أن هذا القول الذى سمعوه مصدقاً لما فى الانجيل أخذوا وقالوا (هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح).

---

(١) عبقرية محمد للعقاد ص ٢٠ بتصرف.

وقال النجاشى (أن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة) ثم قال لسفيرى قريش (انطلقا والله لا أسلمهم إليكما[١] وقيل أن النجاشى بكى حين سماع هذه الآيات حتى اخضلت لحيته وبكى أساقفته أيضاً حتى ابتلت مصاحفهم[٢] .

ولما رجع عمرو بن العاص سفير مكة إلى النجاشى فى اليوم التالى يطلب منه إحضار المسلمين وسألهم عما يقولونه فى عيسى وأنه عبد وقال له (أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى ابن مريم قولا عظيماً فأرسل إليهم واسألهم عما يقولون فيه) فلما دخلوا عليه قال لهم ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ؟ قال جعفر بن أبى طالب : نقول فيه : الذى جاءنا به نبينا ﷺ (هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول) .

قال النجاشى (والله ما عدا ابن مريم ما قلت)[٣] .

ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى كتابه (السياسة الاسلامية فى عهد النبوة[٤]) . جاء فى كتاب حياة محمد (لا يرفنج) أن نجاشى الحبشة كان مسيحياً نسطورياً . ومذهب نسطور يقوم على التوحيد وإنكار ألوهية المسيح .

ومما جاء عنه فى هذا (لا تقولوا مريم أم الله لأنها من البشر ويستحيل أن يولد إله من البشر) .

ويقول الشيخ الصعيدى[٥] : ولا شك أن هذا يقرب رواية إسلام النجاشى كما يقربه ما لقيه المهاجرون من الاكرام عنده .

---

(١) حياة محمد هيكل ص ١١٨ بتصرف .
(٢) التاريخ الاسلامى حسن إبراهيم ص ٧٨
(٣) نفس المرجع ص ٧٩ (٤) نفس المرجع ص ١٥ :
(٥) نفس المرجع .

إذاً فالأحباش بما فيهم البطارقة والملوك كانوا يؤمنون بأن عيسى ابن مريم هو عبد الله ورسوله .

وهم ممن لا يضيقون الخناق على الدعوة ولا على الدعاة . والاسلام لا يحارب إلا أصحاب العقائد الفاسدة الذين يحجرون على حرية الفكر ويمنعون الناس من إعتناق الدين الصحيح .

وأرى في الآية التالية دليلا على أن حرب المسلمين لأصحاب البلاد التي فتحوها إنما كانت بسبب إنحراف العقيدة حيث لا يدينون دين الحق حتى وان انتسبوا إلى المسيحية . وبسبب حجرهم على الدعوة والوقوف في طريقها ، مع نقضهم دائماً لما عاهدوا المسلمين عليه « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون[1] » .

(١) سورة التوبة ٢٩ .

ميثاق قيام الدولة الإسلامية فى بيعة العقبة

تعتبر بيعة العقبة الثانية فاتحة تحول خطير الشأن فى سير الإسلام وفى تأسيس الدولة الإسلامية على السواء، فلقد لقى النبى بعد طول جهاده ونضاله أنصارا قبلوا أن ينزل فى أرضهم ويحمونه ويدافعون عنه كما يدافعون عن نسائهم وأبنائهم وهما أثمن ماعند العرب، ويبذلون كل شىء فى سبيل تأييده ونصرته .

وقد بدأ النبى صلى الله وعليه وسلم اتصاله باليثربيين فى موسم الحج من السنة العاشرة من البعثة بنفر من الأوس والخزرج . ضمن الخطة التى وضعها لعرض نفسه على القبائل التى تزور مكة ؛ وكان منطقيا ألا يخرج الرسول ﷺ عن نطاق مكة حتى يبلغ رسالة ربه، وما أن أحس أنه قد أدى ما عليه نحو قريش حتى اتجه إلى خارج مكة . وذهب إلى الطائف ينشر دعوته إلا أن ثقيفاً لم تقبل هذه الدعوة ولم تبد استعدادا لمناصرته، فلم يبق أمامه إلا القبائل الوافدة على مكة للحج والتجارة . يعرض نفسه عليها ويدعوها إلى الدخول فى دين الله . وكان خبره يزداد شيوعاً واسمه يزداد ذيوعاً، ولا شك أن الجزيرة العربية كلها كانت قد سمعت وعرفت بأمر هذا النبى وما لاقاه من أهله وقومه، وما صنعوه معه هو وأتباعه حتى اضطر بعضهم للهجرة إلى الحبشة، وتيقن كثير من قبائل العرب أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيعلو أمره أكثر وأمره واصل إلى قمة السلطة المدنية لامحالة، ولذلك شرط عليه بعض القبائل كبنى عامر بن صعصعة أن يكون لهم الأمر من بعده، لكنه رفض وقال لهم : الأمر لله يضعه حيث يشاء، فقال له أحدهم أفنهدف نحورها للعرب دونك

فإن أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لاحاجة لنا بأمرك[1] .

وأبى بعضهم الاستماع إليه، ورد بعضهم رداً حسناً ، لكنهم جميعاً خافوا قريشاً أو جاملوها ، وكانت بين بعضهم وبينها محالفات وعهود وخضوع روحي باعتبارها حامية الكعبة ، ولقد ظل الرسول يدعو القبائل إلى الله عز وجل حتى انتهى إلى نفر من الأوس والخزرج ، وكانت أحوالهم في يثرب وتسامعهم عن ظهور النبي واقتناعهم بأنه هو النبي الذي أخبرتهم به اليهود ، وحاجتهم إلى منقذ ينقذهم مما هم فيه من تفكك واختلاف ، دافعاً لهم إلى اعتناق الإسلام بعد أن رأوا فيه خير منقذ لهم .

فقد روى جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومجنة وعكاظ ويقول[2] : من يؤمن بي ومن يؤويني ومن ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يؤويه حتى أن الرجل لايرحل من مصر أو اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له إحذر غلام قريش لايفتنك، ويمشي بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع)[3] .

وقد أخرج أبو نعيم في الدلائل[4] ، عن أم سعد بن الربيع رضي الله عنهما قالت : (أقام رسول الله ﷺ بمكة ماأقام يدعو القبائل إلى الله عز وجل فيؤذى ويشتم ، حتى أراد الله عز وجل بهذا الحي من الأنصار كما أراد من الكرامة ، فانتهى رسول الله ﷺ إلى نفر منهم عند العقبة وهم يحلقون

---

(١) حياة الصحابة جـ ١ ص ٨٤
(٢) حياة الصحابة جـ ١ ص٨٤ ، سيرة ابن هشام القسم الأول ص٤٢٤، ٢٥٠ .
(٣) زاد المعاد جـ ٢ ص ٥٠
(٤) حياة الصحابة جـ ١ ص ٩٣

يرقوسهم، قلت من هم ياأمه، قالت ستة نفر أو سبعة، منهم من بنى النجار ثلاثة، أسعد بن زرارة، وابن عفراء، ولم يسم لى من بقى، قالت فجلس رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله عز وجل فقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ولرسوله، وحين عاد هؤلاء الستة إلى قومهم وأخبروهم بخبر الرسول فشى الإسلام فى المدينة، حجوا فى العام الثانى اثنى عشر يثربيا من الأوس واثنان من الخزرج فاجتمعوا به عند العقبة وبايعوه بيعة العقبة الأولى.

ولقد كان من أسباب سرعة تقبل هؤلاء النفر من الخزرج للإسلام أن الخزرج كانوا حديثى عهد بهزيمة حلت بهم أمام الأوس وحلفائهم من اليهود فى يوم بعاث، وقد حدث قبل هذا العام أن عرض النبى دعوته كما قلنا على نفر من أهل يثرب، وكان هؤلاء النفر من الأوس قد قدموا مكة يلتمسون حلف قريش على قومهم من الخزرج، فلم يظفروا فى الحلف كذلك لم يسلموا[1].

وحين أخبر رجال الأوس قومهم بظهور النبى فى مكة، ومحادثته لهم ودعوته إياهم للإسلام، خشى الخزرج أن يسبقهم اليهود إليه وهم الذين كانوا يهددونهم باتباع نبى سيظهر ويقتلونهم به قتل عاد وإرم، أو يسبقهم الأوس فيتحقق تهديد اليهود[2].

ولذلك حين دعا النبى هؤلاء النفر من الخزرج قال بعضهم لبعض (ياقومى تعلمون والله أنه النبى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه[3].

---

(١) ابن هشام القسم الأول ص ٤٢٧، ٤٢٨.
(٢) ابن هشام القسم الأول ٤٢٩
(٣) نفس المرجع، زاد المعاد جـ ٢ ص ٥١

وقد أوقف هؤلاء الخزرجيون النبى على الحالة فى بلادهم ووعدوه بالدعوة للإسلام فى يثرب ، كما بشروه بالفوز لو قدر له أن تجتمع قبائل يثرب عليه وقالوا (إنا قد تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر مابينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقوم عليهم ندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليـه من الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك) [١] .

وما أن عاد هؤلاء إلى بلادهم وانتشر الخبر فى يثرب حتى كانت المنافسة بين الأوس والخزرج ، وما كانت الأوس لتترك الخزرج تنفرد بالأمر دونها (وكان ذلك بطبيعة الحال فى صالح الدعوة) .

فجاءوا كما قلنا فى العام التالى اثنى عشر رجلا من القبيلتين ، وكانت بيعة العقبة الأولى ، لم تزد على أخذ شروط دينية وخلقية دون مطالبتهم بعداء أحد أو منابذته بحرب .

وهو تخطيط سديد من رسول الله ﷺ . فالناس فى يثرب لايعرفون شيئاً عن الإسلام ولا عن مبادئه ، ولم يعرفوا بعد شيئاً عن هذه التعاليم التى يدعو إليها الرسول .

وقد كانت المدينة بحاجة إلى معلم ومرشد يعلمهم الإسلام وتعاليمه ويقرأ عليهم القرآن ويفقههم فى الدين .

أخذ الرسول منهم البيعة على (ألا يشركوا بالله شيئاً ولا يسرقوا ولايزنوا ولايقتلوا أولادهم ولايأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولايعصوه فى معروف فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذب) [٢] .

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٥١

(٢) راجع ابن هشام ص ٤٣٢ ، ٤٣٤

مبادىء الإسلام العامة المشتملة على الفضائل والأخلاق والآداب التي يدعو إليها الإسلام ، هي التي طلبها الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النفر ، ولم يكن لرسول الله أن يطلب أكثر من هذا والإسلام لم يتضح بعد لليثربيين ولا يعرفون عنه إلا أنه مجرد دعوة للفضائل والأخلاق ، وكان هؤلاء بمثابة نذر إلى قومهم لأن مهمة الرسول أي رسول ، هي تبليغ الرسالة وتجميع الأتباع لها ، أما مهمة هؤلاء الأتباع فهي الدعوة لهذه الرسالة والإنذار بها (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [1] .

ونظراً لحاجة هؤلاء إلى تفاصيل عن الإسلام وتعاليمه وفرائضه وأركانه كان لابد أن يرسل الرسول معلماً لهؤلاء القوم والأتباع الجدد يعلمهم ويفقههم وكان لابد أن يكون هذا الداعي جديراً بالقيام بهذه المهمة الخطيرة التي اختير لها ، فعلى نجاحها أو فشلها يتوقف مصير الإسلام في يثرب ، التي تموج بالخلافات وتضطرم فيها العصبية ، كان لابد من داع لبق فطن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ويأخذ الأمر بالأناة والرفق والصبر (وكانت هذه دائماً هي طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند اختياره للدعاة أو السفراء إلى القبائل أو الملوك ، وسنتحدث عن طريقة اختيار الرسول للدعاة والسفراء في مكان آخر إن شاء الله) .

وقد توفرت هذه الميزات في رجل من بني عبد الدار اشتهر بشدة الإخلاص للإسلام هو مصعب بن عمير ، الذي استطاع بهذه الأناة والصبر والموعظة الحسنة وبخصاله الحميدة أن ينشر الإسلام في يثرب ، وأن يكتسب إلى جانبه أكبر زعيمين في قبيلة الأوس وهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير اللذان كان لإسلامهما أثر كبير في دخول بطون برمتها في حظيرة الإسلام ،

[1] سورة التوبة : آية ١٢٢

وبذلك مهد مصعب السبيل فى يثرب ليهاجر إليها المسلمون من مكة ، ولتكون بعد ذلك عاصمة لدولة الإسلام ، يطمئن فيها الإسلام ويعتز فيها المسلمون .

وقد روى أن الرسول أرسل مع مصعب (عمرو بن أم مكتوم)[1] ولعل الرسول بهذا أراد أن يكون لكل من الأوس والخزرج إمام وقارىء ، حتى لا يحدث شقاق وتنافس بينهما ، خاصة وأن القلوب كانت لا تزال فيها شىء من الحقد ، والخلاف بينهما لم يكن قد انتهى بعد .

وفى رواية ذكرها أرنولد فى كتابه الدعوة إلى الإسلام[2] أن الرسول ﷺ أرسل مصعب إجابة لكتاب بعثه الأنصار من يثرب ، ولكنى لا أجد دليلا عليه ، واستبعد حدوث ذلك لعدم وجود هيئة حاكمة يمكن أن تطلب هذا كذلك فإن الرسول لا يقبل التورط الذى يؤدى إليه هذا الطلب ، حين يرسل إلى جماعة دون الأخرى مما قد يسبب مشاكل هو فى غنى عنها .

وقد عاد مصعب إلى مكة فى موسم الحج ومعه جماعة من المسلمين كان عددهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان[3] وذلك لأن الاثنى عشر رجلا الذين بايعوا الرسول ﷺ البيعة الأولى فى العقبة ، عادوا إلى يثرب دعاة إلى الإسلام يدعون إليه بإخلاص وحماس شديدين ، فانتشر الدين الجديد فيها انتشاراً من دار إلى دار ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول هذه الدعوة وبسبب ما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة فى تأدية رسالتهم[4] .

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٢ وذكر الدكتور أحمد شلبى فى كتابه التاريخ الاسلامى والدول الاسلامية أنه عبدالله بن أم مكتوم .

(٢) صفحة ٤٤

(٣) ابن هشام ص ٤٤ القسم الأول .

(٤) الدعوة إلى الاسلام أرنولد ص ٤٤ ترجمة الدكتور حسن ابراهيم

جاء هؤلاء الثلاثة والسبعون رجلا إلى مكة فى موسم الحج، ورجع مصعب معهم، وأخبر الرسول بالوضع فى المدينة وما آل إليه أمر الإسلام فيها، وأخبره بقدوم هـذا العدد الكبير من المسلمين واتفق مع الرسول على الالتقاء بهم عند العقبة .

وتختلف هـذه البيعة التى بايعها هؤلاء للرسول اختلافا كبيراً عن البيعة الأولى فى شكلها وجوهرها ونتيجتها أيضاً .

فالبيعة الأولى كانت بيعة خاصة بهؤلاء النفر، طلب منهم الرسول الإسلام وأعلنوا إسلامهم، وطلب منهم أن يعرضوا الإسلام على قومهم (ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) ولم يشترط عليهم كما قلنا عداء أحد ولامنابذته بحرب، ولكنها كانت شروط دينية خلقية فقط .

أما هذه البيعة فلم يكن هؤلاء مجرد أفراد آمنوا بهذه الدعوة وإنما هم ممثلون ليثرب كلها (الأوس والخزرج) على الأقل، وهم أصحاب الكلمة فيها لأن المؤرخين يكادون يجمعون على أنه لم يبق بيت فى يثرب إلا ودخله الإسلام عدا ثلاث دور من دور الأوس تأثروا بأبى قيس بن الأسلت الشاعر الذى وقف ضد الإسلام وتبعته هـذه الدور حتى هاجر الرسول إلى المدينة فأسلم وأسلموا[1] .

وقد حدثت هـذه البيعة الوضع القانونى للنبى بين أهل يثرب واعتبرته واحداً منهم، دمه كدمهم، وحكمه كحكمهم، وقضت ضمنا بخروجه من عداد أهل مكة حتى وإن ظل فيها، وانتقلت بهذا الحلف تبعية النبى من مكة إلى يثرب وهذا نوع من تغيير الجنسية فى تعبيرنا الحديث فقد وافق أهل يثرب على

(١) ابن هشام ص ٤٣٧، ٤٣٨ من القسم الأول .

أن يكون محمداً واحداً منهم ، وأعطوه جنسيتهم حتى وإن بقى فى مكة لظروف سياسية ودينية .

والمتتبع لتفاصيل هذه البيعة يجد أنها لم تكن مجرد مبايعة، وإنما هى حلف واتفاق على قيام الدولة الإسلامية الجديدة، بل وإعلان قيام هذه الدولة بالفعل واعتبار الرسول قائداً ورئيساً لهذه الدولة (فقد أخرج أبونعيم فى الدلائل عن عقيل بن أبى طالب والزهرى رضى الله عنهما، قصة خروج العباس بن عبد المطلب مع الرسول والتقائه بالأوس والخزرج إلى أن قال لهم. يامعشر الأوس والخزرج ابن أخى وهو أحب الناس إلى فإن كنتم صدقتموه وآمنتم به وأردتم إخراجه معكم فإنى أريد أن آخذ عليكم موثقاً تطمئن به نفسى ولا تخذلوه ولا تضروه فإن جيرانكم اليهود له عدو ولا آمن مكرهم عليه)[1] .

وقد شق على أسعد بن زرارة مقالة العباس واعتبر هذا اتهاماً له ولأصحابه وقال: يارسول الله (إأذن لنا فلنجبه غير مخشنين بصدرك ولا معترضين لشىء مما تكره، إلا تصديقاً لإجابتنا إياك وإيماناً بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجيبوه غير متهمينه، فقام أسعد بن زرارة وأقبل على رسول صلى الله عليه وسلم بوجهه فقال: يارسول الله صلى الله عليه وسلم أن لكل دعوة سبيلا ، إن لين وإن شدة، فقد دعوت اليوم إلى دعوة متجهمة للناس متوعرة عليهم، دعوتنا إلى ترك ديننا واتباع دينك وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك ، ودعوتنا إلى قطع مابيننا وبين الناس من الجوار والأرحام، القريب والبعيد، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك ، ودعوتنا ونحن جماعة فى دار عز ومنعة لايطمع فيها أحد أن يرأس علينا رجل من غيرنا قد أفرده قومه وأسلمه أعمامه وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك

(١) حياة الصحابة ٩٥ ، ٩٦

ثم واصل الحديث وأخبر أنهم أجابوه إلى ذلك بألسنتهم وصدورهم وأيديهم إيماناً بما جاء به . وقال . نبايعك على ذلك ونبايع ربنا وربك ، يد الله فوق أيدينا ودماؤنا دون دمك وأيدينا دون يدك نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا .

ثم قال : يارسول الله خذ لنفسك ماشئت واشترط لربك ماشئت)[١] .

من هذا يتضح أن اليثربيين حينما بايعوا محمداً لم يبايعوه على الإيمان برسالته فقط ، وإنما بايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، واعتبروه واحداً منهم، يدافعون عنه ويحمونه كفرد منهم بل واعتبروه من هذه اللحظة قائداً لهم وزعيماً ورئيساً ، وأسلموا قيادهم له وأخبروه أنهم إزاء هذا سيغيرون سياستهم تجاه جيرانهم من اليهود والعرب جميعاً ، وعرفوا أيضاً بثاقب فكرهم وبعد نظرهم أن هذا الوضع الجديد ربما يسبب لهم الدخول فى حروب ومعارك مع غيرهم ، فاستعدوا لهذا .

ولذا نرى البراء يمد يده للرسول يبايعه ويقول له : (بايعنا يارسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر)[٢] .

واطمأنوا إلى استمرار بقاء الرسول بينهم حين قال أبو الهيثم بن التيهان أحد أعضاء الوفد (يارسول الله إنه بيننا وبين الرجال « أى اليهود » حبالاً نحن قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم محمد صلى الله عليه وسلم وقال لهم : بل الدم بالدم والهدم بالهدم، أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم)[٣] .

ولما هم القوم بالبيعة اعترضهم العباس بن عبادة قائلا (يامعشر الخزرج

---

(١) حياة الصحابة ص ٩٥ - ٩٦ (٢) حياة محمد ١٦٩ (٣) المرجع السابق ٧٠

أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلى أسلمتموه ، فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة، فأجاب القوم أن نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف)[١] .

فقد استوثق الطرفان كل لنفسه، واستوثق العباس لابن أخيه أيضاً ، وبعد أخذ البيعة من هذا الوفد الممثل لكل مدينة يثرب تقريباً، تغير الوضع القانونى للنبى وأصبح الرسول ﷺ بهذه البيعة واحداً من أهل يثرب ورئيساً لهم، وله أن يتصرف بما يشاء ابتداء من هذه اللحظة، وعليهم السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره[٢] .

والمؤرخون يسمون هـذه البيعة بيعة الحرب ويقول ابن إسحاق[٣] ، وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله فى القتال شروطاً سوى شرطه عليهم فى العقبة الأولى، وكانت الأولى هى بيعة النساء ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسول الله ﷺ فى الحرب ، فلما أذن له فيها وبايعه رسول الله فى العقبة الأخـيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

وعبادة بن الصامت يقول بايعنا رسول الله بيعة الحرب على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ... إلخ .

كذلك ومما يدل على أن هذه المبايعة لم تكن مجرد إعلان بإسلام نفر من

---

(١) حياة محمد ١٧٠ (٢) نفس المرجع السابق
(٣) ابن هشام ص ٤٥٤ الجزء الأول

الناس أن قريشاً حين عرفت ماحدث فيها بالتفصيل، وأحست أن الوضع قد تغير بالنسبة لمحمد ﷺ وأنه كوّن من هؤلاء جماعة بايعوه على حربهم، أو هم أحسوا أنهم بهـذه البيعة سيضطرون إلى حربهم، خصوصاً وأنهم كانوا قد عرفوا أن محمداً سيخرج معهم إلى بلادهم وهم ما كانوا يجهلون الحالة التى وصل إليها الإسلام هناك فى المدينة، ولهذا ذهب بعض كبار قريش إلى منازل اليثربيين بمكة غداة البيعة وقالوا لهم (يامعشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا وأنه والله ليس حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم)[1] .

وهذا يؤيد ماذهبنا إليه من أن اليثربيين كانوا قد بايعوا الرسول واتفقوا معه على كل شيء، واختيار الرسول ﷺ لتسع نقباء من الخزرج وثلاثة من الأوس إنما (على ما أعتقد) كان بسبب إسلام أكثر الخزرجيين، ولم يكن قد أسلم من الأوس غير بطنين من بطونها الخمسة، فكان اختيار النبي للنقباء بنسبة عدد من أسلم من كل قبيلة .

ولا يمنع أن يكون الـ ٧٣ الذين جاؤا من المدينة جاؤا ممثلين عن بطونهم بدليل أن الأوس لم يكن منهم غير ١١ فقط، والباقون من الخزرجيين، ولعل الأوسيين أحجموا فى بادىء الأمر عن اعتناق الإسلام، خصوصاً وأنهم كانوا هم المنتصرين على الخزرجيين فى حرب بعاث؛ وخافوا أن يؤدى اعتناقهم الإسلام إلى مساواتهم بالخزرج، ولكنهم فى النهاية اضطروا إلى اعتناق الإسلام بعد أن أحسوا أن عدم اعتناقهم له سيحرمهم من ميزات كثيرة، وبعد أن رأوا انتصار الرسول فى كل معاركه .

وكان لابد من تنظيم جاد لهذه الجماعة وتخطيط جديد لهـذه الدولة الناشئة

---

(١) ابن هشام ص ٤٤٨ الجزء الأول

التي أعتقد أنها تأسست منذ هذه اللحظة بالذات، حيث اكتملت كل مقوماتها وأصبح الشعب والأرض والحكم موجوداً منذ هذه اللحظة، واكتملت بذلك أركان الدولة من الناحيـــة القانونيـة، ولهذا نجد الرسول ﷺ يصدر الأمر إلى هؤلاء القوم ويطلب منهم أن يختاروا من بينهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم .

ويختار القوم تسعة من الخزرج وثلاثة فقط من الأوس، ويقول النبي لهؤلاء النقباء وهم المسئولون أمامه من الآن عن بطونهم وقبائلهم (أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء كفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومي)[1]

وأصبح هؤلاء الكفلاء من الآن مسئولين أمام الرسول، لا ينصرفون إلا بإذنه وأمره، ولهذا نراهم يعرضون عليه قتال أهل منى لإثبات أنهم على عهدهم، مطيعون لأمره منفذون لأوامره، إلا أن الرسول يرد على صاحب هذا الاقتراح ويقول : (لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم)[2] .

ولهذا نجد أن القرشيين غيروا موقفهم من محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن عرفوا بأمر هذه البيعة، وبانتسابه إلى أهل يثرب وموافقته على اللحاق بهم وتقرر بعد اجتماع طويل في دار الندوة تداولوا فيه الأمر، واستعرضوا كافة احتمالات الموقف، ضرورة التخلص من محمد صلى الله عليه وسلم شخصياً بالقتل الأمر الذي لم يحدث من قبل، حيث لم يفكروا في مثل هذا الأمر قبل هـذه الحادثة، وذلك لأن الوضع تغير وأصبح محمد ليس مجرد ثائر على الحكم أو خارج على النظام، وإنما منذ الآن زعيما لجماعة وقائداً لدولة في إمكانها أن تناوىء وأن تحمل السلاح ضد هذا النظام وهذا الحكم، وعرفوا أن قتل محمد هو أفضل طريقة لحفظ كيان دولة مكة على أن يكون هذا القتل قتلا جماعياً تشترك فيه كل بطن من البطون بفتى يضرب به مع الآخرين، حتى يتفرق دمه وتعجز عشيرته

(١) حياة محمد ١٧٠ (٢) المرجع السابق

عن حرب كل هذه البطون وترضى بالدية وتنجو مكة من الحرب الأهلية، ويعود إليها كل أهلها المهاجرين، وتعود لها وحدتها كما كانت، ثم تسير في تأكيد سيادتها وتحقيق مصالحها .

وهذا هو السر في أن هذا الإجراء وهذا التفكير لم يحدث إلا بعد مبايعة العقبة الثانية بالذات، فقد اكتفوا بتكذيبه وتفريق الناس من حوله قبل ذلك ولم يتخذوا قراراً بالقتل أو الطرد كما اتخذوا هذه المرة، وقد روى البخارى عن ابن عمرو بن العاص أن أشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ أنه (بينما صلى الله عليه وسلم) يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبة بن أبى معيط ووضع ثوبه على عنقه فخنقه خنقاً شديداً) .[1]

وهذا أمر عادى يمكن أن يحدث فى كل الأوساط بسبب أى خلاف عادى بسيط أو بسبب خلاف شخصى ، أو حقد من بعض الناس على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن هذا اتفاقا من كبراء مكة عليه ، بل إن المرة التى اتفقوا فيها عليه بعد أن ذكروا ماأصابهم منه وقالوا (مارأينا مثل ماصبرنا عليه من هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعاتنا وسب آلهتنا وصرنا منه على أمر عظيم)[2] .

وحين طلع عليهم الرسول وهم على هذا الحال، لم يستطيعوا أن يصنعوا به شيئاً أكثر من غمزه ببعض القول، ومع ذلك نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم أتسمعون يامعشر قريش (والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح)[3]

فخافوا منه وترضوه ، ولم يستطيعوا أن يصنعوا به شيئاً أو يفكروا فيما فكروا فيه بعد هذه المرة .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ص ٤٧٠ ج ١

(٢) المرجع السابق ص ٧١ (٣) نفس المرجع السابق

إذا فالوضع قد تغير بعد العقبة، ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يعد مجرد رجل مستضعف، أتباعه ممزقون مشتتون مستضعفون لا يملكون له ولا لأنفسهم شيئاً، وقد فوجئوا بتسلل المسلمين من مكة أفراداً وجماعات مهاجرين إلى يثرب يستخفي بهجرته من يخشى على نفسه، ويستعلن بها من يجد في نفسه قدرة على التحدي، وحاولت قريش أن تمنع رعاياها المسلمين من الخروج، وأخذت تعذب بعضهم وتنكل بهم، بل بلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه إذا كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه[1] .

ومع ذلك نجحت الهجرة ولقد اتفقوا على قتل محمد ﷺ لأنهم وجدوا أن هذا أجدى من منعه من الخروج، وهم لا يأمنون أن يتعرضوا لحرب اليثربيين دفاعا عن نبيهم ورسولهم وزعيمهم، وهم أيضاً يعرفون بما عندهم من ثبات وحسن رأي وبعد نظر، أن المهاجرين من مكة سيزيدون المسلمين في يثرب ويصبحون أصحاب اليد العليا، وأن محمداً إذا لحق بهم فإنه ربما داهمهم اليثربيون في مكة أو قطعوا عليهم طريق التجارة إلى الشام (كما حدث بالفعل) وأن يجيعوهم كما حاولوا هم أن يجيعوا محمداً وأصحابه حين وضعوا الصحيفة بمقاطعتهم وأكرهوهم على أن يلزموا الشعب وأن يقضوا فيه ثلاثين شهراً[2] .

فلم يبق إلا أن يقتلوه ليستريحوا من هذا الهم الواصب، ولأنهم يخشون مطالبة بني هاشم وبني المطلب بدمه، وقيام حرب أهلية قد تفشوا في مكة بسببه فتكون شراً عليها مما يخشون من ناحية يثرب، فليأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً جليداً وأن يعطوا كل واحد منهم سيفاً فيضربوه ضربة رجل واحد

(١) حياة محمد ١٧٢

(٢) المرجع السابق ١٧٣

فيتفرق دمه بين القبائل ، ويرضخ أهله ويقبلون الدية ، وتعود للبلاد وحدتها ومكانتها .

ومع هـذا فقد تمت الهجرة ، وهاجر معظم المسلمين إلا من قدرت عليه قريش ، وبقي القائد وحده فى مكة هو وأبو بكر وعلىّ وبعض المستضعفين يدبر الأمر ويخطط للانتقال إلى مقر الدولة الجديدة .

ولا مانع من أن يكون الحاكم فى بلد آخر لسبب من الأسباب يمثله ممثلون عنه دينياً وسياسياً ، فقد كان مصعب بن عمير وعمرو بن أم مكتوم ممثلين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى النواحى الدينية ، وكان النقباء الذين اختارهم وفد يثرب فى العقبة ممثلين للرسول سياسياً ، فهم حكومة تعمل نيابة عن رسول الله أثناء غيابه عن مقر حكمه .

وتوطيداً لدعائم الحكم الجديد فى يثرب ، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين فى جميع المناطق والجهات للذهاب إلى مقر الدولة الجديدة فى يثرب وجعل النبى الهجرة أساساً لنيل حق الرعوية لهذه الدولة اليثربية ، واستمر هذا الشرط موجوداً إلى فتح مكة سنة ٨ هجرية حتى انتهى شرط الهجرة وبقيت اختيارية ، وقد حرض القرآن الكريم المسلمين فى جميع المناطق العربية على الهجرة (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)[١] .

(ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرا وسعة)[٢] .

وجعل القرآن هو الدستور لهذه الأمة ، المؤمنين المهاجرين غير تابعين لهذه

(١) سورة النساء : ٩٧
(٢) سورة النساء : ١٠٠

الدولة إلا الذين هاجروا (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا) (١).

وبعد أن اطمأن الرسول إلى استقرار أصحابه في موطنهم الجديد ودبر أمره، ونظم الخطة الجديدة التي سيسير عليها، هاجر ومعه صديقه ووزيره أبو بكر هجرة بشرية عادية مخططة منظمة تعليمية، فيها من الدقة والإحكام ومن العظات والعبر ما يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس عباقرة وعظماء الساسة والمفكرين.

ولقد كان في الإمكان أن ينتقل الرسول من مكة إلى المدينة بمعجزة خارقة دون عناء أو مشقة، كأن ينتقل بالبراق مثلا كما انتقل قبل ذلك من مكة إلى بيت المقدس في بلاد الشام، لكن الله تعالى أراد أن يضيف إلى عبقرية محمد الإنسانية أدلة أخرى لإثبات هذه العبقرية.

---

(١) الأنفال : ٧٢

الدولة فى المدينة قبل الإسلام وبعده

ويشتمل على :

١ — التنظيم الداخلى فى المدينة والعلاقة بين السكان .

٢ — الدولة الإسلامية فى المدينة وميثاق تنظيم العلاقات .

٣ — الصراع بين المسلمين واليهود .

٤ — موقف الرسول من عرب الجزيرة .

٥ — التنظيم الإدارى للدولة فى عهد النبى الحاكم .

٦ — سياسة الرسول فى تبليغ الدعوة وأثرها فى توطيد سلطان الدولة .

يثرب قبل الإسلام :

تقع يثرب على بعد حوالى ٣٠٠ ميل (ثلاثمائة ميلا) من مكة وهى فى الشمال منها . والتاريخ القديم ليثرب مجهول فلا توجد مدونات يمكن الرجوع إليها ، ولا أبحاث أثرية يمكن الاستفادة منها، وإن كانت قد حدثت حفريات جرت بغير قصد البحث العلمى إلا أنها كشفت عن أشياء يمكن أن يستدل منها على أن المدينة الحالية قائمة على أنقاض مدينة أخرى[1] .

وللإخباريين كعادتهم آراء فى الأسم . قالوا : إنها سميت يثرب نسبة إلى يثرب ابن قاين بن إدم بن عبيل بن عوص بن إدم بن سام بن نوح - وكان أول من نزلها فسميت بإسمه ، وقالوا بل قيل لها يثرب من التثريب - وزعموا أن الرسول لما نزلها كره أن يدعوها يثرب كراهية للتثريب فدعاها طيبه وطابه[2] .

وتاريخ المدينة الذى يمكن الإعتماد عليه هو تاريخها منذ القرن الذى سبق الهجرة النبوية ، أى منذ بداية القرن السادس الميلادى ، لأن هذه الفترة لم تكن بعيدة وآثارها عن الهجرة وما ترتب عليها من أحداث كبيرة غيرت مجرى التاريخ العربى بل مجرى التاريخ العام .

والذى يهمنا هنا هو المدينة يثرب عند البعثة .

التنظيم الداخلى بالمدينة والعلاقة بين السكان

كان وضع يثرب يختلف إختلافاً كبيراً عن وضع مكة . فمكة دولة كاملة تتمتع بالنظام المستقر ويسودها جو من الهدوء والطمأنينة نتيجة لوحدة

(١) منزل الوحى ص ١٤٥ الدكتور محمد حسين هيكل .

(٢) مكة والمدينة ص ٢٩١ الأستاذ محمد إبراهيم شريف .

السكان فيها ونتيجة لاتفاقهم على خطة واحدة فى رعاية الكعبة والقيام على تنظيم أمور التجارة الداخلية والخارجية التى كانت أهم موارد الرزق عندهم .

أما مدينة يثرب : —

فإنه لم يتوفر لها هذه الظروف التى ساعدت مكة على النظام والإستقرار كذلك فالسكان فيها مختلفوا الجنسية ، منهم العرب ومنهم اليهود، وليست لهم غاية مشتركة يحرصون على الترابط بينهم من أجلها . فحياتهم تقوم على تملك الأرض الزراعية وإستثمارها فى مجتمع قبلى لا توجد فيه حكومة تقر القانون وتقهر الناس على إلتزام، ولم يكن هناك ضمان يحفظ الحقوق غير القوة الذاتية سواء عن طريق الأفراد أو الجماعات ، ولذلك نرى أن ما من شأنه أن يؤدى إلى الإستقرار هو فى ذاته عامل من عوامل التقلقل والنزاع ، فحياة الزراعة من طبيعتها أن تربط الناس بالأرض وتفرض الإستقرار ، ولكنها فى مثل هذا المجتمع القبلى كانت مثاراً للنزاع الدائم ، حيث سعى كل فريق لأن تكون فى يده أخصب البقاع وأغناها وقد كان هذا من أسباب الحروب بين العرب واليهود من جانب ، وبين القبيلتين الأوس والخزرج وهم عرب من جانب آخر .

ومع أن المكيين أكثرهم تجار ولم يكن مجتمعهم زراعياً حتى يرى الناس هناك أرضاً تلتصق حياتهم بها إلا أنهم كتجار والتاجر يحب الهدوء ويرغب فى السلام ويسعى إلى حسن العلاقة مع غيره ليقوم على تجارته فى جو من الأمن والسلام ، ولرغبتهم أيضاً فى أن يظلوا سدنة البيت وحماته ؛ فإن مدينتهم مكة حظيت بنوع من التماسك والنظام خصوصاً بعد أن استقرت قريش فى مكة وأجلت خزاعة عنها .

أما مجتمع المدينة : فقد انقسم إلى معسكرين متعاديين دائماً ، يترقب كل

فريق الفرصة لقهر الآخر والحصول عن ما في يده، على أن كلا من المعسكرين لم يسلم من النزاع الداخلي لنفس هذه الغاية، ولم يربط بين الوحدات في المعسكر الواحد إلا ما كان يربطها من تقاليد العصبية القبلية والشعور بأن الفرد وحده عاجز عن حماية نفسه ضد الآخرين، وحتى رابطة الدم نفسها فشلت في أن تكون رباطاً يؤلف بين الناس، ومن هذا أصبح القتل وسفك الدم شيئاً مألوفاً، وساد المدينة في كثير من الأحوال جو من عدم الأمن جعل الحياة فيها أمراً عسيراً، ولم تكن البطون اليثربية تتميز عن حياة القبائل البدوية في الجزيرة العربية إلا بالإستقرار الذى فرضته عليها الحياة الزراعية.

فقد كانت الحياة القبلية تفرض نفسها بصورة واضحة في يثرب، بل إن اليهود الذين كانوا قد وصلوا في وطنهم الأصلي إلى درجة من المدنية، وانمحى من بينهم نظام القبائل وانصهروا في أمة واحدة، ما لبثوا في المدينة أن زالت منهم هذه الصفات وتغلبت عليهم العقلية البدوية، حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم[1].

كان العرب في وقت الهجرة النبوية أرباب الكلمة العليا في يثرب وبيدهم توجيه الأمور بها، وجموع العرب بالمدينة ما عدا بعض العشائر[2] الصغيرة تنتسب إلى قبيلتين كبيرتين هما (الأوس والخزرج) وليس يعنينا معرفة أصل هاتين القبيلتين وهل الأوس والخزرج أخوان أم لا. ولكن كانت كل قبيلة من هاتين القبيلتين تنقسم إلى خمسة أبطن كبرى إنقسمت بدورها إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر، حتى بلغت البطون المعروفة من القبيلتين أكثر من أربعين بطناً عدا من يعايشها من عشائر عربية أخرى.

---

(١) مكة والمدينة ص ٣١٩

(٢) مكة والمدينة ص ٣٠٩

إتصلت بها برابطة الولاء[١] .

وليس يعنينا أيضاً أن نثبت سبب قدوم الأوس والخزرج إلى يثرب ولا كيف ولا متى وصلوا .

كل ما يهمنا أن نثبته أنه كان هناك شبه توازن فى نظام الحكم بين البطون الكبيرة فى يثرب . فكانت البطون تثور إذا ما هم بطن بالإستئثار والنفوذ[٢] .

وقد حكم العلاقات بين السكان فى يثرب عاملان : عامل الروابط القبلية وعامل الحياة الاقتصادية ، وقد امتزج العاملان معاً بحكم الضرورة — ولكن العامل الاقتصادى كان أقوى وأظهر فى توجيه هذه العلاقات .

ويرى كثير من المؤرخين أن اليهود كانوا أقدم عهد بيثرب من الأوس والخزرج ، وقد انفردوا بشئونها فترة من الزمن . ولم يكن يساكنهم إلا بطون عربية صغيرة لم تكن على جانب من القوة فعاشت موالية لليهود .

ولما قدم عليهم الأوس والخزرج ساكنوهم وحالفوهم . ثم ما لبثوا أن تغلبوا عليهم ، ونقلوا السلطة إلى أيديهم ، ولكنهم ما كادوا يتغلبون على اليهود حتى دخلوا فى دور من الصراع بينهم . صراعاً شارك فيه كل سكان يثرب[٣] .

ولابد لنا لكي نفهم المجتمع اليثربى فهماً كاملا أن نعرض العلاقات بين اليهود أنفسهم ثم بينهم وبين الأوس والخزرج . ثم العلاقة بين الأوس والخزرج أنفسهم ، لأن معرفة هذا الوضع سيوضح أهمية المدينة وظروف

---

(١) مكة والمدينة ص ٣٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٣٢١ ، ٣٢٢

(٣) المرجع السابق

إختيارها بالذات لتكون عاصمة للدولة الإسلامية ، وأهمية الصراع الداخلى فيها ، وعلاقته بإعتناق الإسلام ، وتأسيس الدولة .

أولا اليهود : —

كان اليهود فى يثرب جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع منتشرة فى أماكن كثيرة من منطقة يثرب ، والطرق المؤدية إلى الشام ، وكان فى يثرب بالذات أكبر ثلاث قبائل يهودية فى هذه المنطقة وهى قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، وإلى جانب هذه القبائل الثلاث كانت توجد بطون ، وعشائر يهودية متفرقة وقد ذكر الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف(١) نقلا عن السمهودى أنها كانت أكثر من عشرين بطنا ، وقد ذكر أيضاً أن عدد رجال القبائل اليهودية غير هذه البطون ربما بلغ أكثر من ألفين من البالغين .

وقد عاشت قبائل اليهود الثلاثة الكبرى فى مساكنها عيشة التكتل والأحياء الخاصة ، بينما عاشت البطون الصغيرة منتشرة إلى جوارهم أو إلى جوار البطون العربية فى يثرب ، وكان لهم حصونهم ، وقلاعهم ، وقراهم المحصنة . وكانت هذه وسيلة لتوطيد مركز اليهود وإقراراً لهيبتهم فى نفوس العرب . كما كانت دليلا على ما كانوا عليه من قوة ، فقد كانت من القوة والمناعة حيث ظنوا أنها مانعتهم ممن يريدهم ، وظن العرب ذلك ، فقد ذكر الأستاذ شريف نقلا عن السمهودى أيضاً أن آطام (حصون) اليهود فى يثرب كانت تسعة وخمسين إطما(٢) . وقد اختلف المؤرخون فى جنسية يهود يثرب أهم عرب تهودوا أم هم إسرائيليون ؟

---

(١) مكة والمدينة ص ٢٩٤

(٢) المرجع السابق ص ٣٠١

ولكنى أرى أنهم كانوا إسرائيليين لأن أخلاقهم وتقاليدهم واتجاه أفكارهم وعملهم ، تجعلنا نحكم عليهم بقربهم إلى العنصر اليهودى منهم إلى العنصر العربى . فالخطاب دائماً كان يوجه إليهم من القرآن (بنى اسرائيل) كذلك هم يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار ، ولا يميلون إلى إرغام الأمم على اعتناق دينهم ، ولهذا ظلت البطون العربية الصغيرة بجوارهم محتفظة بأديان آبائها القديمة ولم تعتنق اليهودية ، على الرغم من أنها عاشت زمناً طويلا مع اليهود ، وهم أصحاب الثروة والنفوذ فى يثرب ، على خلاف النصارى الذين عرف نسبهم العربى فكانوا يفخرون به ، زيادة على ذلك فإن النسابين للعرب لم يذكروا إحدى قبائل اليهود فى المدينة أو غيرها من أقاليم الحجاز ضمن الأنساب العربية . كما أن اليهود لم يحاولوا نسبة أنفسهم إلى قبائل العرب .

ولهذا نرى بنى قينقاع وبنى النضير حين أخرجهم الرسول من المدينة لا يلتجئون إلى العرب ، ولم ينزلوا عليهم إستناداً إلى رابطة القربى . بل لم يجدوا من قبائل العرب من يقف إلا جانبهم بدافع العصبية حين حاربهم النبى ، وطرد بعضهم من المدينة ، وقضى على بعضهم الآخر . وإنما لجأوا إلى إخوانهم فى خيبر وتيماء ووادى القرى ثم رحلوا إلى الشام[1] .

ويختلف المؤرخون فى تاريخ وصول اليهود إلى يثرب ، وقد روينا فى صفحة ٣٠ من هذا الكتاب رواية عن ابن خلدون والسمهودى ، أنهم وصلوا إلى يثرب ،واستعمروها من أيام النبى موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر[2] .

---

(١) ص ٢٠٢ مكة والمدينة .

(٢) السمهودى ص ١٥٩ ج ١ وقد نقل صاحب كتاب مكة والمدينة (شريف) ص ٣٠٥ رواية أخرى بهذا المعنى .

ولكن يكاد المؤرخون يجمعون على أن اليهود أقدم من الأوس والخزرج فى المدينة ، وقد ذكرت هذه المصادر أنه كان مع اليهود بالمدينة بطون عربية من اليمن ومن سليم ومن غسان وقبائل عربية كبيرة كانت تعيش بجوار هذه الأماكن الخصيبة حالفها اليهود واتخذوا منها حماة تدافع عنهم كحلف يهود خيبر مع غطفان .

ولا تذكر المصادر شيئاً عن الصراع الذى حدث بين اليهود وبين القبائل العربية ، وهى بذلك تسكت عن تاريخ اليهود جملة ، ولا تتعرض لشيء من تاريخهم إلا ما كان منه مرتبطاً بالأحداث التى اتصلت بالمسلمين .

فقد كرههم العرب فأهملوا تاريخهم لموقفهم العدائى من الدعوة الإسلامية وكان اليهود من القوة بحيث كان الأوس والخزرج أنفسهم يخشونهم وذلك حيث أقاموا الحصون القوية والكثيرة الإحتماء بها ، وكانت هذه الحصون سبباً من أسباب طول الحصار الذى فرضه الرسول والمسلمون على يهود بنى النضير حتى طال الحصار إلى أكثر من عشرين يوماً ، مع أن المعارك فى أيام الرسول لم تكن تطول إلى هذا الحد ، كذلك فقد جهد المسلمون فى حصارهم ليهود خيبر بسبب حصونهم المنيعة وإستماتتهم فى الدفاع عنها ، لولا أن المسلمين صمموا على الوصول إلى نتيجة حاسمة معهم ، وكانت النتيجة إنتصار المسلمين .

أما عن علاقات اليهود بعضهم ببعض ، فإننا لا نجد مصادر مهمة تبين هذه العلاقات التى كانت ترتبط بين قبائلهم وبطونهم بعد وصولهم إلى يثرب واستقرارهم بها ، إلا أنه باعتمادنا على دراسة أحوالهم فى الفترة التى سبقت الهجرة مباشرة وفى عهدها ، يمكننا أن نستنتج هذه العلاقة .

ومما لا شك فيه أن اليهود حين قدموا إلى يثرب فى هجرات متتابعة نتيجة للظروف التى كانت تواجههم فى فلسطين (سواء كان قد سبقهم إلى

يثرب إخوان لهم فى زمن موسى كما روى بعض المؤرخين أو لم يكن فيها) ، فإنهم حين قدموا إلى يثرب ، ونظراً لأنهم طارئون على هذه الأرض غرباء عنها ، كان من مصلحتهم أن يكونوا على علاقات طيبة فيما بينهم ، وأن يعاون السابق منهم اللاحق بدافع الشعور بالعصبية الدينية أو المحنة المشتركة ، وكان من الضرورة أن يقووا أنفسهم حتى يستطيعوا حماية أنفسهم فى بيئتهم الجديدة . . .

ونستنتج أن أحداثاً قد وقعت بينهم وبين جيرانهم من البطون العربية النازلة فى يثرب ، مما جعلهم يتوسعون فى إقامة الحصون والآطام حتى يقوموا على مواجهة أى هجوم عليهم ، وظلوا مع هذا يعملون بإستثمار الأراضى الخصبة التى نزلوا فيها ، ونجحوا فى كلا الأمرين نجاحاً كبيراً فاستقروا ، وتجمعت فى أيديهم الثروة وعلا شأنهم حتى أصبحوا أصحاب الكلمة العليا فى يثرب ، إلا أنهم بعد هذا الإستقرار وهذا الغلب ، انحدروا إلى الروح القبلية ، وأخذت روح الإنفصالية والتنافس تظهر بين جماعاتهم فيما بعد .

ويقول أحد المؤرخين المحدثين [1] ، ويبدو أن أحداثاً وحروباً وقعت بين طوائفهم ، كان من نتيجتها ذلك التفكك الذى يبدو واضحاً بينهم حين وقع النزاع بينهم وبين الأوس والخزرج بعد ذلك ، فإنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا كلمتهم ويقفوا صفاً واحداً فى وجه خصومهم ، كما أنهم لم يحتفظوا بكيانهم فيما تلا ذلك من أحداث ، فتفرقت بطونهم ودخل بعضها فى محالفات مع الخزرج واشترك كل فريق فى القتال إلى جانب حلفائه ضد الفريق الآخر .

---

(١) الأستاذ أحمد إبراهيم شريف فى كتابه مكة والمدينة ص ٣٢٢

وأعتقد أن دخول بعض قبائل اليهود مع الخزرج ، وبعضهم الآخر مع الأوس في أحلاف ، واشتراكهم في المعارك التي دارت بين القبيلتين الكبيرتين ، إنما قصد به التفريق بينهما وليس لعداء بعضهم لبعض ، لأن العداء السافر بينهم لم يكن له معنى في نظري ، أما تصور بعض الكتاب أن دخول اليهود في محالفات مع الأوس والخزرج واشتراكهم في معاركهم بدافع حقدهم على بعضهم البعض حتى قالوا : إنهم كانوا في القتال أقسى على بني جنسهم من العرب ، وقالوا : إن بني النضير وقريظة قسوا على بني قينقاع وأثخنوا فيهم وفرقوا شملهم في حرب بعاث بين الأوس والخزرج ، إلا أني أستبعد أن يكون ما حدث بسبب الحقد الموجود بينهما ، ولقد نقل صاحب مكة والمدينة عن صاحب الأغاني إستنتاجه وقوع أحداث بين بني قينقاع وبني النضير وقريظة جعلتهم يتركون أرضهم وزرعهم ويقتصرون على الصناعة ، فإنهم حين أجلاهم النبي عن المدينة لم يكن لهم بها أرض ولا مزارع[1] .

ولعل ما تفيده آية البقرة[2] ، دليل على أنه لم يكن بينهم هذا العداء السافر ، وأن إشتراكهم في هذه المعارك كان لإذكاء روح الخلاف وإستمراره بين الأوس والخزرج حيث كان كل فريق منهم (اليهود) يساعد في إفتداء أسرى الفريق الآخر :

(وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم) .

ونشك في أن يرغب بطن كبير مثل بني قينقاع عن الأعمال الزراعية كلية ، وإن كنا لا ننكر أنهم كانوا يشتغلون بالتجارة وكان بعضهم صياغاً .

---

(١) الأستاذ أحمد إبراهيم شريف في كتابه مكة والمدينة ص ٣٢٢
(٢) آية ٨٥

المهم أن قبائل اليهود بعد الهجرة وبطونهم كانت فى حالة واضحة من التفكك وكان إحساسهم بالترابط منعدماً، ولهذا: لم يبد أى بطن من بطونهم أى بادرة تعاون مع الآخرين حينما وقعوا فى خلاف مع النبى ، ورأيى أن ذلك لم يكن بسبب حقدهم على بعضهم كما يرى بعض الكتاب، ولكن لانشغال بعضهم عن بعض بأعمالهم وتأثرهم بالنظام القبلى الموجود فى الجزيرة العربية ، وإذا كانوا لم يتضامنوا مع بعضهم تضامناً ظاهراً حينما وقعوا فى خلاف مع النبى فإن ذلك بسبب أنانيتهم وخوفهم على مصالحهم ، خصوصاً بعد أن أصبح مركز الرسول فى المدينة قوياً واضحاً ، كما أنه مما لا شك فيه أنهم كانوا يتمنون الانتصار على النبى وكانت قلوبهم مع إخوانهم .

ولقد استفادت الدولة الإسلامية والمسلمون من هذا التفكك ، ومن عدم وجود علاقات تعاون فيما بينهم ؛ مما مكن للدعوة الإسلامية من أن تسير قدماً إلى الأمام .

ثانيا : الأعراب :

قلنا أن العرب فى وقت الهجرة النبوية كانوا هم أصحاب الكلمة العليا فى يثرب ، ولكنهم مع هذا كانوا على خلاف دائم فيما بينهم ، فالحروب بين القبيلتين الكبيرتين فيها مستعرة بينهما منذ أكثر من مائة عام ، فقد وقعت بينهم حروب كثيرة (كحرب سمير وحرب كعب بن عمر المازنى ويوم السيارة ويوم الفجار الأول والثانى ، وحرب الحصين بن الأسلت ، وحرب حاطب بن قيس ، ثم آخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات)[1] .

ونحن لانحب أن ندخل فى تفاصيل هذه الحروب ولا أسبابها ، ولكن

---

(١) السمهودى ص ١٥٢ ج ١

وكما قلنا كانت الأرض الزراعية والمجتمع القبلى الذى لا يوجد فيه حكومة عامة تقر القانون وتقهر الناس على إلتزامه ، وتطلّع كل فريق بأن تكون فى يده أخصب البقاع وأغناها ، كان سبباً من أسباب تدهور العلاقات دائماً بين كل سكان المدينة خصوصاً بين الأوس والخزرج فى فترة ما قبل الهجرة .

وقد كانت هذه الحروب والخلافات من أهم الأسباب التى شجعت على إعتناق الأوس والخزرج للإسلام .

وقد كان وجود اليهود فى قلب يثرب سبباً من الأسباب المهمة فى تشجيع عوامل الفرقة ، وإذكاء روح التحاسد والعداوة بين الأوس والخزرج حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم ، وقد أدرك العرب ذلك منهم ولقبوهم بالثعالب[1] ، وقد ظل عامل التفريق سلاحاً فى يد اليهود حتى بعد إتحاد الأوس والخزرج ودخولهم الإسلام وإنتقال الرسول للمدينة ، فقد حاول شاس بن قيس اليهودى وكان شيخاً شديد الحقد على المسلمين أن يوقع بين الأوس والخزرج ، حيث مر على نفر من أصحاب الرسول من الأوس والخزرج وهم فى مجلس يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا معهم إذا إجتمع ملؤهم بها من قرار .

وأمر فتى شاباً من اليهود كان معه ، وقال له : (أعمد إليهم فاجلس إليهم ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله وانشدهم بعض ما كانوا تقولوا فيه من الأشعار ، ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين وقال بعضهم للبعض ، إن شئتم عدنا لمثلها ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدارك الموقف لقامت معركة طاحنة بينهم فما زال

---

(١) مكة والمدينة ص ٣٣٨

الرسول بهم حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضا واستغفروا الله جميعاً[١] .

ويمكن أن نقول إن وجود اليهود فى المدينة هو السبب فى تحطيم أى محاولة للإتحاد أو التفاهم بين القبيلتين العربيتين .

ثالثا : العلاقة بين العرب واليهود :

بدأت العلاقة بين الأوس والخزرج وبين اليهود ، علاقة سلم وجوار وكانت الثروة والسلطان فى أيدى اليهود ومواليهم من البطون العربية ، وعاش الأوس والخزرج بجوارهم فى جهد وضيق وعمل بعضهم مأجوراً لمزارع اليهود فأقاموا على ذلك مدة طويلة يسودهم الوفاق والوئام ، وظلوا على هذا فترة من الزمان ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم بعضا ويمتنعون به من سواهم ، فتعاقدوا . وتحالفوا ، واشتركوا ، وتعاملوا ، وظلوا على ذلك زماناً طويلا حتى صار للأوس والخزرج مال وعدد .

وخافت قريظة والنضير منهم وخشوا أن يغلبوهم على دورهم وأموالهم فانتصروا لهم حتى قطعوا الحلف الذى كان بينهم ؛ وكانت قريظة والنضير أعدّ وأكثر، فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم خائفين أن تجليهم يهود حتى لمع من بينهم مالك بن العجلان من بنى سالم بن عوف بن الخزرج ، وسوّده الحيان (الأوس والخزرج) عليهما[٢] .

ويرى بعض المؤرخين[٣] أن اليهود أخذت تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم، فرأى مالك بن العجلان أن يتجه إلى الغساسنة وهم أبناء عمومة

---

(١) راجع القصة ص ٥٥٥ ابن هشام — القسم الاول — حياة محمد (هيكل) ص ١٩٩

(٢) السمهودى بتصرف ص ١٢٥ ، ١٢٦ ج ١

(٣) الاصفهانى فى كتابه الاغانى جزء ١٩ ص ٥٦ ، ٩٧ طبعة مصر .

فضلا عن رابطة الخؤولة ، حيث كانت أم الأوس والخزرج (قيلة) من غسان كما يقرر النسابون ، وأرسل ملك غسان (أبو جبيلة) جيشاً عظيماً حتى وصل إلى المدينة ونزل (بذى حرض) وأرسل إلى أشراف بنى اسرائيل أن يأتوا إليه ، وجاءوا إليه بخواصهم وحشمهم . وأمر لهم بطعام حتى إجتمعوا فقتلهم عن آخرهم وقال للأوس والخزرج بعـــد أن أعطاهم ما وصلهم به : (إن لم تغلبوا على البلاد بعد قتل هؤلاء لأحرقنكم ثم رجع إلى الشام وصار الأوس والخزرج بعد هذه الحادثة أعز أهل المدينة[1] .

وقد إستطاع مالك بن العجلان بعد هذه الحادثة أن يكيد لليهود كيداً شبيهاً بهذا الكيد، ونجح فى القضاء على عدد منهم فذلوا وخافوا خوفاً شديداً واضطرت بطونهم الصغيرة إلى الدخول فى حلف مع جيرانهم من الأوس والخزرج ولم يبق إلا بنو النضير وقريظة ، ويبدو أنهم كانوا أصحاب قوة وحصونهم كانت منيعة فاعتمدوا عليها ولم يحالفوا وقتها أحداً منهم[2] .

إذا فإن يثرب كانت مدينة مزقت وحدتها الخلافات الداخلية وشتتت جهودها ، ولو لم يكن ذلك لكان من الممكن أن يكون لها شأن خطير فى الجاهلية ، ولكان من الممكن أن تكون منافساً خطيراً لمركز مكة . بل ربما كانت تغلبت عليها (كما حدث بعد الهجرة) .

ولكن بالرغم من هذا فقـــد كانت يثرب تملك من القوة الحربية ما تستطيع به أن تحمى نفسها ، وأن ترد عادية القبائل عنها ، وكان رجال يثرب مرهوبى القوة على جانب عظيم من الشجاعة وقوة البأس ، تشهد

---

(١) السمهودى ص ١٢٧ جزء ١ ، ابن خلدون جـ ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٩

(٢) الأغانى جـ ٣ ص ٢٤٠

بذلك مواقفهم فى معارك الإسلام ، ويشهد بذلك أيضاً تقدير قريش لبأسهم وخوف زعمائها منهم يوم بدر على الرغم من قلة عددهم ، فقد رجع إلى قريش (عمرو بن وهب الجمحي بعد أن أرسلوه ليستطلع أخبار المسلمين ويعرف عددهم فى بدر وقال لهم (يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلمظون تلمظ أفاعى)[1] ، وقد ذكرت بعض المصادر[2] ، محالفات بطون الأوس من قبائل سليم ومزينة الموجودة فى شرق يثرب وحالفت بطون الخزرج قبائل جهينة التى كانت تعيش فى غرب المدينة وأشجع التى كانت تعيش فى شمالها ، إلا أن هذه المحالفات كانت محالفات طارئة إقتضتها ظروف المصالح المشتركة .

ولهذا نرى بعض هذه القبائل التى حالفت الأوس والخزرج تخرج على هذا الحلف فى أيام الصراع بين مكة والمدينة بعد الهجرة ، فتشترك سليم وأشجع فى الهجوم على المدينة فى غزوة الأحزاب[3] ، إلا أنها بعد ذلك تعود فتشترك بكل قوتها إلى جانب يثرب عند فتح مكة ، وهى فى كلتا الحالتين كانت تجرى وراء مصالحها .

كل ما يمكن أن نقوله أن يثرب لم يكن لها محالفات واسعة مع القبائل البعيدة عن المدينة ، مما يدل على أن نشاطها كان محدوداً فى الجزيرة العربية وأنها كانت مشغولة بظروفها الداخلية وبنشاطها الزراعي ، فلم تتوسع فى نشاطها الخارجي[4] .

(١) مكة والمدينة ص ٣٤٩
(٢) الاغانى ج ١٥ ص ١٥٩
(٣) مكة والمدينة ص ٣٥٠
(٤) المرجع السابق ص ٣٥١

الدولة الاسلامية في المدينة

لقد كان لاستتباب الأمن بعد هجرة الرسول ﷺ واستقرار الإسلام وانتشاره في يثرب ، وتوفيق الرسول ﷺ في قيادة وتنظيم الدولة الاسلامية عدة أسباب :

أولا :

وجود اليهود فيها وقد هيئوا الناس لفكرة الديانة السماوية وفاخروا الأوس والخزرج بدينهم وكتابهم وعيروهم بوثنيتهم، وهددوهم كما قلنا بظهور نبي جديد يحطم الأصنام ، فينضمون إليه ويقتلونهم قتل عاد ، وإرم وحين دعى الأوس والخزرج إلى الاسلام كانوا أكثر استعداداً لتقبله وفهماً لمعناه من وثنيّ مكة وأحرص على أن يسبقوا إليه .

ثانيا :

كذلك فإن الأوس والخزرج كانوا في هذا الوقت أصحاب الكلمة العليا وتحالف النبي معهم ورياسته لهم سيجعلهم سادة الموقف بيثرب ويصبح اليهود موالى لهم ، وقد استطاع النبي ﷺ أن يضم اليهود إلى الجماعة الجديدة ثم استطاع حين ظهرت خيانتهم أن يخرجهم من المدينة حين أصبحوا خطراً على الدولة الناشئة .

ثالثا :

كان أصحاب الكلمة النافذة في يثرب والذى كان من الممكن أن تقف مطامعهم الشخصية في وجه هذا النظام الجديد ، قد مات أكثرهم في موقعة بعاث بين

الأوس والخزرج وبعد الهجرة لم يبق إلا الرؤساء الثانويون ، وكان هؤلاء أميل إلى الطاعة أو كانوا على أي حال أسهل قياداً[١] .

كما أن خوف الأوس أن يسبقها الخزرج إلى الاسلام ، وخوف الخزرج من أن يسبقها الأوس ، شجع على اعتناق الاثنين للإسلام فكانوا يتسابقون إلى اعتناق هذا الدين حتى قبل أن يصل الرسول إلى المدينة .

يزاد على هذا عدم خوف أهل المدينة من ضياع أي شيء أو فقدانه بسبب اعتناقهم للإسلام ، بل على العكس وجدوا في الاسلام سبباً من أسباب عزتهم ومنعتهم ، فهم زراع ولامناصب يخافون ضياعها بل لعلهم وجدوا الأمل الذي كانوا ينشدونه .

يقول (سير توماس أرنولد)[٢] ، وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية في القرون الوسطى قد آثرت أجنبياً ليقبض على زمام الأمور في مدنهم حفظاً للتوازن بين قوى الأحزاب المتنافسة ومنعاً للصراع الداخلي الذي كان مفسداً للتجارة والشئون العامة ، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبي نظرة تنطوي على شيء من الريبة ، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسليم زمام هذه السلطة ، بل على العكس من ذلك نرى من أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الاسلام قد بدأ بالطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجا لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها ، وذلك لوجدوه في الاسلام من تنظيم محكم للحياة وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية .

---

(١) مكة والمدينة ص ٣٨٢

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٢ .

ولقد نشأت الدولة الاسلامية فى المدينة والمسلمون يومئذ من الصحابة لا يزيد عددهم على بضع مئات بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الأنصار ومع هذا فقد أخذت الدولة الاسلامية فى النمو والاضطراد .

وقد بدأ بعد الهجرة دور جديد من أدوار حياة محمد ﷺ لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل ، دور سياسى أدى فيه الرسول ﷺ من المهارة والمقدرة والحنكة ما جعل الانسان يقف مدهوشاً ثم يطأطىء الرأس إجلالاً وإكباراً وكان أكبر همه أن يصل بيثرب موطنه الجديد إلى وحدة سياسية ونظامية لم تكن معروفة من قبل فى سائر أنحاء الحجاز وإن كانت قد عرفت إلى ما قبل ذلك بكثير ببلاد اليمن، وكان الرسول ﷺ يستعين بوزيريه أبى بكر وعمر[١] ويتشاور معهما .

وقد جعل الرسول ﷺ أول همه بعد تسلمه زمام السلطة رسمياً فى المدينة عمل تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم للقضاء على كل شبهة فى أن تثور العداوة القديمة بينهم ، أول عمل بدأ به فى التنظيم الداخلى للدولة الاسلامية ، وحتى يسد باب الفتن لئلا تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل الهجرة آخى بين المهاجرين والأنصار ، وتقبل ذلك الأنصار عن طيب نفس ، وجعل الرسول لهذا الاخاء حكم الدم والنسب فازدادت لهذا وحدة المسلمين توكيداً ، وهذه حكمة سياسية تدل على سلامة تقدير الرسول ﷺ وبعد نظره خصوصاً إذا عرفنا ما كان من محاولات اليهود والمنافقين للوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين وبين المهاجرين والأنصار لافساد أمرهم[٢] .

ولقد كان التوارث بين المتآخين فى هذا الوقت عنصراً مهماً جداً ،

---

(١) حياة محمد : ١٨٨

(٢) نفس المرجع : ١٨٩

خصوصاً في الفترة الأولى من حياة الدولة فى المدينة، وذلك حتى تطرح العصبية والقبلية بعيداً، وحتى لا يكون هناك أقوى من علاقة الدين والأخوة الإسلامية.

يقول: أرنولد (ولقد كان هذا النظام لازماً حينما كان عدد المسلمين قليلا وكانت حياة التضامن ظاهرة جديدة، كذلك فإن الفترة التى قضاها النبى ﷺ فى المدينة قبل المؤاخاة كانت فترة قصيرة جداً قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية فى النظام الاجتماعى أمراً ليس من العسير تحقيقه من الناحية العملية، ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجرى مكة وتقيم فى مدينة تضمر لهم العداء، إلا أن يؤدى هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين[1].

وقد ألغى هذا التوارث بعد غزوة بدر أى بعد عامين من الهجرة، حين لم يعد هذا الرباط (المؤقت) ضروريا لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول ورعايا دولة الإسلام.

وقد وصل الرسول بهذا العمل إلى تحقيق وحدة يثرب، وإلى وضع نظام سياسى جديد لها، واتفق مع اليهود، وتحالف معهم على أساس متين من الحرية والتحالف وأراد أن يوثق صلته بهم فتحدث إلى رؤسائهم وتقرب إليه كبراؤهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة كأهل كتاب موحدين.[2]

وبرزت فى هذا الدور المدنى عبقرية النبى وظهرت المقدرة الفائقة فى التنظيم والاحتياط للمستقبل.

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ٥٣

(٢) حياة محمد (هيكل ١٨٩)

فمكة كانت فيها الدعوة إلى الدين ، وتبشير المسلمين بالنصر والغلبة فى النهاية وإمدادهم بالثبات والصبر واليقين .

أما هنا فى المدينة فلم يكن عليه أن يكتفى بتبليغ الوحى الذى يتنزل عليه فحسب ، بل كان عليه أن ينظم الحياة فى المدينة نفسها ؛ فلم يعد هناك مانع أو عائق يعوقه من ممارسة سلطانه بحرية كزعيم لجماعة سياسية ودولة لها كيانها واستقلالها ، وكان يدرك هذا الموقف من أول الأمر حتى قبل هجرته إلى المدينة ، وأخذ الرسول يعالج الأمور على هذا الأساس ويبنى الجبهة الداخلية بناءاً سليماً قوياً حتى يمكنه مواجهة الخطر الخارجى الذى يتوقعه ، خصوصاً بعد نجاحه كل هذا النجاح .

ولقد كانت هذه الدولة فذة فى تاريخ البشرية لأنها على الرغم من قيامها فى الأصل على أسس دينية ، إلا أنها أقرت مبدأين لاوجود لهما إلا فى دولة غير دينية .

الأول : حرية الأديان : وهى حرية لاتقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب بل أنها تتعهد برعايتها .

الثانى : هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة فى أوسع معانيها تسامحاً وإنسانية هو مبدأ يكفل المساواة فى الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم[1] .

مقـــر الحكم

ولقد رأى الرسول ﷺ من أول الأمر أن يتخذ مكاناً يكون ملتقى للجميع ، يباشرون فيه العبادة مع غيرها من ألوان المعاملات والاحتفالات

(١) مكة والمدينة ص ٣٨٤

فأنشأ المسجد وأسماه بيت الله ، وفى هـذا البيت كان المسلمون يلتقون للعبادة والتعلم والقضاء والبيع والشراء والاحتفالات ، ثم كثرت الأصوات حول المصلين فخصص مكاناً للتعليم وآخر للبيع .

وجعل للصلاة جانباً خاصاً بعيداً عن الضجيج أطلق عليه اسم المسجد وقد كان بيت الله عاملا كبيراً فى التوحيد والتقريب بينهم(١) .

وأرى أن جعل المسجد وهو بيت للعبادة مكانا تدار فيه شئون الدولة وتقام فيه الاحتفالات وغيرها ، أكبر دليل على أن المجتمع الإسلامى لا يفصل إطلاقا بين العبادات والمعاملات ولا يحجز بين الدين والدولة ، وقد كان هذا المسجد هو المقر الذى اتخذته الرئاسة الجديدة ، وكان كما قلنا مكاناً تبرم فيه كل الأمور ويتشاور فيه المسلمون فى شئونهم العامة من سلم وحرب واستقبال وفود وما إلى ذلك ، وكان الغرض من تأسيس المسجد ، دينياً لأداء الصلاة وسياسياً لإيجاد رابطة للجماعة الإسلامية .

وكان لابد أن يعمل الرسول ﷺ على إقامة الاستقرار بين الجماعة اليثربية والتى فشلت لحمة الدم فى أن تؤلف بينها ، فأحل محلها رابطة العقيدة وفكرة الدين المشترك ، وحرص على إزالة ما بين الأوس والخزرج من عـداء قديم وجمعهما فى اسم واحد هو الأنصار إبعاداً لروح العصبية وليذكرهم هذا الاسم الواحد بالتآلف لغرض أسمى وهو نصرة المبدأ الإسلامى ، ثم ألف كما قلنا بين هؤلاء وبين المهاجرين من أهل مكة بالإخاء .

ميثاق تنظيم العلاقات :

ولم يكتف بهذا بل وكأى دولة عظمى وضع النبى ميثاقا دائما (دستوراً)

---

(١) التاريخ الاسلامى ص ١٢٨ : ١٢٩ جـ ١ د. أحمد شلبى .

لتنظيم الحياة العامة فى المدينة وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها ، مما يدل على مقدرة فائقة للرسول من الناحية التشريعية ، وعلى علم كبير بأحوال الناس وفهم لظروفهم .

وقد عرف هذا الدستور (بالصحيفة)[1] .

وكتابة هذه الصحيفة فى هذا الوقت المبكر وبعد الهجرة بقليل دليل على أن الدولة الإسلامية كانت قائمة فعلا قبل الهجرة، وأن الرسول ﷺ كان يخطط لهذا التنظيم منذ فترة طويلة ، فالمعروف أن الدول لا تقوم على أساس دستور مكتوب ، وإنما تقوم الدول أولا ثم يتطور أمرها إلى وضع دستور، لكن النبى ﷺ ما كاد يستقر فى المدينة وما كاد العام الأول من هجرته ينتهى حتى كتب هذه الصحيفة[2] ، وقد جعل الرسول طرفها الأول المهاجرين والطرف الثانى الأنصار وهم (الأوس والخزرج) ، والطرف الثالث اليهود من أهل يثرب — فتعتبر هذه الصحيفة أهم ما يمكن أن يحدد لنا شكل الدولة الإسلامية وكذا معرفة وفهم الحوادث التى نشأت بعدها خصوصاً معرفة خروج اليهود على هذا الدستور ومعاقبتهم بسبب خروجهم عليه بعد التزامهم به ، والمتتبع لنصوص هذه الوثيقة السياسية الخطيرة التى وضعها الرسول منذ حوالى ألف وأربعمائة عام ، والتى تقرر حرية العقيدة ، وحرية الرأى ، وحرمة المدينة ، وحرمة الحياة ، وحرمة المال ، وتحريم الجريمة ، يجد فتحاً جديداً فى الحيـــاة السياسية والحياة المدنية لذلك العصر .

وإذا كان اليهود من بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع لم يشتركوا فى

(١) راجع نص الصحيفة — ابن هشام ص ٥٠٢ القسم الأول .

(٢) حياة محمد ص ١٩٢

توقيع هذه الوثيقة فإنه سرعان ماقبلوا هذا العهد[١] ، كذلك مالبثوا بعد قليل أن وقعوا بينهم وبين النبي محفاً مثلها[٢] .

وهم بهذه الصحيفة ملتزمون بنصوص مافيها ، فهى خطبة عرش أو سياسة حكومة أعلنها الحاكم محمد ﷺ على الشعب والتزم بها وألزم المواطنين جميعا بجميع مافيها ، وحدد موقفهم تجاه السياسة الداخلية والخارجية على السواء .

وقد انطوت هذه الصحيفة على كثير من المبادىء والقواعد الجديدة ، والتعابير والاصطلاحات التى لم تكن معروفة بين العرب من قبل[٣] .

١ ـ فالمسلمون أمة واحدة من دون الناس .

٢ ـ لاتغيير ولا تبديل فى الوضع الاجتماعى ، ولا مصادرة للأموال أو الأراضى فهى أقرت المهاجرين على حالهم وأقرت الأنصار على حالهم .

٣ ـ نظمت العلاقات بين المسلمين أنفسهم وحددتها ، فهم متضامنون متكافلون (لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله) .

٤ ـ الرسول ﷺ هو صاحب السلطة العليا وكل أمر يختلفون فيه يكون مرده إلى الرسول ليفصل فيه .

٥ ـ حددت العلاقات بين البطون اليهودية وبين العرب فى يثرب، واليهود يشتركون مع المؤمنين فى الإنفاق على مدينتهم ، وهم أمة لهم دينهم وللمسلمين دينهم ، قد أنشأت بينهم مودة وتحالفاً .

٦ ـ نصت الصحيفة على اشتراك المسلمين واليهود فى الدفاع عن يثرب إذا هوجمت ولا ينفرد فريق من الفريقين بعقد صلح إذا دعى إليه .

---

(١) راجع قصة الحضارة (ول ديورانت) ج٢ المجلد الرابع

(٢) حياة محمد ١٩٢

(٣) راجع نصوص الصحيفة بكتب السنة والسيرة .

٧ ـ المدينة دار أمان فمن خرج منها فهو آمن ومن بقى فيها فهو آمن إلا من ظلم وأثم .

والعجيب أننا لو حاولنا أن ننظر إلى هذه الوثيقة بمنظار هـذا العصر لوجدناها ، ميثاقا جمع من القواعد الـكلية منهاجاً يسع كل مشاكل العصر بصيغته وأشكاله المختلفة فى مجالات التقنين السياسى للشئون العالمية الخارجية والداخلية وبالمنهاج العلمى حين يصنف الإسلام الحقوق ويزنها[1] .

وقد تضمنت هذه المعاهدات حقوق الأقليات ، وحقوقها فى التمتع فى أداء شعائرها وواجبات دينها ، وكان فيها أروع المبادىء القانونية فى شئون الحياة الخاصة بالمجتمع الإسلامى ، وكذلك المتعلقة بالمجتمع الدولى ، فالمسلمون تحكمهم قوانين الإسلام وتعاليمه ، وهم كأمة واحدة تحكمها توجيهات الإسلام ، يجب أن تعمل على نصرة ومساواة الأقليات المقيمة والمتحالفة مع المسلمين ، فقد ورد فى المعـاهدة المذكورة (وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولامتناصر عليهم) وهم لايحمون المحاربين ولاالمنشقين على مجتمعاتهم فقد ورد فى المعاهـدة (وأنه لايحل لمؤمن آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولايأويه ، وأنه من نصره أو آواه فعليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة لايؤخذ منه صرف ولاعدل) كما تضمنت هذه الصحيفة أن العدوان بكل صوره على فئة من المسلمين عدوان على الأمة الإسلامية كلها ، تقول بهذا أول معاهدة إسلامية حيث تقول الصحيفة (وإن سلم المؤمنين واحد لايسالم مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم) .

وفى المعاهدة الإسلامية نص صريح على تأكيد السيادة الدولية لـكل أمة تتعامل مع المجتمع الإسلامى كذلك بعلاقة الأمم بعضها ببعض ، بل لو دققنا فى

(١) الاسلام والثورة الاجتماعية ص ٣٠٨ ـ صابر طعيمه .

نصوص المعاهدة لوجدنا أنها تضمنت محالفة واتفاقا عسكرياً بمقتضاه تتعاون الأمم المتحالفة فى حرب أعدائها ، فقد ورد فيها أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن على اليهود نفقتهم وأن بينهم النصر على من دهم يثرب (المدينة) .

وفى هذه الوثيقة أو المعاهدة أو الدستور كما أحب أن أسميها ، نصوص كثيرة تعتبر أساساً موضوعياً يتسع من وجوه كثيرة ليكون مناهج أمان لكل أشكال التعقيد الاجتماعى والسياسى التى عملت دورها فى التمهيد لصياغة عصرية مجموعة من القوانين الدولية العامة فالمعاهدة مثلا أوجبت التشاور والتناصح بين الطرفين قبل أن يدخل أحدهما الحرب، كما أنها حددت نوع العدو، وألزمت المعاهدة طرفيها بإجابة كل دعوة توجه لأحدهما إذا كانت تتعلق بالسلام فإن عليهما الالتزام معاً بالاستجابة لطلب السلام ، ففى نص الصحيفة (وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين ذلك)[١] .

القرآن أساس التشريع فى صحيفة النبى

وقد راجع الأستاذ أحمد ابراهيم شريف فى كتابه (مكة والمدينة[٢]) ، نصوص الصحيفة على القرآن الكريم فوجدها توافق القرآن فى المبادىء العامة، فمن حيث اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس (كنتم خير أمة أخرجت للناس)[٣] ، (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم [٤]

---

(١) الاسلام والثورة الاجتماعية بتصرف ص ٣٠٩ - ٣١٠

(٢) ص ٢٩٤

(٣) آل عمران : ١١٠ .

(٤) الأنفال : ٧٢ - ٧٥

ومن حيث التراحم والتعاون بينهم ومعاونة بعضهم فيما يفدح بعضهم ويثقل كاهله (يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل)[١].

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين .. إلخ)[٢] ، ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء ومايترتب عليها من حقوق الموالاة (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون)[٣] ، ومن حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار...)[٤] كذلك تحديد المسئولية الشخصية (ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه)[٥] والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)[٦].

كذلك وافقت الصحيفة القرآن فى وجوب الخضوع للقانون برد الأمر إلى الدولة بأجهزتها للتصرف فى الأمور (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم ...) [٧].

وفى شئون الحرب والسلم وأن حرب الأفراد وسلمهم إنما تدخل فى الاختصاص العام فلا تحدث فرديا (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة)[٨] (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله)[٩] ، كذلك معاونة الدولة فى إقرار النظام والأخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث أو إيوائه (ولاتزر

---

(١) البقرة : ٢١٥
(٢) التوبة : ٦٠
(٣) النساء : ٣٣
(٤) النساء : ٢٥
(٥) النساء . ١١١
(٦) الأعراف : ١٩٦
(٧) النساء : ٥٩
(٨) البقرة ٢٠٨
(٩) الأنفال : ٦١

وازرة وزر أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى)[١] .

ويلاحظ أن الصحيفة ذكرت البطون الخمسة الكبرى للخزرج وهم بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحرث وبنو جشم وبنو النجار، ولم تذكر من بطون الأوس الكبرى إلا بطنين هما : بنو عمر بن عوف وبنو النبيت ، ثم أدمجت باقى البطون الأوسية الأخرى تحت اسم واحد وهو بنو الأوس، وذلك لما كان عليه الحال فعلا فى يثرب ، حيث دخلت بطون الخزرج كلها فى الإسلام ، وحتى من لم يكن مؤمنا فقد دخل فى الإسلام ظاهريا ، وأما بطون الأوس فلم يدخل منها فى الإسلام إلا : بنو عمرو بن عوف وهم أهل قباء ، وبنو النبيت. أما باقى البطون الأوسية فقد تأخر إسلامها فذكرتها الصحيفة مدمجة باسمها العام[٢] .

كما يلاحظ إهمال الصحيفة لذكر القبائل الكبرى من اليهود التى اعتزت بقوتها وبقيت محتفظة بشخصيتها ، ولم تذكر إلا اليهود الموالين للبطون العربية وذلك يتفق تماما مع ما كانت عليه الحالة السياسية فى يثرب ، إلا أن الصحيفة وضعت بنداً عاما لدخول اليهود فى الدولة ، احتمالا لما قد يحدث من دخول هذه القبائل فى النظام الجديد ، وقد ألحقت بالفعل بالدولة فى محالفات ملحقة كما قبلوا هذه الوثيقة بعد فترة وأقروا بما فيها كما قلنا[٣] .

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٨ .

(٢) مكة والمدينة ص ٢٩٤

(٣) تراجع نصوص الصحيفة بكتاب السيرة النبوية لابن هشام ص ٥٠٢ القسم الأول .

ولم يكن فى الإمكان أن تذوب القبائل والعشائر في الأمة الجديدة دفعة واحدة ، وإنما بقى التشكيل الاجتماعى القبلى كما هو ، إلا أن الإسلام أنكر نظرياً فكرة امتيازات المجتمع الوثنى فى العصر الجاهلى ، وكان نظام القبيلة بقوته الداخلية وأسلوبه فى معاملة الغرباء أمراً مفيداً بلا شك ولم يكن بالامكان نبذه أو الاستغناء عنه .

فالنظام القبلى يسهل عمليـة تجميع الناس والانضواء تحت رياسة رؤساء القبائل كقاعدة شعبية ، ورؤساء هذه القبائل ممثلون لهـا يتحدثون باسمهم ، ويوصلون أفكارهم وآراءهم إلى القمة ، ولهذا تُرك رؤساء القبائل كما هم ولم يحل محلهم موظفون دينيون ، والفرد لاينتمى إلى الأمة إلا عن طريق العشيرة والقبيلة ، وجاء فى الصحيفة أن تظل القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة كما هى .

وفيما يتصل بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها ، فقد بقيت على القبائل النفقات ذات الصبغة الخاصة ، كدفع الدية ، وفداء الأسرى ، حيث لم تكن قد وجدت خزينة للدولة بعد ، كذلك بقى حق (الاجارة) لم يقيد فلكل فرد الحق فى أن يجير شخصاً غريبا ، وهو بذلك يلزم الجماعة كلها ، ولكن استثنى من هذه ، إجارة قريش ومن نصرها ، فإن ذلك كان محرماً على كل المشتركين فى الصحيفة ، لكن ليس من حق القبيلة أن تأخذ ثأرها بنفسها لأن أول غاية للأمة هو منع نشوب حرب فى الداخل ، وإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء .

وهكذا رسمت الصحيفة التخطيط العام للأمة وكانت مهمة النبى السياسية بعد هذا تنحصر فى الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها .

ولا صلة بين يثرب وبين غيرها إلا عن طريق الاسلام ، ومن طريق الالتحاق بها والتبعية لها .

لهذا ولتقوية جبهة المدينة، اعتبرت الهجرة إليها أساساً للحصول على حق الرعوية للدولة الجديدة ، فعلى من يدخل فى الاسلام ويريد أن يكون مواطنا فى يثرب أن يهاجر إليها ، وقد نزل القرآن بنص صريح فى ذلك فقال : (والذين آمنوا من بعد ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق[1] .

وقد ظلت حكومة المدينة مقصورة على المدينة نفسها وعلى الريف التابع لها إلى عام فتح مكة (٨ هجرية) وظلت المدينة إلى هذا العام دولة من دول المدن كدولة مكة تماما ، وإن اختلف النظام فى كل منهما .

(١) سورة الأنفال : ٨٢ .

التنظيم الإدارى للدولة فى عهد النبى الحاكم

التزم المسلمون جميعاً ومعهم النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم كدستور ثابت ملزم باعتباره وحياً منزلا من السماء، وفصّل النبى صلى الله عليه وسلم التزامات الأمة بهذه الوثيقة التى عرفت باسم الصحيفة والتى لم يخرج مافيها عما فى القرآن الكريم ، وتعتبر شرحاً تفصيلياً لالتزامات الرعية تجاه الدولة .

وكانت سلطة النبى عليه السلام هى العليا فى تنفيذ ماجاء فى القرآن من أوامر وأحكام ، وفى حسم المسائل التى لم يرد ذكرها فى آياته .

ومع أن سلطة النبى صلى الله عليه وسلم كانت هى السلطة العليا ، فقد كان من السنة التى استنها أن يستشير كبار صحابته فى جميع الأمور الهامة ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الجماعة الاسلامية ، النبى والرسول ، والمشرع ، والحاكم ، والقاضى ، والقائد الأعلى ، ورئيس الإدارة الادارية كلها ؛ يقوم بتنظيم العلاقات الاجتماعية وصياغة القوانين والأحكام المستمدة من القرآن ، كما كان يعمل على تنفيذها ، وكان يجمع الجيوش وينظمها ويقودها بنفسه ، كما كان يقتنى الأراضى ويقوم على إدارتها[1] ، وقد اتخذ الرسول المسجد مقراً له يصرف فيه معظم الشئون والمهام ، وكان يستلزم هذا الأمر كتابة العقود والمراسلات فيه ، وكان يبعث الكتب إلى القبائل المختلفة كما كان يعقد

(١) الادارة العربية ص ٤٥

للمعاهدات وينفذها ويصدر الأوامر إلى الحكام وجباة الضرائب ، وكان يتم كل هذا فى المسجد حيث لم يشيد مقر آخر للحكم طوال حياة محمد ﷺ[١] .

ولقد كان النظام الدينى والسياسى يسيران جنباً إلى جنب لاينفصلان بل كان هذا النظام السياسى نفسه سبباً من أسباب انتشار الإسلام والإقبال عليه ، فقد عرف أن الإسلام ليس مجرد طقوس وشعائر دينية يؤديها الناس ، إنما هو نظام كامل للحياة ، وأن هذه الرسالة التى جاء بها محمد ﷺ هى انقلاب بكل ماتحمله تلك الكلمة من معانى ، ذلك أن دعوته الدينية لم تدخل تغييراً شاملا على النواحى السياسية فحسب ، بل كان لها نفس الأهمية أيضاً فى النواحى الاجتماعية والخلقية .

وحين يحاول الإنسان دراسة الأحوال السياسية والنظام الإسلامى المتكامل والتنظيم العجيب للدولة الإسلامية فى حياة الرسول ﷺ يجد أنها كانت تعتبر من الدول النادرة التى اكتملت فيها كل مقومات الدولة ونظمها السياسية بجميع أشكالها .

وقد يتصور بعض الناس أن الرسول ﷺ والذى كان صاحب السلطة العليا فى الدولة ويجمع فى يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية ، لظروف كان لابد أن تكون السلطة كلها فى يده وحده ، ربما تصوروه حاكما دكتاتوريا مستبداً يتصرف فى « الحكم » على هواه غير مقيد بأسس أو قواعد أو قوانين ؟

وهم حين يتصورون ذلك مخطئون وواهمون ، فالدولة ناشئة ولازالت فى

---

(١) المرجع السابق ٤٦ .

مرحلة البناء والتأسيس ، وقوانينها ليست قوانين مدنية من صنع البشر وإنما هى قوانين إلآهية وشرائع منزلة . وهو ليس مجرد حاكم لدولة ، إنما هو معلم للإنسانية كلها ، ومؤسس للنظام الجديد الذى لم يكن للعرب به سابق معرفة .

وهو وإن كانت له السيادة الكاملة فى حكمه للجماعة الإسلامية وكان فى هذه الجماعة كما قلنا النبى، والرسول، والمشرع ، والقائد، والحاكم ، والقاضى الأعلى، ورئيس الأداة الإدارية كلها والقائم بتنظيم العلاقات الاجتماعية وصياغة القوانين والأحكام المستمدة من القرآن والتى يعمل على تنفيذها .

إلا أنه كان ملتزما شأنه شأن المسلمين جميعاً بالقانون الذى هو القرآن الكريم باعتباره الوحى المنزل من عند الله والأصل لكل النظم التى تسير عليها الدولة ، وإن كانت سلطة النبى هى العليا فى تنفيذ ماجاء فى القرآن من أوامر وأحكام ، وفى حسم المسائل التى لم يرد ذكرها فى آياته .

لكنه باعتباره مؤسس الدولة الحديثة ، وباعتبار نبوته ورسالته ، وأقوال الرسول وأفعاله سنة يجب أن يحتذى بها وأن يسير الناس على هديها ، فقد رسم الرسول ﷺ الطريقة الصحيحة فى نظام الحكم الذى يجب أن يسير عليها المسلمون طالما كان للإسلام دولة تدعو باسمه وتحمى حماه .

ولذا نراه ﷺ يستشير كبار صحابته فى جميع الأمور الهامة ويشجع على أن يناقشه جميع الأفراد فى كل الأمور حتى ولو كانت من الأمور الهامة التى يتوقف عليها مصير الدولة نفسها ، وهو بهذا يضرب المثل الصحيح فى كيفية إدارة الدولة ، والاعتماد على الشورى ، وهى أسمى أنواع الديمقراطيات .

فقد استمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الحباب بن المنذر وهو

يعرض عليه أن ينزل فى مكان آخر غير الذى نزلوا فيه ببدر يكون أكثر ملاءمة للالتقاء مع العـــدو ، وقبل الرسول رأيه ونفذ الخطة التى أشار بها ، كذلك ظهرت الشورى واضحة جلية حين جمع أصحابه فى المسجد الذى كان مقراً للحكم تصرف فيه معظم الشئون والمهام الرسمية ، واستشارهم حين علم بتحرك قوات المشركين فى اتجاه المدينة لحرب المسلمين ، وانقسمت الآراء وافترقوا إلى فريقين ، فريق يرى الخروج إليهم وكان أكثرهم ومعظمهم من الشباب وفريق آخر رأى مارآه الرسول نفسه وهو أن يظلوا فى المدينة ليكون موقفهم عند الدفاع أقوى وأحصن وكان هذا رأى الشيوخ ، واستمع الرسول صلى الله عليه وسلم للجميع وأنصت إلى مناقشاتهم ووجهة نظر كل واحد منهم وفى النهاية وجد أن رأى الأغلبية مع الخروج ، وكان لابد تنفيذاً لما تقتضيه الشورى أن ينزل على رأى الأغلبية، حتى وإن كان رأيه فى جانب عدم الخروج ، ووافق على الخروج للمشركين فى أحد .

فالرسول يُقعِّد لقاعدة الشورى وقد سنَّها قبل أن يسنها التشريع الدستورى الحديث حين رأى أن يفصل فى هذا الموضوع بإيثار رأى الكثرة لأنه هو القاعدة التى يجب أن يرجع إليها عند الاختلاف فى الرأى .

ولم ينظر إلى رأيه فى هذا الاختلاف ، ولم يحاول أن يحمل عليه من خالفه فيه ، لأنه لو فعل ذلك لكان سنة لمن يأتى بعده من الرؤساء ، فحين رأى الكثرة فى جانب الذين يرون الخروج من المدينة اختار رأيهم باعتبارهم أغلبية ، على رأى غيرهم برغم مخالفة هذا لرأيه شخصياً .

ومع أن الحوادث قد أثبتت أن رأى الرسول ومن معه كان أرجح من رأى الكثرة ، إلا أنه كما قلنا مشرع أراد أن يجعلها شريعة وقاعدة لمن يأتى

بعده من الحكام فلا يتشبث رئيس برأيه عند الخلاف فى الرأى بل يؤثر عليه رأى الكثرة الغالبة ليستقيم أمر الحكم ويبعد عن أسباب الفتن ، حتى ولو كان رأى القلة أرجح من رأى الكثرة ، فمخالفة رأى الكثرة قد يكون أشد ضرراً على الأمة من مخالفة رأى القلة ، والإسلام يؤمن بقاعدة (اختيار أخف الضررين) .

وإن قيل إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يستشر أصحابه فى صلح الحديبية نقول : أنه عرف أن فى هذا الصلح السلامة والمصلحة للإسلام والمسلمين حتى وإن غاب هذا عن بعض أصحابه ، خصوصاً وأن مافعله الرسول كان إجراء قصد به حقن الدماء ، كما أنه امتثالا للأمر الإلهى والوحى السماوى ، فقد قال له عمر بعد كتابة الصلح وقبول شروط المشركين المجحفة (لم نقبل الدنية فى ديننا) فقال له الرسول (أنا عبدالله لن أخالف أمره ولن يضيعنى)[1] ، فكأن هذا أمراً من الله ووحياً من السماء .

ولقد رجع الرسول فيما كان قد اتفق عليه مع مفاوضى غطفان حين حوصرت المدينة فى غزوة الخندق ، من إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة نظير انسحابهم من جيش الأحزاب وعدم اشتراكهم مع القرشيين فى الحرب ضده وذلك حين عرض على بعض كبار الصحابة هذا الرأى فرفضوه ولم يوافقوا عليه ، وكان الرسول قد بعث إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وذكر لهما ما ينتويه واستشارهما ، إلا أنهما قالا له (يارسول الله ، أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟) ، قال : بل

---

(١) ابن هشام ص ٣١٧ القسم الثانى وفى زاد المعاد [إنى رسول الله وهو ناصرى ولن أعصيه] ص ١٣٥ ج ٢

شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم من قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

حينذاك وحين عرف سعد بن معاذ أن هذا رأى الرسول الخاص ولم ينزل به وحي من السماء رفضه مع أن الرسول كان قد كتب كتاب الصلح مع قائدين من قواد غطفان إلا أنه لم تقع الشهادة على الكتاب ولا وقع عليه النبي ، وكان ذلك بمفهوم عصرنا اتفاق مبدئي حتى يتم أخذ الموافقة النهائية عليه ، وقال سعد للرسول فى هذه المناسبة (يارسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لانعبد الله ولانعرفه وهم لايطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ، والله مالنا بهذا من حاجة ، والله لانعطيهم إلا السيوف حتى يحكم الله بيننا وبينهم) ورجع الرسول عن رأيه وتناول سعد ابن معاذ الصحيفة من رسول الله ومحى مافيها من الكتاب[1] .

وقد ضرب الرسول بذلك العمل المثل العملى فى تنفيذ نظام الشورى الذى يعتبر الأساس الأول فى قيام الدولة الإسلامية .

ولقد استشار الرسول أصحابه فى أسرى يوم بدر واستمع إلى رأى عمر وأبى بكر وغيرهما وأخذ بالرأى الأخير مع أنه لو تصرف وحده دون استشارة ما اعترض عليه أحد ولكنه كما قلنا مشرع ومعلم يضع الأسس ويقعد القواعد .

وقد اتخذ الرسول ﷺ المسجد النبوى مقراً له ولم يكن هذا المسجد كما قلنا خاصا بالصلاة وحدها وإنما كان النبى يصرف فيه معظم الشئون والمهام

---

(١) راجع ابن هشام ص٢٣٢ جـ ١ القسم الثانى .

المتعلقة بأمور الدولة فقد كان للاجتماعات العامة وللمشاورات فى أى أمر من الأمور ، وفى المسجد كان الرسول ﷺ يكتب للمراسلات ويبعث بالكتب إلى القبائل المختلفة ويعقد المعاهدات وينفذها ويصدر الأوامر إلى الحكام وجباة الضرائب ويستقبل فيه الوفود حتى وإن كانوا على غير دين الإسلام ، فقد استقبل فيه نصارى نجران وسمح لهم بإقامة الصلاة فى داخله[1] ، وعلى العموم فقد كان المسجد هو مقر الحكم ولم يشيد مقر آخر للحكم طوال حياة النبى[2] .

ولقد قلنا إن الرسول ﷺ كان رئيساً للدولة وهو فى نفس الوقت مشرعا باعتبار أنه رسول ، ولا يخفى أن للدول نظما مختلفة ، ففيها الملكى والجمهورى والمطلق والمقيد ، ولكل دولة قوانين تختلف عما للأخرى مما لا يحصره وصف ولكنها ترجع كلها إلى أمرين تشترك فيهما جميعاً وهما المال والجند لأنه لابد للدولة من الجندية والمالية ومامن دولة مهما كان نوع نظامها إلا وفيها الجند والمال ولا تقوم للدولة قائمة بدونهما بل ربما كانت الحاجة إليهما فى أوائل الدولة أشد مما بعدها[3] .

وكان المسلمون جميعاً فى عهد الرسول هم الجند ، والزكاة والضرائب المختلفة التى تقررت شيئاً فشيئاً كانت هى الموارد المالية التى كان يصرف منها على الدولة الإسلامية .

وقد قضت الحكمة الإلهية أن تكون دعائم الحكومة فى الإسلام غير

---

(١) زاد المعاد ص ٣٨ ج ٣

(٢) راجع الإدارة العربية ص ٤٤ ومابعدها .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى (جورجى زيدان) ص ١٢٢ ج ٣

مفصلة ، لأن تفصيلها مما يختلف باختلاف الأزمان والبيئات ، ولهذا لم يتحدد شكل الحكومة فى الإسلام بتفصيل .

وحين ننظر إلى آيات الكتاب الكريم وصحيح السنة نرى أن الحكومة الإسلامية حكومة دستورية وأن الأمر فيها ليس خاصاً بفرد وإنما هو للأمة كلها ممثلة فى أولى الحل والعقد ؛ حيث أمر الله المسلمين بالشورى وكان عمل الرسول كما رأينا مبنياً على التشاور وعدم الاستقلال بالأمور ، وكذلك كان الراشدين من بعده ، وهكذا كانت الدعائم للحكومة الإسلامية التى يمكن رجعها إلى الشورى ومسئولية أولى الأمر واسترداد الرئاسة العليا من البيعة العامة[1] .

ولقد أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقيم دولة كاملة بكل مقوماتها ؛ وأن ينظم الحياة العامة فى هذه الدولة تنظيما لازال المشرعون وأصحاب الفكر فى العالم كله يقفون أمامه مبهورين .

موظفون عموميون :

كان للنبى كتبة يقوم كل فى ناحية اختصاصه بكتابة ما كلف به من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد تولى مثلا على وعثمان رضى الله عنهما كتابة الوحى ، كما كان يقوم بذلك أيضاً أثناء غيابهما أبى بن كعب وزيد بن ثابت[2] ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلط يقومان بكتابة أموال الصدقات[3] ؛ وكان المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات

(١) السياسية الشرعية عبدالوهاب خلاف ص ٢٨

(٢) الإدارة العربية ص ٤٦

(٣) المرجع السابق ص ٤٧

والمعاملات بين الناس ، وكان حذيفة بن اليمان يعد تقديرات الدخل من النخيل ، وكان لدى عبدالله بن الأرقم والعلاء بن عتبة سجلات عن القبائل ومياهها ، وكذلك عن الأنصار ذكوراً وإناثاً[(١)] ، كذلك استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت لإعداد الكتب إلى الملوك والزعماء[(٢)] ، وكان زيد ترجمان الرسول للفارسية والرومية والقبطية والحبشية واليهودية[(٣)].

وكان الرسول ينتدب عبد الله بن الأرقم فى بعض الأحيان لإعـــداد الكتب إلى الملوك والزعماء بدلا من زيد ، كما أن شرحبيل بن حسنة كان يكتب التوقيعات إلى الملوك ، وكان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح على بن أبى طالب[(٤)] .

أما دخل الدولة من المغانم فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يكلف به معيقيب بن أبى فاطمة .

وكان يطلق على حنظلة بن الربيع اسم كاتب النبى ، ويقول الجهشيارى[(٥)] عن حنظلة بن الربيع ، أنه كان خليفة كل كاتب من كتاب النبى إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب ، فكان يضع عنده خاتمه .

وقد بلغ كُتّاب الرسول صلى الله عليه وسلم اثنين وأربعين رجلا[(٦)].

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الجهشيارى ص ١٢ ط القاهرة ١٠٣٨ (الوزراء والكتاب) .
(٣) الإدارة الإسلامية محمد كرد على ص ١٤
(٤) المرجع السابق ص ١٣
(٥) الوزراء والكتاب ص ١٣
(٦) الإدارة الإسلامية ص ١٢ (كرد على)

ولاية الدولة

وكأى دولة كان للدولة الاسلامية عاصمة وإدارات ومناطق أى (مقاطعات) تابعة للدولة، وكانت المدينة عاصمة هذه الدولة، وكانت إدارتها هى والمناطق المجاورة لها خاضعة لسلطة النبى مباشرة، وكان النبى صلى الله عليه وسلم أثناء خروجه لأى سبب من الأسباب وإبتعاده عن العاصمة يعين مكانه نائباً كحاكم مؤقت للمدينة حتى يعود، وقد تولى عبد الله بن أم مكتوم هذه المهمة أثناء غياب النبى (صلى الله عليه وسلم) فى معظم غزواته .

وكانت الدولة مقسمة إلى مقاطعات هى : المدينة وتيماء، والجند ومقاطعة بنى كنده، ومكة، ونجران اليمن، وحضرموت، وعمان، والبحرين، وقد نصب النبى (صلى الله عليه وسلم) على كل مقاطعة من هذه المقاطعات والياً أى (حاكماً) عهد إليه باقامة الحدود وإنفاذ الأحكام وتوطيد النظام وإعداد الترتيبات الخاصة بالقضاء .

الإحصاء

أراد النبى (صلى الله عليه وسلم) إحصاء المسلمين مرة فقال . أكتبوا لى من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبوا له ألف وخمسمائة رجل[1] .

أما عن بيت المال فلم يكن للرسول بيت مال خاص للأموال العامة وإنما كان يضع الأموال فى بيته وبيوت أصحابه، وغالباً ما كان يقسم الفىء فى نفس اليوم وكان يعطى الآهل (المتزوج) من الفىء حظين والأعزب حظاً واحداً[2] .

---

(١) الإدارة الإسلامية ص ١٩ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧ بتصرف .

أما عن القضـاء

فقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو أول من تولى القضـاء فى الدولة الإسلامية ثم تولاه خلفاؤه من بعـده لأن القضـاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة .

ولم يـكن للمسلمين فى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة قاض سـواء إذ كانت الأمة لا تزال على بساطتها وضيق رقعتهـا وإخلاص النـاس بالحق ، ويرى بعض المؤرخين أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعهد بالقضـاء إلى بعض الولاة ضمن ولايتهم أمور الولاية وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يعين فى أى بلد من البلاد رجلا إختص بالقضـاء بين المسلمين ، وإن كان الرسول فى بعض الحالات يعهد إلى أصحابه بفض بعض الخصومات[1] .

ويرى البعض الآخر أن أول من عين القضاة هو عمر بن الخطاب وإن تعيين القضاة حدث بعد أن اتسع سلطان الخلفاء وكثرت مهام مناصبهم ، الأمر الذى اضطرهم إلى إستنابة من يقوم عنهم بالقضاء بمركز الخلافة ، وفى الأعمال ، لأن القضـاء من المناصب الداخلة تحت الخـلافة ، ولهـذا كانوا قبل أن يضطر عمر إلى تعيين قضـاة يباشرونه بأنفسهم ويحملونه إلى من سواهم[2] .

لـكن مؤلف كتاب الإدارة العربية : يرى أنه كان هناك فصل بين المهام القضائية والتنفيذية حتى فى عهد النبى عليه السلام ويقول إن النبى

---

(١) حسن إبراهيم ص ٤٨٤ جـ ١ [التاريخ الإسلامى] .
(٢) التمدن الإسلامى : جورجى زيدان ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

(صلى الله عليه وسلم) كان يعين لكل ولاية قاضياً وكان هذا القاضى مستقلا من الوجهة العملية عن الوالى[1] .

ولقد ذكر الأستاذ / محمد كرد على فى كتابه (الإدارة الإسلامية فى عز العرب[2]) أن الرسول استعمل أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ووجه معه راشد بن عبد الله أميراً على القضاء والمظالم .

وأرى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خص بعض الولايات الإسلامية بقضاة متفرغين لهذا العمل ، لكن لم يكن هذا عاماً وفى كل الولايات ، فقد ثبت أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كلف معاذ بن جبل بالفصل بين الناس والقضاء بينهم مع تكليفه بجمع الصدقات وغيرها من الأمور السياسية ، وقد عرفنا أن الرسول أرسل معاذاً إلى اليمن على رأس وفد ليعلم أهلها الإسلام ويقيموا الصلاة ويجبوا الزكاة والصدقات ، وقد أوصاه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بوصايا ثم سأله كيف تحكم بين الناس إذا عرضت لك قضية فقال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال بسنة رسول الله ... إلخ .

وما أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى حتى كان قد أتم النظام الكامل الشامل لأى دولة إسلامية من بعده ؛ فقد وضع الأسس والقواعد والأصول لكل ما تحتاج إليه أى دولة من أمور تنظيمية وتشريعية ، سياسية وإجتماعية وعسكرية ودينية وخلافها .

ففى الحرب مثلا وضعت الأسس والقواعد التى تنظم هذه الحرب

---

(١) الإدارة العربية ص١٠٢ (مولوى س أ . ق حسينى) ترجمة الدكتور / ابراهيم العدوى .

(٢) ص ١٥ .

وأسبابها وأغراضها ونتيجتها، وقد تحدثنا بتفصيل فى باب الجهاد وأثبتنا أنها وإن كانت ضرورة إلا أن الإسلام آثر السلم على الحرب مع أمر المسلمين بالاستعداد التام لها لإرهاب العدو ولإقرار السلم .

ومع ذلك فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينظم الجيش تنظيما دقيقاً ويعقد الألوية ويبعث السرايا والبعوث بتخطيط وتنظيم لايقل إطلاقا عن أرقى الدول تقدما وحضارة[1] .

كذلك استحدث الرسول وسائل للحرب لم تعهدها الجزيرة العربية ، بل ثبت أن الرسول بعث البعوث للتدريب فى البلاد المتقدمة فى الفنون الحربية وصناعة آلاتها الحديثة ، وقد استعمل المنجنيق والدبابات والخنادق وهى أمور لم تكن تعرفها العرب من قبل[2] .

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أيضاً يكلف بعضاً من الصحابة باستنفار الناس للجهاد وقد بعث بشر بن سفيان الخزاعى مع بديل بن أم حزام إلى خزاعة لاستنفارهم إلى قتال أهل مكة[3] .

كذلك استعمل الرسول العسس وهم حراس الليل بالمدينة واتخذ المنادين ينادون الناس يأمرونهم بما ينفعهم أو يحذرونهم مما يضرهم .

كما حدث حين تحريم الخمر فإنه أرسل رجلا ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت ، وحين أرسل مناديا ينادى فى الناس بعد أن ضيقوا المنازل

---

(١) راجع ص ١٩١ ومابعدها من حقيقة الإسلام .
(٢) راجع ص ١٧٤ ومابعدها من المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ص ١٦١

وقطعوا الطريق فى بعض الغزوات يقول : إن من ضيق منزلا أو قطع طريقاً فلا جهاد له[١] .

وقد فرض الرسول لعتّاب بن أسيد ، الذى ولاه مكة درهما كل يوم ، فكان هذا الراتب أول ماوضع من الرواتب للعمال . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون نصيبهم من الغنائم وغيرها[٢] .

وحين تولى عتاب عمله قام يخطب ويقول (أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد[٣] .

أما قيس بن مالك الأرجبى فقد استعمله الرسول صلى الله عليه وسلم على قومه من همدان واقطعه من ذرة نيسار مئتى صاع ، ومن ذبيب خيوان مئتى صاع ، جار له ذلك ولعقبه من بعده أبداً[٤] .

وكان من عماله أيضاً أبو دجانة الساعدى وسباع عرفطة عاملاً على المدينة[٥] .

وعين الرسول أمراء للجند ، وعمال للغنائم والجزية والأعشار كذلك

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٦
(٢) حسن ابراهيم ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ ج ١
(٣) الإدارة الإسلامية ص ١٥
(٤) المرجع السابق
(٥) المرجع السابق وراجع أسماء أخرى لعمال الرسول (ابن هشام ص ٦٠٠ القسم الثانى .)

عين الرسول عتاب بن أسيد أميراً للحج مع إمارته على مكة وذلك بعد فتحها، وعين أبا بكر أميراً للحج سنة ٩ هجرية[١] .

وخلاصة القول أن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام الدولة الإسلامية ، ووضع لها الأصول العامة التى يقوم عليها البناء السليم لأى مجتمع إنسانى ؛ ولم يدع من هذه الأصول أصلا إلا جاء فى أعدل حال وأحكم وضع وأوضح بيان.

وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أرشدنا بمجرد إرشاد وأنار لنا الطريق لما يمكن أن يكون عليه النظام الداخلى والخارجى للدولة فإن هذا لم يكن تفصيلا لكل الجزئيات التى تدور فى حياة الناس ، وإنما هى كما نقول مجرد إرشادات فقط واستكمالا للنظام الذى يجب أن تكون عليه الدولة دون حصر ، فالجزئيات متعددة متجددة لاتقع تحت حصر ومن المحال أن يقوم فى الناس تشريع سماوى أو وضعى يفصل وقائع الحياة ويحصر مافيها من جزئيات ، ولو كان هذا ممكنا لماتت ملكات التفكير عند الناس ولأصبحوا دمى تحركهم نصوص جامدة خارجة عن إرادتهم ، مما يذهب بوجودهم ويفقدهم شخصيتهم فى الحياة ، وهذه ميزة من ميزات الشريعة الإسلامية فقد وضعت المعالم الواضحة للناس التى توضح الطريق إلى الحق والعدل والخير وتركتهم مع عقولهم يواجهون الحياة فى صحبة الدين (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين)[٢] .

« ولم يكن من الممكن أن يسبق المشرع الأحداث حدثا حدثا ويحدد أشكالها وأحجامها ، وقد قصدت الشريعة أن يكون ليد الناس تنظيم مجتمعهم

(١) حسن ابراهيم ص ٤٥٣ ج ١
(٢) سورة البلد ٨ ، ٩ ، ١٠

واستكمال أسباب حياته وإمداده بحاجاته إذا مادعت دواعيها ، وفى هذا مايضمن بقاء الطريق مفتوحا أمام الناس ليسعوا سعيهم فى الحياة وليكون لكل مجتهد نصيبه بقدر اجتهاده ولو كان من تدبير الشارع أن يرسم منهج الدولة الدائم وأن يضع لها جميع الخطط السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، لأطال الله فى عمر النبى صلى الله عليه وسلم حتى تبزغ جميع الأحداث والمشكلات التى ستتعرض لها حياة هذا المجتمع على امتداد أوطانه وأزمانه[1]

(١) الخلافة والإمامة (عبدالكريم الخطيب بتصرف ص ١٦٠ - ١٦٢ - ١٧٨ - ١٧٩).

سياسة الرسول فى اختيار الولاة ومراقبتهم

كان الرسول ﷺ يعين ولاة للمقاطعات التابعة للدولة الإسلامية وكان يعين إلى جانب الولاة عمالا على القبائل وعلى المدن ، (وكان على كل مدينة كبيرة أو قبيلة فى الحجاز واليمن عامل من قبله يقوم بإمامة المسلمين فى الصلاة وجمع الزكاة)[1] .

وكان هؤلاء الجباة خبراء دربهم النبى ﷺ على القواعد الخاصة بجباية الزكاة ، وقد اتصف جميع عمال النبى بالنزاهة والخلق القويم ، ولم تقدم شكوى ضد أى عامل منهم من أية ناحية[2] ، اللهم إلا ما حدث من وفد عبد القيس حين شكى من العلاء بن الحضرمى عامل البحرين فعزله الرسول ﷺ وولى أبان بن سعيد مكانه وقال له : أستوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراتهم[3] .

ولقد كان الرسول ﷺ حين يولى والياً يختاره ممن يشتهرون بالحكمة والسياسة ويعرفون بالتدين والفقه فى الدين (غالباً) وكان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية لأنه إنما طلب للأعمال أهل الجزاء من المسلمين والغناء ؛ ولم يطلب أهل الإجتهاد والجهل بها والضعف عنها[4] .

ولم يكن الرسول ﷺ يفرق بين ما يمكن أن نسميه الآن بمفهومنا

(١) حسن إبراهيم ص ٤٥٢ ج ١ .

(٢) الإدارة العربية ص ٤٩ .

(٣) الإدارة الإسلامية كرد على ص ١٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤ .

المعاصر دين وسياسة ، وقد بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن وأوصاه بهذه الوصية (إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى وإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض زكاة تؤخذ من أغنيائهم ثم ترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوا ذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب[١] .

وكذلك نرى الرسول ﷺ يكتب إلى عمرو بن حزم ، عامله على نجران كتاباً يضمنه الفرائض والسنن والصدقات والديات[٢] .

وكان الرسول ﷺ يتخير عماله من أولى العلم والدين يختارهم على الأغلب من المنظور إليهم في العرب ليوقروا في الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، ويحسنون العمل فيمن يتولون ويشربون قلوب من ينزلون عليهم بالإيمان[٣] ، وكان الرسول مع هذا كله لا يترك العمال وشأنهم يتصرفون كما يشاؤون دون أن يحاسبهم أو يسألهم عن أعمالهم ، فقد كان يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وحين استعمل ابن اللتبية على الصدقات ورجع بها إلى النبي ، حاسبه النبي ، فقال له ابن اللتبية : « هذا لكم وهذا أهدي إلي » فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أهدي إلي ، أفلا قعد في بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا ، وقال : من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول (أي خيانة)[٤] .

---

(١) المرجع السابق ص ٨ ، ٩ .
(٢) الإدارة الإسلامية ص ٩ .
(٣) المرجع السابق ص ١٢ .
(٤) حقيقة الإسلام [بخيت المطيعي] ص ١٥٩

وقد رأينا كيف عزل العلاء بن الحضرمى عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس اشتكاه .

وخلاصة القول أن الرسول ما كان يفرق بين العمل الدينى والعمل السياسى وإن كان هذا لم يمنع الرسول عليه السلام من أن يخص بعض الناس بأعمال دينية وبعضهم بأعمال سياسية صرفة ، وقد قصر الرسول ﷺ على بعض العمال إمامة المسلمين فى الصلاة وجمع الزكاة ، وهذا دليل على جواز تفرغ بعض الناس للعمل الدينى واقتصارهم عليه ، ولم يكن هذا مانعاً من فرض السلطان السياسى على هؤلاء العمال كأفراد خاضعين للنظام العام للدولة . كذلك فرض السلطان الدينى على الوالى ومطالبته به من قبل العامل المتولى لهذه الأمور الدينية .

وقد استعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران وولاه الصلاة والحرب ، واختص راشد بن عبد الله بالقضاء والمظالم[1] ، فقد كان الرسول ﷺ يقدر لكل إنسان قدره ويضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وإنى أرى أن السبب فى عدم إعطاء الرسول ﷺ حق القضاء والنظر فى المظالم لأبى سفيان هو أن أبا سفيان قريب عهد بالإسلام ولعله يجهل كثيراً من الأمور التشريعية التى لابد لمن يلى القضاء أن يعرفها ويكون متفقهاً فيها ، وإذا كان الرسول قد ولاه الحرب فهو قائد قديم وسياسى محنك ، والصلاة ليست فى حاجة إلى تدريب وخبرة ، ولذلك لم يكن هناك مانع من أن يكون أبا سفيان إماماً للمسلمين فى الصلاة ، ولقد كان الغالب أن يكون الحاكم هو الإمام فى الصلاة ، أما جمع الزكاة والنظر فى المظالم والمحتسب

---

(١) الإدارة الإسلامية ص ١٥

فهى أمور فى حاجة إلى متخصصين فيها ، وذوى خبرات ، والرسول كان يؤمن بالتخصص وكان يقدر لكل صحابى قدره ، ويعرف ما فيه من صفات تؤهله للعمل المناسب له ؛ فكثيراً ما كان يقول (أرحم أمتى لأمتى أبو بكر وأشدهم فى دين الله عمر ؛ وأصدقهم حياء عثمان وأقضاهم على ؛ وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ؛ وأفرضهم زيد بن ثابت وأقرؤهم أبى بن كعب ؛ ولكل أمة أمين ؛ وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح[1] .

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يعرف أصحابه واحداً واحداً ويعرف إمكاناتهم الفكرية وقدراتهم العقلية ؛ وإذا كانت المهمة التى يريد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أداءها فى حاجة إلى أكثر من واحد عين لها ما تحتاج إليه من أفراد إلا أنه كان يضع واحداً منهم على رأسهم كأمير لهم ؛ وحين ذهب معاذ بن جبل إلى اليمن بتكليف من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وزود بما زود به من وصايا وتعليمات لم يكن وحده وإنما كان معاذ رئيساً لوفد شكله الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكلفه بالسفر إلى اليمن لتعليم أهلها الإسلام وإقامة الصلاة ولجباية الزكاة والصدقات .

وكان الوفد أو البعثة مكوناً من معاذ بن جبل رئيساً وعبد الله بن زيد ومالك بن عبادة وعقبة بن نمر ومالك بن مرة أعضاء[2] .

ولقد أرسل الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع هذه البعثة كتاباً موجهاً إلى زرعة ذى يزن فى هذا الشأن هذا نصه :

---

(١) المرجع السابق .

(٢) أمين سعيد ص ٧٧

« بسم الله الرحمن الرحيم »

أما بعـــد - فإن رسول الله محمد النبي أرسل إلى زرعة ذي يزن أنه إذا أتاكم رسلي ، فأوصيكم بهم خيراً « معاذ بن جبل . وعبد الله بن زيد ، ومالك بن عبادة ، وعقبة بن نمر ، ومالك بن مرة ، وأصحابهم ، وأن اجمعوا الصدقة والجزية من مخالفيكم وأبلغوها رسلي ، وأن أميركم معاذ بن جبل فلا ينقلب إلا راضياً »[1] .

---

(١) المرجع السابق .

سياسة الرسول في تبليغ الدعوة
وأثر ذلك في توطيد سلطان الدولة

أولا : الدعوة داخل الجزيرة العربية :

لما ظهر الإسلام على الشرك أخذ الرسول ﷺ يرسل أمثل من دخلوا في الإسلام من الرجال لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم ، وإذا وفد على الرسول وافد عهد إليه أن يعلم قومه الدين ، وكان الرسول ﷺ يجعل إمام كل قبيلة منها لنفور طباع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها[1] .

وإذا كان الوافد من رؤساء القبائل يوكل إليه جباية الصدقات ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم في الدين ويوصيه الرسول أن يلين للناس في الحق وأن يشتد عليهم في الظلم وأن يجعل دعاءهم إلى الله وحده لا شريك له وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين في الصدقة[2] .

وقد رأينا كيف أن الرسول ﷺ حين أرسل معاذاً إلى اليمن قال له : إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى ، ثم طلب منه أن يخبرهم بعد أن يعرفوا الله ويؤمنوا به أن الله فرض عليهم الزكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، ومن حكمته وسياسته

---

(١) الإدارة الإسلامية ص ٨ .

(٢) المرجع السابق .

أنه كان يطلب من بعض الأفراد الذين وفدوا عليه فى مكة وأسلموا أن يرجعوا إلى قومهم منذرين كأبى ذر وعمرو بن الطفيل وغيرهما ، وكان يطلب من هؤلاء الوافدين ألا يأتوا بأقوامهم المسلمين إلى مكة وهو فى هذه الحالة من الحصار القرشى حتى لا تكون فتنة فلا يستطيع النبى معها أن يحمى الوافدين فتكون حرب طاحنة تعرقل سير الدعوة وهى ما تزال تحبو ، بل أوصاهم أن يلحقوا به إن استقر به المقام[1] .

هذا فى مكة ، أما حين نزل إلى المدينة ولم يكن نزوله إليها ليستريح من أعباء الدعوة ، فإن الأوامر ما زالت تلاحقه بوجوب متابعة تبليغها (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته)[2] .

وقد دعا اليهود إلى الإسلام ، فأبوا ظانين أنهم خارج نطاقها لأنهم أهل كتاب ولا حاجة لهم إلى كتاب غيره .

ولم تشغله أمور السياسة والإستعداد للحرب التى كان مشغولا بها على الدوام ، من أن يوجه البعوث يحملون أوامر أو كتب بتبليغ الدعوة أو ارشاد المسلمين إلى واجبهم وتعليمهم أمور دينهم ، وكان بعض هذه البعوث موجها إلى داخل الجزيرة العربية ، وبعضها موجها إلى الخارج وإن كان الرسول ﷺ قد راعى التسلسل فى الدعوة فاهتم بالداخل أولا قبل الخارج ، وكان بعض هذه البعوث الداخلية موجها الى القبائل وبعضه موجها إلى الأفراد من ذوى السلطان والنفوذ وبعض هذا الركب الداخلى

---

(١) الدين العالمى (عطية صقر) ص ٤٤ .

(٢) سورة المائدة : ٦٧ .

كان من المنتسبين إلى القبائل التي يوجهون إليها ، لأنهم كانوا قد أسلموا من قبل ، فأذن لهم النبي بدعوة أقوامهم بالقدر الذي يستطيعون ، وكان أكثر ما يستطيعون هو العقيدة المبسطة والأصول الإسلامية الأولى[1] .

وحين بدأ خروج الإسلام من نطاق المدينة إلى القبائل المنتشرة في قلب الجزيرة العربية ، وتسامع العرب عن الإسلام وانتصاره في بدر بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) يرسل الوعاظ والمعلمين والمدربين إلى القبائل لتعليمهم الدين ، وفي سنة ٣ هجرية وبعد أحد ، قدم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رهط من قبائل عضل والقارة ، وقالوا : يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام[2] .

فأرسل النبي معهم عشرة من أصحابه على رأسهم عاصم بن ثابت[3] ، وبينما هم في الطريق قرب مياه هذيل شعر الدعاة بأن أصحابهم غدروا بهم ، واستصرخوا هذيلا عليهم ، ومع أنهم حاولوا الدفاع عن أنفسهم إلا أن الغادرين ومن أعانهم إستطاعوا أن يقتلوهم إلا ثلاثة إستسلموا للأسر هم ، زيد بن الدثنة ، وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق الذى ما لبث أن حاول الفرار من الأسر فحملوا عليه بالحجارة حتى قتلوه ثم باعوا الأسيرين (خبيب وزيد) لقريش لقتلهما بمكة[4] .

لقد أخذ النبي (صلى الله عليه وسلم) على عاتقه مهمة إعداد الفقهاء

---

(١) الدين العالمى ص ٥٠

(٢) ابن هشام ص ١٦٩ القسم الثانى

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق ص ١٧١

والمعلمين ، وذلك لمواجهة الحاجات المتزايدة فى جماعة المسلمين التى كان يزداد عدد أفرادها إزديادا حثيثاً مضطرداً ، ونهض النبى (عليه السلام) بنفسه بهذا العمل الهام ، كما انتدب لأدائه كبار صحابته نيابة عنه ، فقام النبى (صلى الله عليه وسلم) بتدريب عدد كبير من القراء الذين أتقنوا حفظ القرآن ، وعاونه فى تدريبهم كبار الصحابة ثم بعث بهم إلى شتى أرجاء بلاد العرب[1] .

وقد كان اختيار النبى للدعاة من أعرف أصحابه بالدين وأحفظهم للقرآن وممن يعلمون شرائع الإسلام ويتقنونها ويخلصون للدعوة إلى الله ويؤمنون إيماناً كاملا بواجب القيام بها ، ويعتبرونها رسالتهم فى هذه الحياة . لهذا نرى (خبيب) أحد الأسيرين والذى قال ابن هشام إنه أقام فى أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم ثم قتلوه[2] .

نراه وقد ظل متمسكاً بإيمانه وإخلاصه للإسلام حتى حين أحضروه ليصلب فإذا هو يقول لهم (إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع . فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم فقال (أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة) وحين أوثقوه ورفعوه على خشبة قال : (اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك فبلغه الغداة ما يصنع بنا) ثم قال : اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً[3] .

ثم استقبل الموت وهو ينشد ويقول :

(١) الإدارة العربية ص ٥٩

(٢) ابن هشام ص ١٧٤ القسم الثانى

(٣) المرجع السابق القسم الثانى

ولست أبالي حين أقتل مسلماً

على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أوصال شلو ممزع[1]

كما أن زيداً الأسير الثاني يقول له أبو سفيان حين أخرجوه إلى الكعبة ليقتلوه ، أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك ، فإذا زيد الذي يعرف أنه سيقتل بعد دقائق يقبل على الموت برباطة جأش وعقيدة قوية صلبة ويرد على أبي سفيان ويقول : (والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي) مما جعل أبا سفيان يقول : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[2] .

وبرغم هذه الخسارة الفادحة وبرغم تأثر الرسول ﷺ والمسلمين بقتل هؤلاء الدعاة ، وبرغم الشماتة من بعض رجال من المنافقين قالوا بعد معرفتهم بقتل عاصم وإخوانه « يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم[3] »

برغم هذا فإن بعوث الدعاة لم تتوقف بل زادت ، وتمنى الدعاة من الرسول أن يشرفهم ببعثهم إلى القبائل يدعونهم إلى الإسلام ويفقهونهم في الدين ،

---

(١) فقه السيرة (محمد الغزالي) ص ٢٩٧
(٢) ابن هشام ص ١٧٢ القسم الثاني
(٣) المرجع السابق ص ١٧٤

ولم يكن هذا الحادث ليمنع الرسول ﷺ من إرسال وفود أخرى لنشر الإسلام بين القبائل والمجاهل الريبة .

لأن ضرورة بث الدعوة مهما فدحت الخسائر جعلت النبي ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لا بد منه ، كالتاجر الذي يتحمل المغارم الثقيلة حيناً من الدهر ، لأن الإنسحاب من السوق بغية تجنبها قضاء عليه ، فهو يبقى متجملا حتى تهب الريح من جديد رخاء تعوض ما فقده ، وذلك سر إستجابة الرسول لأبي براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة حين عرض عليه أن يرسل وفداً من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد[1] .

لم تطل المدة بعد إستشهاد هؤلاء الدعاة الذين غدرت بهم عضل والقارة وخسر المسلمون بفقدهم عدداً من الدعاة الأكفاء الشجعان ، والذي كان الإسلام في حاجة إليهم في هذه الفترة من تاريخه ، وإنما كان لا بد من تبليغ الدعوة ونشر الإسلام مهما كلف المسلمين من خسارة ، وإذا الرسول ﷺ على رأس أربعة أشهر من أحد[2] ، يوافق على إرسال بعث آخر كبير مؤلف من سبعين رجلا على الصحيح[3] ، على رأسه المنذر بن عمرو إلى قبائل نجد بعد أن ألح أبو براء عامر بن مالك على الرسول وأخبره بأنه سيجيرهم بعد أن أبدى النبي خشيته من أن يصاب رجاله بسوء من هذه القبائل الضارية التي لا يؤمن زمامها .

وخرج الدعاة من المدينة حتى بلغوا (بئر معونة) وما كانوا

---

(١) فقه السيرة ص ٢٩٨

(٢) ابن هشام ص ١٨٣ القسم الثاني

(٣) هامش ابن هشام ص ١٨٤ القسم الثاني ، فقه السيرة ١٩٨ ، أمين سعيد ص ٨٨ ويرى ابن هشام انهم كانوا أربعين رجلا فقط .

يعرفون أنهم جميعاً يمشون الخطى إلى مصارعهم فى أرض إنتشر الغادرون فى فجاجها ، فما كاد الدعاة يصلون إلى هذا المكان حتى بعثوا أحدهم وهو « حرام بن ملحان » إلى عامر بن الطفيل ابن أخى ملاعب الأسنة[1] ، يدعوه إلى الاسلام ، وقبل أن ينظر فى كتابه قتله ثم إستصرخ عليهم بنى عامر ، وحين أبوا وفاء لجوار أبى براء إستصرخ عليهم قبائل بنى سليم ورعل وذكوان فقاتلوهم حتى قتلوهم عن آخرهم إلا كعب بن زيد الذى ظنوه قد مات بعد وقوعه بين القتلى ، لكنه نجا وظل حتى قتل يوم الخندق شهيداً[2] .

وقد عرف الرسول خبر مصرعهم من عمرو بن أمية الضمرى الذى كان فى سرح القوم هو ورجل من الأنصار ، ولم يشهدا مصرع إخوانهما وانما جاءا إلى معسكرهم فإذا القوم فى دمائهم والخيل التى أصابتهم واقفة فقال الأنصارى لعمرو بن أمية ما ترى ؟ قال : أرى أن نلحق برسول الله فنخبره الخبر ، ولكن الأنصارى رفض أن يترك المكان الذى قتل فيه أصحابه وقاتل القوم حتى قتل ، أما عمرو فأسر وأطلقه عامر بن الطفيل عتقا عن رقبة زعم أنها كانت على أمه[3] .

ومع ذلك وبرغم هذه الخسارة الكبيرة ومصرع سبعين من حفظة القرآن من أساتذة الدعوة الإسلامية المؤمنين برسالتهم المخلصين لدينهم ورسولهم ، فإن ركب الدعوة لم يتوقف والبعوث من أجل الدعوة لم تلغ ، والمسلمين أنفسهم لم يحجموا عن المشاركة بقدر استطاعتهم فى تبليغ هذه

(١) أمين سعيد ص ٨٨

(٢) ابن هشام ص ١٨٤ ، ١٨٥ القسم الثانى

(٣) المرجع السابق

الدعوة ، ونشر الإسلام ، ولقد كان اخلاص هؤلاء الناس (الدعاة) من أسباب اعتناق العرب للإسلام ، فقد قال أحد الرجال الذين شاركوا فى قتل هؤلاء الدعاة وقتل واحداً منهم (ان مما دعانى الى الإسلام أنى طعنت رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه فنظرت الى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول : فزت والله ، فقلت فى نفسى ما فاز ؟ ألست قد قتلت الرجل ، قال : حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا : الشهادة ، فقلت فاز لعمرو الله[1] .

وقد استمرت البعوث من أجل الدعوة ، فبعث الرسول الضحاك ابن سفيان إلى بنى كلاب فأسلموا ، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ومعه أبو موسى الأشعرى وأسلم غالب الناس على أثر هذا البعث ، ثم أرسل إليها علياً فهزمهم ثم دعاهم إلى الإسلام فأسلموا عن إستجابة ورغبة ، فأقام فيهم يقرئهم القرآن ويعلمهم حتى وافى النبى فى موسم الحج بمكة[2] .

وأرسل خالد بن الوليد إلى نجران وكانوا يدينون بالمسيحية وطلب منه أن يدعوهم إلى الإسلام ويقيم بينهم بعد دخولهم فيه يعلمهم الإسلام والكتاب ووصل خالد إلى نجران فنزل فيها وأرسل الرسل فى المدن والقرى يدعون الناس إلى الدخول فى الإسلام وقال لهم : أسلموا تسلموا فدخلوا فى الدين ، وأقام خالد بينهم يعلمهم ويرشدهم وأرسل إلى الرسول من هناك يخبره بما حدث[3] .

---

(١) ابن هشام ص ١٨٧ القسم الثانى
(٢) الدين العالمى ص ٥٠
(٣) راجع ابن هشام ص ٥٩٢ القسم الثانى

وأرسل خالد أيضاً إلى همدان باليمن ليدعوهم إلى الإسلام وكان معه البراء بن عازب ومكث ستة أشهر ولم يسلم أحد فبعث النبى إليهم علياً وبعد أن دعاهم أبوا وكان قتال عنيف إنهزموا فيه ثم أسلموا[1] .

ويقول الدكتور / هيكل فى كتابه حياة محمد[2] ، إن خالداً حين ذهب إلى نجران ودعاهم إلى الإسلام إنما كان هذا لجماعة منهم إحتفظوا بدينهم ، مخالفين فى ذلك أكثرية قومهم من بنى الحارث الذين أسلموا من قبل ، وما لبث خالد أن دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ، وأن جماعة أخرى من أهل اليمن عـز عليهم أن يخضعوا للواء الإسلام بعد أن ظهر بالحجاز وكانت اليمن هى التى اعتادت أن تغزو الحجاز ، ولم يغزها الحجاز من قبل أبداً ، ولهؤلاء أرسل على بن أبى طالب ، فاستكبروا أول الأمر وقابلوا دعوته بالهجوم لحاربهم وشتتهم ، ثم ما لبثوا أن نظموا صفوفهم من جديد فأحاط بهم على وأوقع فى صفوفهم الرعب ، فلم يجدوا بدا من التسليم فأسلموا وحسن إسلامهم « وأنصتوا إلى تعليم معاذ وأصحابه » .

واستمر الرسول فى إرسال الدعاة إلى كل الأماكن فى داخل الجزيرة العربية فأرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين ، وأرسل عمرو بن العاص إلى جيفر وعياد بن الجلندى ملكي عمان وبعث سليط بن عمرو إلى ثمامة بن أثال وهوذة بن على ملكي اليمامة وبعث شجاع بن وهب الأسدى إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك تخوم الشام ، وبعث المهاجر بن أبى أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن[3] .

---

(١) الدين العالمى ص ٥١ .

(٢) الدين العالمى ص ٤٠٨ .

(٣) راجع أسماء (الرسل) ومن أرسلوا إليهم . ابن هشام ص ٦٠٧ وما بعدها القسم الثانى .

ولم يكن النبي ﷺ يكتفي بمجرد إرسال الدعاة أو البعوث وإنما كان غالباً ما يزودهم بتعليمات ووصايا ، وأحيانا يعطيهم كتب إلى الزعماء ورؤساء القبائل ، وأحياناً كان يرسل مناشير عامة تتلى عليهم في البلاد، فلقد رأيناه يوصي معاذاً حين بعثه إلى اليمن بوصايا وتعليمات ويقول له : (يسر ولا تعسر وبشر ولا تنفر وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك ما مفتاح الجنة فقل شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)[1] .

ثم رأيناه يوصي خالد بن الوليد أيضاً بوصايا وتعليمات ، فأمر أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً فإن إستجابوا قبل منهم ، وإن لم يفعلوا قاتلهم ، ولذلك حين وصل خالد إلى بني الحارث بن كعب بنجران بعث الدعاة يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس أسلموا تسلموا فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه ، وأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ[2] .

وقد كتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ يخبره بما تم عمله وتنفيذه مما أمره به من عدم قتالهم حتى يدعوهم إلى الإسلام ، وأخبره أنه دعاهم إلى الإسلام فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنه مقيم بينهم يأمرهم بما أمرهم الله به وينهاهم عما ينهاهم الله عنه ويعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي وإنه ينتظر كتاباً من الرسول ﷺ بما يجب أن يعمله بعد ذلك[3] .

---

(١) ابن هشام ٥٩٠ القسم الثاني

(٢) راجع ابن هشام ص ٥٦٢ القسم الثاني

(٣) راجع نص الكتاب والرد عليه بابن هشام ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ القسم الثاني

أما ما كان يصنعه الرسول ﷺ من إرسال منشورات هامة ، فهو كما فعل مع أهل اليمن حينما أرسل مع وفد منهم جاء إلى المدينة ليعلن إسلامه ثم عادوا إلى وطنهم ، أرسل معهم عمرو بن حزام يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ويأخذ منهم الصدقات[1] ، وأعطاه المنشور ليقرأه عليهم ويعمل هو بما فيه ، وقد ضمن الرسول هذا البيان العام أوامر كثيرة وتشريعات عديدة فى الصلاة والطهارة والزكاة والحج وبين فيه بتفصيل أشياء كثيرة فى الفقه الإسلامى مثل كيفية إسباغ الوضوء والصلاة الصحيحة وأوقاتها وتحديد نصاب الزكاة فى الزروع والإبل والغنم والبقر وتحديد الجزية وغير هذا من أمور[2] .

(١) ابن هشام ص ٥٩٤

(٢) راجع نص البيان (السيرة النبوية) ابن هشام ص ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ القسم الثانى

الدعوة في خارج الجزيرة العربية

مكاتبة الملوك :

بعد ست سنوات من الكفاح المتواصل في المدينة حيث لم يهدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه ، وظلوا يعملون جاهدين على نشر الإسلام في الجزيرة العربية وفرض سلطانه عليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، لم تتوقف فيها بعوث الدعوة والعمل على نشرها طيلة هذه الفترة ، مع أنها كانت فترة حرجة في تاريخ الدولة الإسلامية حيث أن الجزيرة العربية كلها تقريبا تقف في وجه هذه الدولة الناشئة وتحاربها وتحارب الدعوة التي تدعو بها ولهذا كانت السرايا العسكرية للتهديد والتخويف والإرهاب وإظهار القوة حتى لا يفكر الأعداء في محاربة دولة الإسلام أو الوقوف في طريق دعوتها أو دعاتها .

بعد هذه السنوات الست تغير الحال تغيّراً كاملا لصالح الإسلام والمسلمين .

ويمكن أن نؤكد أن المسلمين قد أدركوا في خلال هذه السنوات الست المليئة بالكفاح والنضال من النتائج المادية والأدبية ما لم يكن يخطر على بال أحد ، ففي خلال هذه السنوات الست .

١ — قضوا على النفوذ اليهودي في منطقة المدينة وغنموا أرضهم وأموالهم وسلاحهم .

— أثبتوا كفاءة عسكرية قوية وضربوا قريشاً ضربة كبيرة فى بدر وعرقلوا تجارتها مع الشام .

٣ — نشروا نفوذهم السياسى والعسكرى فى المناطق المحيطة بالمدينة ووصلت بعوثهم العسكرية إلى دومة الجندل (من أراضى الرومان) ، وخضع لهم بنو كلب وسارت بعوثهم العسكرية إلى الغرب والشرق والشمال وتسامع العالم كله عن هذه الدولة وعرفوا أن قائدها نبى يدعو إلى دين جديد .

٤ — أنشأوا جيشاً عسكريا قويا أثبت كفاءته فى كل المعارك التى خاضها بلغ ثلاثة آلاف جندى فى السنة الخامسة بعد أن كان عدده لايتجاوز ستين فى السنة الأولى .

٥ — أصبحت قريش تخشاهم وتعمل لهم ألف حساب وأيقنت دولة مكة أنه من شبه المستحيلات هزيمة هذه الدولة والقضاء عليها ، خصوصاً بعد أن فشل أعظم جيش عرفه الحجاز فى تاريخه كله (جيش الأحزاب) فى هزيمتهم أو القضاء عليهم الأمر الذى جعلهم لايفكرون فى الهجوم على محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك ، ثم اضطروا فى النهاية إلى الاعتراف بالمسلمين كهيئة لها وجودها وحقوقها ، بعد أن كانوا ينظرون إليهم على أنهم مجرد مجموعة من الثوار فتعاقدوا معهم وتعاملوا على قاعدة المساواة ، لافاضل ولا مفضول ولا قوى ولاضعيف بعد أن رأوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قاصداً مكة فى السنة السادسة من الهجرة على رأس ألف وأربعمائة من أصحابه يسوقون الهدى والصدقة ويقومون بمظاهرة سياسية كبيرة فضلا عن الغرض الدينى ، ويهددون قريشاً فى عقر دارها ، وعقدوا معهم معاهدة الحديبية التى اعترفت قريش فيها بكيان المسلمين ، حيث أن المعاهدة دائما ماتكون بين ندين ، وأصبح دينهم بعد هذه المعاهدة من الأديان المعترف بها فى الجزيرة العربية .

وقد كانت هذه النتائج المادية العظيمة الشأن التى تركتها دولة الإسلام ، داعياً من دواعى التحرك السياسى الدينى السريع لنشر الإسلام فى أنحاء الجزيرة وفى خارجها ، ولتوصيل هذه الدعوة إلى بلاد العالم ، فلم يبق فى بلاد الحجاز قوة عسكرية أو كتلة سياسية يخشى الرسول بأسها ويرهب جانبها . وهو كرسول أمر بتبليغ هذه الدعوة إلى العالمين :

(وما أرسلناك إلا كافة للناس)[1] ، (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[2] .

كان لابد أن يتحرك بسرعة فلم تكن الدولة ولا تأسيسها ولا محاولة فرض نفوذها ، ولا الحروب التى خاضها إلا من أجل تأمين طريق هذه الدعوة ونشر تعاليم الإسلام .

لهذا رأى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى هذه المهادنة بينه وبين قريش فرصة للدعوة إلى الإسلام والتعريف بها ، وبه ، فبعث الرسل المدربين المحنكين بكتبه إلى الملوك والرؤساء للأقطار المحيطة بالجزيرة العربية يدعوهم أن يدخلوا هم وشعوبهم فى دين الله ، ويبين لهم مبادىء هذا الدين وقواعده.

ويتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى إرسال هذه الكتب طريقاً دبلوماسياً عظيما حين يبعث بها إلى ممثلى هؤلاء الملوك فى بلاد العرب ليكونوا وسطاء فى توصيلها إلى الملوك ، وهو تقليد يجرى عليه العرف الدبلوماسى الحديث ، اتبعه الرسول منذ قرون ، فقد حمل دحية بن خليفة الكلبى كتاب قيصر وكان من الخبيرين بأحوال القوم ، وذهب إلى بصرى وقابل الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك غسان ليوسطه فى إيصال الكتاب إلى

---

(١) سورة سبأ : ٢٨

(٢) سورة الأنبياء : ١٠٨

الإمبراطور فقابله وانتدب عــدى بن حاتم لمرافقته فسار معه إلى القدس وقدمه إلى قيصر فسلمه الكتاب[١] .

وحين فـكر النبى (صلى الله عليه وسلم) فى دعوة الملوك إلى الإسلام خرج ذات يوم على أصحابه فقال: أيها الناس أن الله قد بعثنى رحمة وكافة فلا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم ، فقال أصحابه : وكيف اختلف الحواريون يارسول الله ؟ قال : دعاهم إلى الذى دعوتـكم إليه فأما من بعثه مبعثاً قريباً فرضى وسلم وأما من بعثه مبعثاً بعيداً فـكره وجهه وتثاقل فشكى ذلك عيسى إلى الله ، فأصبح المتثاقلون وكل واحد منهم يتكلم بلغة الآمة التى بعث إليها[٢] .

ثم ذكر لهم أنه مرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس والحارث الغسانى ملك الحيرة والحارث الحميرى ملك اليمن يدعوهم إلى الإسلام وأجابه أصحابه إلى ماأراد فصنع له خاتما من فضة نقش عليه (محمد رسول الله)[٣] .

ولقد كتبت هذه الـكتب باللغة العربية وهى اللغة الرسمية للدولة الإسلامية ولايخفى أن الـكتاب الرسمى باللغـة الرسمية للجهة المرسلة ضمان أكيد لدقة التبليغ بالمعنى الذى يريده المرسل ، حتى إذا حدث خطأ فى الترجمة كانت التبعة على المترجم لا على الـكتاب ولا على مرسله وكثيراً ماحدثت مشاكل من الخطأ فى الترجمة وكان الرجوع إلى النص الأصلى فيصل الموضوع .

أليس عجيباً أن يفـكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى إرسـال هـذه

---

(١) أمين سعيد ص ١٢٠ .
(٢) ابن هشام ص ٦٠٠ ، ٦٠٧ القسم الثانى .
(٣) حياة محمد ص ٣٥٢ .

الكتب إلى ملوك غسان واليمن ومصر ، وإلى الملكين العظيمين كسرى وقيصر دون التفكير فيما قد يترتب على عمله هذا من نتائج ربما تجر على بلاد العرب كلها الخضوع لنير الفرس والروم ؟

وهل كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يتصور أن يقبل هؤلاء الملوك هذه الكتب ويؤمنوا بهذه الدعوة التي يدعو إليها رجل من العرب الذين كانوا يصانعون كسرى وقيصر حتى يضمنوا ألا يفسدا بسلطانهما عليهم تجارتهم والتي لم يحدث إطلاقا أن قامت وحدة سياسية بينهم تفكر مجرد تفكير في مواجهة نفوذ هاتين الدولتين العظيمتين ؟

لقد كان النبي حكيما حين أرسل هذه الكتب ، فلقد اختار الرسل الذين كلفهم بتوصيلها من المحنكين المدربين الذين دربهم الرسول صلى الله عليه وسلم على مثل هذه الأعمال ، وخبرهم وعرف خصائص كل واحد منهم ؛ ولعله زودهم بتعليمات خاصة لكل واحد منهم ، ووجههم إلى ما يمكن أن يفعلوه أو يقولوه حينما يطلب منهم الكلام أو يطلب منهم التوضيح ، كذلك فالمطلع على نصوص هذه الكتب يرى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يستعمل فيها الشدة ولم يهدد باتخاذ العنف ، وإنما امتثل فيها للأمر الإلهي (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن[1] .

فالرسول لم يقل في كتاب من كتبه مثلا ، أنه سيقاتلهم إذا لم يسلموا ، كما أنه لم يطلب منهم كما هي عادة الفاتحين الغزاة أن يسلموا بلادهم أو يستسلموا للمسلمين وسلطانهم ، وإنما هو يدعوهم إلى الإسلام فقط .

---

(١) سورة النحل : ١٢٥

والرسول حين يخاطب الملوك إنما يخاطبهم بوصفهم ممثلين للشعوب التى يحكمونها والأجناس التى تعيش تحت ظلهم وحكمهم .

ولابد له من تبليغ هذه الدعوة وتوصيلها إلى العالم كله ، ولابد أن يعرف بها الناس جميعاً فى كل مكان وأن تصل إلى القريب والبعيد ، ولذلك كان الفتح الاسلامى فى هذه البلاد فيما بعد حربا ضد السلطة لإزالتها ، وهى التى تحجر على الشعب وتمنعه عن اعتناق هـذا الدين وتحول بينه وبين سماع كلمة الحق .

لقد كانت النقاط الجوهرية التى ركز عليها الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى هذه الكتب ، بل التى دعت إليها هـذه الكتب هى (التوحيد) أى الاقرار بوجود الله الواحد والايمان برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) دون أن تطالبهم بالفروع ، وهـذا ترتيب طبيعى فى الدعوة ، حيث يبدأ فيها بالأصول والمبادىء العليا ، فإذا حصل التصديق بها بينت الفروع بعد ذلك ، ولقد فهم معظم هؤلاء الملوك الدافع الحقيقى لإرسال الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذه الكتب ، وأحسوا عند قراءتهم لهـا بأنه لم يقصد منها استعلاء ولا تحكما ولا استغلالا ، وإنمـا هو يطالب فيها برفع كرامة الإنسان وعدم خضوعه لانسان مثله خضوع عبادة ، فلا خضوع إلا لله ، بل أحس معظمهم أن مافى هذه الكتب إنما هو دعوة إلى السلام والاحترام المتبادل بين الأمم ولذلك تلقاها معظمهم بقبول حسن .

خـذ مثلا هـذا الكتاب الذى أرسله الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى هرقل .

(بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهـدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليـك اثم الأريسيين ، (ياأهـل الـكتاب تعـالوا إلى كلة سواء بيننا وبينكم ألا نعبـد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)(١) .

ففى الـكتاب تقدير لهرقل وإعطائه حقه من التعظيم ، فبرغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعظم نفسه فيه وإنمـا ذكر اسمه فقط إلا أنه يقول : إلى هرقل عظيم الروم كما قال فى كتابه إلى كسرى أيضاً (إلى كسرى عظيم فارس) .

ومايدعو إليه الرسول هؤلاء الملوك وشعوبهم هو دعاية الإسلام التى لاتخرج عن دعاية الأديان السابقة التى دعت كما يدعو الاسلام إلى الوحدانية وعـدم خضوع انسان لانسان خضوع عبادة ، والتى تضمنتها الآية التى ضمنها الرسول كتابه (ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) واذا كان هناك رفض لمـا ندعوكم اليه (فاشهدوا بأنا مسلمون) أى فأقروا بوجودنا الاسلامى وعاملونا على هذا الأساس .

ولم تخرج كل الـكتب التى أرسلت إلى الملوك تقريباً عما فى هذا الـكتاب من معانى ، ولهـذا كان فى بعضه غلظة وشدة ، حتى أن بعضهم كاد أن يعلن اسلامه رسمياً ، لولا خوفه من ضياع ملـكه أو خروج قواده وزعماء البلاد عليه ، فحـين تلى الخطاب على هرقل وترجم له لم يغضب ولم تثر ثائرته ولم

(١) حياة محمد ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ . زاد المعاد ص ٦٠ ج ٣

يفكر فى إرسال جيش يغزو به بلاد العرب ، بل رد على الرسالة رداً حسناً مع أن هرقل كان يحف به النصر من كل جانب حيث تغلب على الفرس واستنقذ منهم الصليب الأعظم الذى كانوا قد أخذوه من بيت المقدس وكان قبل تسلمه الكتاب عائداً من توه من بيت المقدس بعد أن نذر أن يحج إليه ماشياً ليرد الصليب ، مما جعل بعض المؤرخين يتصور أنه قد أسلم[١] .

وقد قال أبو سفيان بن حرب[٢] : —

خرجنا فى نفر من قريش تجاراً إلى الشام والله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته (أى شرطة هرقل) فقال أنتم من رهط هذا الرجل الذى بالحجاز (يعنى النبى ﷺ) ؟ قلنا : نعم : قال . انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما انتهينا اليه، قال : أيكم أمس به رحماً ، قلت أنا ، فقال : أدنه ، فأقعدنى بين يديه وأقعد أصحابى خلفى قال : انى سأسأله فإن كذب فردوا عليه ، فوالله لو كذبت ماردوا على ولكن كنت امرءاً سيداً أتكرم على الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك ان أنا كذبته أن يحفظوا ذلك على ، ثم يحدثوا به عنى فلم أكذبه ، فقال : أخبرنى عن هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى مايدعى ، قال : فجعلت أزهد له شأنه وأصغر له أمره وأقول له، أيها الملك : ما يهمك من أمره ان شأنه دون ما يبلغك ، فجعل لا يلتفت الى ذلك منى ، ثم قال : «أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه ، قلت سل عما بدالك ، قال . كيف

---

(١) حياة محمد ص ٣٦٢ بتصرف .

(٢) التاريخ الإسلامى حسن ابراهيم ص ١٦١ إلى ١٦٣ ج ١ وقد روى مسلم هذا الحديث عن ابن عباس راجع ص ١٠٣ — ١١١ مسلم شرح النووى ج ١٠ .

نسبه فيكم : قلت محض أوسطنا نسباً ، قال : فأخبرنى هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به ؟ قلت لا ، قال : فهل كان له فيكم مُلك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت : لا ، قال : فأخبرنى عن أتباعه منكم من هم ، قلت الضعفاء والمساكين والأحداث من الغلمان والنساء ، أما ذوى الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد . قال : —

فأخبرنى عمن تبعه أيحبه ويلزمه ؟ أم يقليه ويفارقه ؟

وفى رواية أخرى هل يرتد أحد منهم سخطاً لدينه ؟ قلت / ما تبعه رجل ففارقه ، قال هل يغدر ؟ فلم أجد شيئاً مما يسألنى عنه أغمزه فيه غيرها ، قلت : ونحن منه فى هدنة (يريد صلح الحديبية) ولا نأمن غدره ، قال : فوالله ما التفت اليها منى ، ثم كرر على الحديث فقال : سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت عنه محض من أوسطكم نسبا ، وكذلك يأخذ الله النبى اذا أخذه لا يأخذه الا من أواسط قومه نسبا ، وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به فزعمت أن لا ، وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء ، وكذلك أتباع الأنبياء فى كل زمان وسألتك عمن يتبعه أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه ، فزعمت ألا يتبعه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه . .

وفى رواية أخرى وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا ، فلأن كنت صدقتنى عنه ليغلبن على ما تحت قدمى هاتين ولوددت أنى عنده فأغسل قدميه ، وانطلق لشأنك ، قال : فقمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدى بالأخرى وأقول أى عباد الله لقد ظهر أمر ابن أبى كبشة .

وقد ذكرت إحدى الروايات التاريخية[1] أن هرقل جمع الروم حين وصل إليه كتاب الرسول وعرضه عليهم وقال لهم : تعلمون والله أن هذا الرجل نبي مرسل إنا نجده في كتابنا ، نعرفه بصفته التي يوصف لنا بها ، فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا ، فرفضوا ، وقالوا : نحن أعظم ملكا وأكثرهم رجالا وأفضلهم بلداً ، وعرض عليهم أن يعطيه الجزية فرفضوا ، وعرض عليهم أن يصالحه على أرض سوريا فرفضوا .

أما المقوقس فقد استقبل حاطب بن أبي بلتعة سفير النبي إليه إستقبالا طيباً ، وأكرمه المقوقس وأجازه بمائة دينار وخمسة أثواب وأرسل معه هدايا كثيرة منها مارية التي كانت من أجمل نساء مصر والتي تزوجها الرسول وأنجبت له إبراهيم ، وأرسل أيضاً سيرين التي وهبها النبي لحسان بن ثابت ، وأشياء أخرى كثيرة[2] .

وقد ضم المقوقس كتاب النبي إلى صدره وأرسل إليه كتاباً ودياً كتبه باللغة العربية[3] ، أما النجاشي فقد وردت روايات أنه أسلم ، وإن أثارت طائفة من المستشرقين الشك حول إسلامه .

---

(١) حسن ابراهيم ص ١٦٣ ج ١ ، أمين سعيد ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٢) زاد المعاد ص ٦١ ج ٣ راجع حصر الهدايا أمين سعيد ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٣) زاد المعاد ص ٦١ ج ٣ .

رأى فى كتاب النجاشى وإسلامه

ذكرت معظم الروايات التاريخية أن الرسول أرسل كتاباً إلى النجاشى يدعوه إلى الإسلام فى السنة السادسة من الهجرة مع الكتب الأخرى التى أرسلها للملوك ورؤساء العالم ، وأثارت طائفة من المستشرقين الشك كما قلنا حول إسلام النجاشى ، والروايات الصحيحة على أن النجاشى أسلم ، وأنا أميل إلى أن إسلامه كان فى تاريخ متقدم عن إرسال هذه الكتب وأن هذا كان قبل الهجرة إلى يثرب وفى زمن هجرة جعفر وأصحابه فى السنة الخامسة من البعثة .

وقد روى ابن هشام أن إسلامه كان سبباً فى ثورة الشعب عليه[1] ، مما إضطر المسلمين فى بلاد الحبشة إلى العودة إلى مكة خوفاً من فتك الثوار بهم ، الأمر الذى دفع النجاشى حفاظاً على ملكه ، أن يداهن قومه وأن يكتم إسلامه ، كما أن صورة الكتاب الذى أرسله النبى ﷺ إلى النجاشى ، تدل على أن هذا الكتاب قد كتب قبل السنة السادسة من الهجرة بكثير ، فنص الكتاب يقول[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم » : من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ملك الحبشة ، سلام أنت ، فإنى أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول

---

(١) السيرة النبوية القسم الأول ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٢) حياة الصحابة ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ التاريخ الاسلامى حسن ابراهيم ص ١٢١ .

الطيبة الحصينة فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والوالاة على طاعته ، وان تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى ، فإنى رسول الله ، وقد بعثت اليك ابن عمى جعفراً ونفراً من المسلمين فإن جاءك فأقرهم ودع التجبر ، فإنى أدعوك وجنودك الى الله ، فقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصحي ، والسلام على مع اتبع الهدى .

وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قد بعثت اليك ابن عمى جعفراً ونفراً من المسلمين ، دليل واضح على أن هذا الخطاب كان قبل السادسة الهجرية .

فإن جعفراً كان موجوداً بالحبشة قبل هذا التاريخ بحوالى ثلاثة عشر عاماً ، وكان له لقاء سابق مع النجاشى حين استدعاه لسؤاله عن أمر هذا الدين بعد ارسال قريش سفيريها عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة لمحاولة اعادة المسلمين الى مكة .

وقد قلنا فى مكان آخر أن النجاشى بكى بكاء شديداً حتى ابتلت لحيته حينما قرأ عليه جعفر قصة خلق عيسى فى أول سورة مريم .

وهنا فى هذا الكتاب نجد الرسول ﷺ يوضح حقيقة عيسى وأصل خلقه ، مع أنه (أى النجاشى) قد اعترف بها قبل ذلك وأقر رأى الإسلام فيها منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً ، ولم يكن هناك داع لتكرارها كما أن تعبير الرسول بقوله : بعثت اليك جعفراً ونفراً من المسلمين فإذا جاءك فأقرهم ، دليل على أن الرسول أرسل جعفراً ومعه المسلمين المهاجرين ومعهم كتاب الدعوة الى الإسلام .

والا لو كان الخطاب قد أرسل فى السنة السادسة من الهجرة مع غيره من الكتب لكان الرسول ﷺ كتب فيه وعندك ابن عمى جعفراً ونفراً من المسلمين ، فأحضرهم وأقرهم .

ولقد كان ما فى هذا الكتاب من نصوص فهم منها أنها كانت قبل تاريخ إرسال الكتب سبباً فى شك بعض المؤرخين فى صحته نظراً لأنهم فهموا أن كل الكتب أرسلت بعد صلح الحديبية[١] .

وقد رد النجاشى على رسول الله ﷺ بكتاب أعلن فيه اسلامه على يد جعفر رضى الله عنه مما يوضح عدم ضرورة ارسال كتاب آخر يدعوه فيه الى الإسلام ، وقد جاء فى هذا الكتاب[٢] .

(بسم الرحمن الرحيم : الى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة ، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته الذى لا اله الا هو ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فو رب السماء والأرض ان عيسى لايزيد على ما ذكرت تفروقا[٣] ، انه كما ذكرت ، وقد عرفنا ما بعثت به الينا ، وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك ، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين) .

أما كسرى : فيقول الدكتور / حسن ابراهيم[٤] .

كان من الطبيعى وهو المؤمن بوراثته هذا الحق الملكى المقدس عن

---

(١) أمين سعيد ص ١٢٦ هامش .
(٢) زاد المعاد جـ ٣ ص ٦٠ ، ٦١ حياة الصحابة ص ١٢٦ جـ ١ .
(٣) التفروق . غلافة بين النواة والقشر .
(٤) التاريخ الاسلامى ص ١٥٩ ، ١٦١ .

أجداده ، أن يأبى الإسلام ويرفض الكتاب ويخشى هذا الدين على شخصه وسلطانه اللذين كانا موضع قداسة الشعب ؛ كما أنه يرى أن الفرس لا يجب أن يكونوا تابعين للعرب وهم الذين يفرضون سيادتهم على عرب اليمن والحيرة وهم لا يقلون فى نظرهم عن عرب الحجاز ؛ لهذا لا نعجب اذا ثارت ثائرة كسرى فمزق كتاب الرسول الى باذان عامله على اليمن ويقول (ابعث الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به .

ورأيى أنه ربما لو وصل كتاب الرسول إلى كسرى فى وقت آخر قبل هذا الوقت لقبله ورحب به ، ولم تثر ثائرته كما حدث حين وصله الخطاب .

فقد وصل الكتاب إلى كسرى بعد هزيمته على يد هرقل ، وقد هيأت له حساسية المهزوم أن مايدعوه إليه محمد ﷺ هو لون آخر من الخضوع ؛ وهزيمة أخرى تضاف إلى هزيمته أمام الرومان ، فكان هذا العامل النفسى سبباً فى رفضه لكتاب الرسول ، وكان رد فعله تمزيق الخطاب ومطالبة عامله على اليمن بالقبض على محمد ﷺ وتسليمه إليه .

وحين بلغت النبى مقالة كسرى ومافعل بكتابه قال : مزق الله ملكه وشاء الله أن يقتل بيد ولده مع وصول رسولى باذان إلى رسول الله ﷺ ، وحين جاءا يطلبانه إلى باذان ، ولم يكن باذان ولا رسله قد عرفوا بموت كسرى ، يخبر الرسول الرسل بموته ويطلب منهما أن يكونا رسله إلى باذان يدعوانه إلى الإسلام ، ويقبل باذان الدعوة ويعلن إسلامه ويسعد ببقائه عاملا لمحمد ﷺ على اليمن [1] .

---

(١) حياة محمد ٣٦٣

هـذا عن الكتب والوفود التي أرسلها النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الحكام والملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام ، والذي أثار الرسول بها الدهشة والعجب ، والذي أثار الدهشة أكثر أن هذه البلاد التي أرسل إليها الرسول رسله لم يمض عليها عشرون عاما بعد ذلك حتى كانت بلاداً إسلامية واعتنق أكثرها الإسلام .

وقد صنعت البعوث التي كان يرسلها الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى القبائل لنشر الاسلام أو تعليمهم إياه ، وكذلك الكتب التي أرسلها إلى الملوك والحكام ، ما كان ينتظره الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وما كان يؤمله لها ، فقد تسامعت الجزيرة العربية كلها عن الدعوة ، وعرف العالم كله وقتئذ بالاسلام ، وبدأت الوفود تأتي بنفسها طائعة مختارة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) لتعلن إسلامها رسمياً ، أو لتتعلم الدين ثم تتولى بعد ذلك نشر الدعوة في أقوامها ، ووفد على النبي (صلى الله عليه وسلم) عشرات الوفود من جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وكان أكثرهم في السنة التاسعة من الهجرة حتى سميت سنة الوفود ، ورأينا جميع القبائل العربية تقريباً يأتي ممثلون عنها إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يعلنون إسلامهم وفي مقدمتهم وفد ثقيف الذين لاقى النبي منهم مالاقى ، وقاوموا الدعوة حتى استدلوا للرسول أخيراً حين حاصرهم بالطائف ، وقد طلبوا من النبي إعفاءهم من الصلاة وأن يدع لهم صنمهم (اللات) ثلاث سنوات مقابل إعلان إسلامهم ، لكن الرسول أبى عليهم ماطلبوه وقال (إنه لاخير في دين لاصلاة فيه) .

ولما طلبوا من الرسول أن يترك لهم اللات سنتين رفض أيضاً ، فطلبوا سنة فرفض أيضاً ، ثم شهراً واحداً بعد انصرافهم إلى قومهم لكنه رفض ذلك كله رفضاً لاتردد فيه ولاهوادة ، ثم اضطروا لقبول الاسلام وإقامة

الصلاة ، إلا أنهم طلبوا ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فوافق الرسول وأرسل معهم أباسفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم اللات ، وأمّر عليهم أحدثهم سناً عثمان بن أبي العاص لأنه كان أحرصهم على الفقه فى الاسلام وتعلم القرآن بشهادة أبى بكر والسابقين إلى الاسلام وأقاموا فى المدينة مع الرسول مابقى من رمضان وصاموه معه وهو يبعث لهم بفطورهم وسحورهم [1] .

وبهدم اللات وإسلام الطائف كانت الحجاز كلها قد أسلمت وكان سلطان محمد (صلى الله عليه وسلم) ودولة الاسلام قد امتد من بلاد الروم فى الشمال إلى بلاد اليمن وحضرموت فى الجنوب ، وكانت هذه البلاد الباقية فى جنوب الجزيرة تتهيأ كلها لتنضم إلى الدين الجديد ولتقف على الدفاع عنه وعن وطنها بكل قوتها[2] .

وأخذت الوفود تترى واحداً وراء الآخر يعلنون إسلامهم وانضمامهم إلى الدولة الاسلامية ، وظلت الوفود تصل إلى المدينة من حضرموت والبحرين وعمان ومن كل أنحاء الجزيرة العربية بالعشرات كما قلنا[3] .

وكان بعض هذه الوفود نصارى لم يسلموا كنصارى نجران الذين

---

(١) راجع قصة إسلام أهل الطائف (ابن هشام من ص ٥٣٧ إلى ٥٤٢ القسم الثانى) .

(٢) حياة محمد ص ٤٢٨ - ٤٣٩

(٣) المرجع السابق ص ٤٣٨ ، ٤٢٩

(٤) راجع الحديث عن الوفود (ابن هشام من ص ٥٦٠ إلى ٥٩٨ القسم الثانى) .

استقبلهم النبى فى مسجده وأذن لهم أن يصلوا فيه صلاتهم وعقد معهم معاهدة بقوا فيها على دينهم فى مقابل تعهدات تدل على حسن نيتهم نحو الدعوة بتركها حرة تشق طريقها فى أمان الى المتعطشين اليها لا يعترضونها ولا يعينون على المسلمين ولا يسيئون اليهم أية إساءة ، وعلى أن يؤدوا الجزية[١] .

وهكذا اضطرت القبائل العربية الى أن تذعن للنبى ، لالمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية فى بلاد العرب ؛ بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفاً عديم التأثير[٢] .

---

(١) زاد المعاد ص ٣٨، ٤٠ ج ٣
(٢) أرنولد ص ٥٩ ، ٦٠

موقف اليهود من الدعوة الإسلامية

مما لا شك فيه أن يهود المدينة كانوا على علم بما تم بين النبي وبين الأوس والخزرج من اتفاق فى بيعة العقبة الكبرى ، وقد رأوا بأعينهم نشاط الدعاة فى يثرب قبل وصول النبى ﷺ إليها ، ولم يكن فى مقدورهم أن يمنعوا هذا الاتفاق ، أو يقفوا فى وجهه فقد كانت القوة فى يد العرب ، وفى استطاعتهم أن يدخلوا إلى المدينة من يشاؤون دون خوف اعتراض اليهود عليهم ، ولعلهم كانوا يعتقدون أن قدوم الرسول إلى يثرب فى مصلحتهم ، فقد ظنوا أن فى مقدورهم استمالته إليهم وادخاله فى حلفهم ، فانه يدعو إلى ديانة تتفق فى جوهرها مع عقائدهم ، ولو أفلحوا فى ضمه اليهم فربما استطاعوا أن يعيدوا إلى أنفسهم مركز التفوق فى يثرب ، ولذلك أحسنوا استقباله وبادر هو إلى رد تحيتهم بمثلها ، وإلى توثيق صلاته بهم[1] .

وقد عقدوا معه عهدا وكانوا يطمعون فى أن يضموه إلى دينهم وفى أن يزدادوا به على النصارى منعة وقوة ؛ ولذلك تقربوا إليه وتقرب هو اليهم وتحدث إلى رؤسائهم وكبرائهم وربط بينه وبينهم برابطة المودة باعتبارهم أهل كتاب موحدين[2] .

وكان النبى يصوم يوم صومهم ، وقبلته فى الصلاة كانت ما تزال إلى بيت المقدس قبلة أنظارهم ومثابة بنى إسرائيل جميعاً ، وقامت علاقة طيبة بين

( ) مكة والمدينة ص ٤٧٣

(٢) حياة محمد (هيكل) ص ١٩٧

أصحابه من المهاجرين وبين اليهود ، فكانوا يغشون مجالسهم ويذهبون إلى بيت مدارسهم يتحدثون إليهم ويسألونهم ويسمعون منهم ويرون التوراة تصدق القرآن ، والقرآن يصدق التوراة [1] .

واستقرت الأحوال فى يثرب وأصبحت حرما لأهلها ، وبدت المدينة وكأنما تسير إلى ما كان ينشده لها أهلها من هدوء وتقدم ، وأخذ النبى يتجه إلى بناء الدولة الجديدة وضمان الأمن لها فى الداخل والخارج ونجحت السرايا التى أرسلها حول المدينة لتأمين ريفها وعقد المحالفات مع القبائل الضاربة على جنباتها .

وهنا وجد اليهود أن دعوة الإسلام بدأت تنتشر ، وسلطانها الروحى يمتد والنبى ﷺ الذى طمعوا فى ضمه إلى صفوفهم ليزدادوا به قوة ، أصبح هو أقوى منهم وهو يتجه بقوته إلى المجال الخارجى ، ويعمل على توسيع نطاق دعوته ونفوذه ، بل وجدوا أن دعوته قد امتدت إلى اليهود أنفسهم واعتنق الاسلام رجل من علمائهم وأحبارهم هو عبد الله بن سلام القينقاعى الذى لم يلبث أن اتصل بالنبى فأسلم هو وأهل بيته ، وجابه اليهود باسلامه ودعاهم إلى الإسلام [2] .

فقد خافوا أن تمتد دعوته إلى باقى اليهود وتفشوا فى عامتهم على حين تقضى تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى إسرائيل [3] .

وهنا بدأت حروب الجدل بين النبى ﷺ واليهود وكانت أكثر مكرا

---

(١) راجع تفسير الطبرى ج ٢ ص ٣٨١ : ٣٨٤
(٢) حياة محمد ص ١٩٨
(٣) ابن هشام ٥١٦ ، ٥١٧ القسم الأول

ولددا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش فى مكة ، فقد تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، أقامتها اليهود جميعاً صفوفاً متراصة يهاجون بهـا محمدا ورسـالته وأصحابه المهاجرين والأنصار[١] .

ودسوا من أحبارهم من أظهر الإسلام وأخذ يجالس المسلمين ويظهر الورع والتقوى ثم يلقى على النبى من الأسئلة ما يحسبه يثير الشكوك والريب ويزعزع فى نفوس المسلمين عقيدتهم به وبرسالته[٢] .

وقد انضم اليهم جماعة المنافقين من الأوس والخزرج ليسألوا ويشاركوا فى الوقيعة بين المسلمين[٣] .

ولقد بلغ هذا الجدال بين محمد ﷺ واليهود مبلغا من الشدة شهـد به ما نزل من القرآن فيه (ولقد آتينا موسى الـكتاب وقفينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس أفـكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ، وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ، ولمـا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمـا معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الـكافرين)[٤] .

كان اليهود لا يتركون فرصة يمـكن لهم أن يوقعوا فيها بين المهاجرين

---

(١) حياة محمد ص ١٩٨
(٢) ابن هشام ص ٥١٣ القسم الأول
(٣) ابن هشام ص ٥١٣ ، ٥١٩ القسم الأول
(٤) سورة البقرة : ٨٧ - ٨٩

والأنصار وبين الأوس والخزرج إلا صنعوها ، ولم يكفهم فتنة الناس عن دينهم ، ومحاولة ردهم إلى الشرك دون تهويدهم ، وصدهم لمن يريد الإسلام من المشركين ، بل حاولوا فتنة النبى نفسه وذهب أحبارهم وأشرافهم وسادتهم إليه وقالوا له (يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم وسادتهم وإنا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفوك ، وأن بيننا وبين قومنا خصومة أفنحا كمهم إليك فتقضى لنا عليهم فنؤمن بك ونصدقك [1]) .

فأبى النبى فأنزل الله فيهم (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)[2] .

ولقد حاولوا أيضاً حين ضاقوا ذرعا برسول الله أن يقنعوه بالذهاب إلى بيت المقدس ، وهم يريدون بذلك إجلاءه عن المدينة ليخلو لهم الجو ، وذكروا له أن من سبقهم من الرسل ذهبوا جميعاً إلى بيت المقدس وكان به مقامهم [3]) .

لكن الرسول عرف أنهم يمكرون به ويريدون بذلك ابعاده عن المدينة خاصة بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من القوة والمنعة وانتشار الاسلام ، بل لقد بلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حداً كان يصل أحياناً برغم ما بينهم من عهد إلى الإعتداء بالأيدى[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ص ٦٧ ج ٣
(٢) سورة المائدة : ٤٩ ، ٥٠
(٣) حياة محمد ص ٢٠٠ ، ٢٠١
(٤) المرجع السابق

ولقد رأى بعض الباحثين[1] . أن اليهود كادوا وكابروا ولم يبقوا فى نطاق جحود نبوة النبى وتنزيل القرآن وفى نطاق المكايدات والمكابرات والمحاكمات الكلامية طويلا . بل تجاوزوه إلى الغدر ونقض العهود والعداء الفعلى الصريح منذ عهد مبكر . فكانت مواقفهم هذه هى السبب المباشر لدور التنكيل الذى بدأت فصوله فى الربع الأول من العهد المدنى ثم استمر إلى أن تم أجلاؤهم عن المدينة .

ولقد تحدث القرآن الكريم عنهم كثيراً . وشغلوا فى القرآن المدنى حيزاً واسعاً من بدء تنزيله خصوصاً فى سور (البقرة وآل عمران والنساء والمائدة) . عدا غيرها من السور الثانوية[2] .

ولقد حاكوا كثيرا من المؤامرات للرسول ﷺ وشجعوا المنافقين وشاركوهم فى كثير منها ؛ بل إنه يمكن أن يقال إنهم هم الذين أوجدوهم بما بثوا ونموا فيهم من الريب والشكوك، وبما أيقظوا فيهم من روح التمرد والكيد وغذوها ؛ ولولاهم لما نما المنافقون وما ثبتوا . وما كان منهم ذلك الأذى البالغ والكيد الشديد .

ولقد تحالفوا مع القرشيين وبذلك نبذوا العهد وخانوه وأصبحوا أعداء بعد أن كانوا رعية من رعايا الدولة الإسلامية ؛ بل ظاهروا القرشيين حربياً وساعدوهم ؛ وكان جزاء كل طائفة وعقابها بحسب ما اقترفت وما ارتكبت من ذنب ؛ وليس عجيباً أن تكون الأحكام التى حكم بها الرسول ﷺ مما لا تخالف اطلاقا الشرائع ولا القوانين ولا النظم المعمول بها فى دول العالم

---

(١) محمد عزه دروزه (سيرة الرسول ص ١١١) ج ٢

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ ج ٢

القديم والحديث . مما سنوضحه بعد إن شاء الله .

وحين نكتفي بهذه الآيات الخمس من سورة البقرة والتي هي أول ما نزل بشأن اليهود حيث تعتبر من أوائل ما نزل من القرآن المدني على الأرجح [١]

حين نقرأ هذه الآيات نجد فيها دلالة صريحة على أن اليهود لم يقابلوا الدعوة الإسلامية مقابلة حسنة ، ويلفت النظر ما فيها من نهي لهم من أن يكونوا أول كافر بالقرآن وعن إلباس الحق بالباطل وكتم الحق وهم يعرفونه ؛ ثم إلى السؤال الإنكاري عن أمرهم الناس بالبر وعدم سيرهم فيه . وفي كل هذا دلالات على تلك المقابلة أولا، ثم على ظهور أمارات وقوفهم منها موقف الجحود والتعطيل ثانياً .

(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلا وإياي فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون [٢] .

ولقد قرر القرآن بعد أن ذكر كثيرا من أخلاق اليهود السيئة والفاسدة أن هذه جبلة فيهم يتوارثها الأبناء عن الآباء فاستحقوا بذلك يمين الله (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) [٣]

---

(١) سيرة الرسول (دروزه ص ٥٧) ج ٢
(٢) سورة البقرة : ٤٠ — ٤٥
(٣) سورة الأعراف : ١٦٧

وجزاهم على هذا بتشريدهم فى مشارق الأرض ومغاربها (وقطعناهم فى الأرض أمما [1]) .

وقد وصفت آيات أخرى من سورة البقرة (آيات ٨٧ إلى ٩٣) موقفا آخر من مواقف الجحود ؛ وقررت صراحة السبب الذى جعلهم يقفون موقفاً جحودياً مناقضاً لمواقفهم السابقة على البعثة التى كانوا يستفتحون بها على العرب فيجحدون شيئاً عرفوه حق المعرفة وبشروا به فاستحقوا هذه الحملات الشديدة واللعنات القاسية بسبب البغى والحقد والحسد (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ... الآيات) .

وقد وصل الأمر باليهود زيادة على جحودهم أن خرجوا عن حدود الأدب مع النبى ﷺ وتجاوزوا هذا النطاق من الجحود وزادوا عليه السخرية والبذاءة ، وقد تضمنت هذه الآية من سورة النساء موقفا من هذه المواقف التى وقفوا فيها ساخرين من النبى ﷺ فكانوا يلوون ألسنتهم بكلمة (راعنا) حتى تؤدى إلى نعت النبى بالرعونة ، ويجهرون بعصيانه بما يأمر ويدعو ؛ ويستعملون كلمة (عصينا) على (سمعنا) استخفافا به بدلا من الجملة العربية المعتادة (سمعنا وأطعنا) أو (سمعا وطاعة) [2] (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) [3] .

بل وصل الأمر إلى إساءة الأدب مع الله فقالوا (إن الله فقير ونحن

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٨

(٢) سيرة الرسول (دروزه) ص ١١٢ ج ٢

(٣) سورة النساء : ٤٦

أغنياء [١]) (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم [٢]) .

وعلى الجملة فانه يمكن أن يقال إن اليهود تظاهروا بالايمان وتواصوا بعكسه ، ومما صنعوه باختصار .

١ ـ تدليسهم باسم التوراة :

٢ ـ محاولتهم تشكيك المسلمين فى صحة أفعال النبى وخاصة فى أمر تحويل القبلة .

٣ ـ كتمهم ما فى التوراة من المحرمات بقصد التشكيك .

٤ ـ تآمرهم بالظاهر بالايمان ثم الرجوع عنه لتشكيك المسلمين .

٥ ـ دسهم بقصد إثارة الفتن والشكوك .

٦ ـ سخريتهم بالاسلام والصلاة والآذان .

٧ ـ تآمرهم مع المنافقين والمشركين .

٨ ـ تحالفهم مع المشركين وتشجيعهم لهم على الثبات على الشرك ، واتفاقهم معهم على انقضاء على الكيان الإسلامى .

كل هذه الأشياء تحدث عنها القرآن بالتفصيل ولسنا هنا فى معرض الحديث عنها [٣] .

ولقد تحدثنا وأطلنا الحديث فى هذه المقدمة عن كيد اليهود للدعوة والدولة الاسلامية ، وذلك لأن الكتاب اليهود ، وكثيرا من المستشرقين رأوا فى توالى فصول التنكيل باليهود ما جعلهم يزعمون أن النبى ﷺ قد

---

(١) آل عمران ١٨١

(٢) المائدة ٦٤

(٣) يراجع سيرة الرسول (دروزه) من صفحة ٤٦ فما بعدها .

بيت نية التنكيل بهم وإثارة حرب عنصرية دينية ضدهم من البدء وإذا لم يكن قد نفذ نيته فيهم مرة واحدة فلأنهم لم يكن له قبل بهم جميعاً [١]) .

وزعموا أن الرسول نكث بما عاهدهم عليه ، من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية ، وأنه كان ميالا إلى سفك الدماء وطامعاً فى أموالهم لاغداقها على المسلمين .

ولقد اختصرنا برغم هذا ما صنعوه إزاء الدعوة الإسلامية ، وإزاء الدولة التى تكفلت لهم بالحرية وأعطتهم من الأمان والثقة ما أعطته للمسلمين أنفسهم .

وسنثبت إن شاء الله أن ما صنعه الرسول باليهود لم يخرج اطلاقا عما يمكن أن يصنعه أى حاكم لدولة من دول العالم القديم أو الحديث يريد حمايتها وحفظ كيانها ، وكان الرسول ﷺ برغم ما صنع رحيما بهم ، فقد اتسع صدر النبى لهم سعة كبيرة فتمتعوا بحريتهم الدينية والاقتصادية والسياسية والشخصية إلى أبعد حد ، ولم يتحرك الرسول ﷺ لاتخاذ إجراء نحوهم إلا بعد أن طفح الكيل من دسائسهم ومكائدهم وأذاهم ، ووصل الحد إلى التمسك بالعهد والأذى والغدر والتآمر والاضرار بكيان المسلمين مما وضحته كثيرا من آيات القرآن الكريم ، التى ذكرنا نماذج منها ، وما حفلت به كتب السنة والتاريخ .

---

(١) المرجع السابق ص ٤١٢ ج ٢

موقف الدولة الإسلامية من اليهود

أولا : اجلاء بنى قينقاع وأسبابه : ـ

كان يهود بنى قينقاع هم أول من نقضوا ما بينهم وبين رسول الله من عهود ، ويكاد الرواة يجمعون على أن سبب إجلاء بنى قينقاع عن المدينة هو حادثة المرأة العربية التى ذهبت إلى سوقهم وجلست إلى صائغ يهودى ، وطلب منها بعض اليهود الموجودين عنده كشف وجهها فأبت فعقد أحدهم طرف ثوبها إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا ، وأخذت الغيرة رجلا من المسلمين فشد على الصائغ فقتله ، وانتصر اليهود لصاحبهم وقتلوا المسلم ، فغضب المسلمون وحملوا على اليهود ثم ضربوا الحصار حولهم .

وعندى أن المسألة لم تكن مسألة امرأة عربية اعتدى عليها ، وإنما كانت هذه الحادثة هى الشرارة التى أشعلت الفتيل .

فاليهود كادوا للرسول والمسلمين ، وخرجوا على الدولة خروجا سافرا بعد الذى جرى بينهم وبين الرسول من مناقشات ومساجلات ومماحكات ـ وما حدث من اليهود من كيد وفتن للدولة ، وأصبح المسلمون بعد ذلك إما أن يسكتوا عنهم ويتحملوا أذاهم الذى قد يؤدى إلى إشعال الفتنة وتمزيق (وحدة الأمة) ، (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً[1]) وإما أن يقاتلوهم ويتخلصوا منهم وينظفوا المدينة من مفاسدهم

---

(١) سورة المائدة : ٦٤

لتستقيم الحياة فيها وتسير فى طريقها المرسوم لها ويظل الشعب متماسكا قوياً متحداً ضد العدو الخارجي - وحينما تنهار الأمة وتسقط تتفشى المفاسد .

ولقد رأى الرسول بعد حادثة المرأة العربية التى جعلت الأمر أكثر مما يحتمل . . رأى أنه لابد من التحرك السريع واتخاذ التدابير الكفيلة بحماية الدولة والدعوة ؛ فذهب إليهم وكان هذا بعد انتصار المسلمين فى بدر وزار سوقهم ، واجتمعوا حوله فدعاهم إلى الإسلام والدخول فى دينه لأن ذلك أفضل وسيلة لحل مشكلتهم لو تم ، وقال لهم (يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم [1]) .

فردوا عليه بصلف وكبرياء ؛ وقالوا والعجب والغرور يملأ أوداجهم (يا محمد إنك ترى أننا كقومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس [2]) .

ومعنى هذا أنهم يقفون فى وجه الحاكم ويهددونه ويحاولون إفهامه أنهم أقوياء ، وأنه لا يستطيع أن يحاربهم أو يناجزهم بالحرب ؛ وكان من حق الرسول كرئيس للدولة أن يتخذ الإجراء الوقائى الذى يراه مناسباً للحفاظ على أمن الدولة وكيانها ، فحاصرهم بقوات المسلمين وطلب منهم الخروج إلى المدينة بعد أن ظلوا محاصرين خمسة عشر يوما [3] . اضطروا بعدها إلى النزول على حكم الرسول والتسليم بقضائه - وانتهت مشاورات النبى مع أصحابه باجلائهم .

---

(١) ابن هشام ص ٤٧ القسم الثانى

(٢) المرجع السابق ص ٤٩

(٣) المرجع السابق

وكان من حق النبي قتلهم جميعاً بعد ما ثبتت خيانتهم ونقضهم للعهد . إلا أن عبد الله بن أبي تشفع فيهم وطلب من الرسول أن يرفق بهم وقال الرسول أحسن في موالي ، ووافق الرسول بعد أن ألح عليه بن أبي [١] ، ووجد الرسول عبادة بن الصامت أيضاً يطلب منه نفس الطلب [٢] .

ويرى بعض المؤرخين أن الرسول كان قد فكر في قتلهم بعد إستشارة أصحابه [٣] ولو نفذ الرسول القتل فيهم ما كان عليه شيء ولاستحقوه بعد الذى صنعوه مع النبي والمسلمين وخانوا العهد والميثاق ، وقد خرجوا إلى أذرعات على حدود الشام وبها أقاموا [٤] .

ولقد خلت المدينة من اليهود بعد جلاء بنى قينقاع عنها ويعتبر هذا الذى حدث تصرف سياسى آية فى الدلالة على الحكمة وبعد النظر ، وهو مقدمة لم يكن منها بد للآثار السياسية التى ترتبت بعد ذلك على خطة محمد ﷺ فى تجميع السكان وتوحيدهم ، فليس شيء أخطر على وحدة مدينة من المدن من تنازع الطوائف فيها ، ولم يقتل النبي منهم واحداً ولم يفقد منهم أحد ، وكانوا أول يهود أجلاهم المسلمون عن جزيرة العرب ، وكان إجلاؤهم على هذا المنوال نذيرا للقبائل اليهودية الأخرى [٥] ولقد فضلوا الجلاء بعد أن أحسوا أنه لم يعد فى إمكانهم البقاء فى المدينة بعد أن انتزع المسلمون منهم السيادتين (السياسية والاقتصادية) وصار عليهم أن يقيموا تحت سلطانهم .

---

(١) حياة محمد ص ٢٤٧
(٢) المرجع السابق
(٣) المرجع السابق
(٤) نفس المرجع
(٥) أمين سعيد ص ٧٠

فلقد فوجىء اليهود وكانوا يتحكمون فى الميدان الاقتصادى والتجارى فى المدينة بعناصر جديدة تنافسهم ، وما لبثت أن تضاءلت بجانبهم خبرة اليهود التجارية ، فوجىء اليهود بالمهاجرين المكيين وفيهم ما فيهم ممن برعوا فى التجارة وهى مهنتهم الأصلية ؛ ولم يكن فى الجزيرة العربية أبرع من القرشيين فى ذلك الوقت ؛ فما لبثوا أن نظموا سوق المدينة وأجروا فيها التعامل على أسس جديدة جاء بها الإسلام ، فلا ربا ولا إرهاق ولا طرقا ملتوية تذهب بأموال الناس ، وبذلك نجحوا نجاحاً كبيراً وجنوا أرباحاً لا بأس بهـا ، وسيطروا أوكادوا على سوق المدينة .

(والمعروف أن يهود بنى قينقاع كانوا صاغة وتجارا [1]) .

والمال وجمه عنصر حساس عند اليهود يبيحون لأنفسهم فى سبيله مالا يباح من دين أو شرف ، وربما كان هذا من أهم الأسباب التى غيرت من معاملة اليهود للمسلمين وأثارت ثائرتهم ؛ فأخذوا يكيدون للاسلام والمسلمين وخانوا الدولة ؛ وانبرى شعراؤهم ينظمون الشعر فى هجاء الرسول والمسلمين ويحرضون على حربهم ويشببون بنساء الأنصار [2] .

ولهذا نرى أنه كان لابد من إجراء حاسم يتخذ ضد هؤلاء اليهود لانقاذ الانهيار الذى يكاد أن يقضى عليها لولا يقظة الرسول وسياسته المرنة فى علاج عناصر الضعف الداخلى فى كيان الدولة ، والتى كانت تتمثل فى اليهود ، والمنافقين .

وكان تجمع اليهود ضد الاسلام واتفاقهم عليه وتآمرهم الجماعى وخياناتهم

---

(١) زاد المعاد ص ٧١ ج ٢

(٢) ابن هشام ص ٥١ — ٥٤ القسم الثانى .

للدولة هو السبب فى اتخاذ الرسول هذا الإجراء ضدهم ، وهو كما قلنا اجراء كان يمكن أن يتخذه أى حاكم دولة ضد متمردين على الحكم خارجين على النظام .

أما المنافقون فكان لهم وضع خاص وظروف معقدة شائكة تقتضى تصرفاً آخر لا يؤدى إلى إنهيار أكثر وصدام مسلح ، وربما لو لم تعالج مثل هذه الأمور بحكمة لأدت إلى حرب أهلية ، الأمر الذى جعل الرسول ﷺ كحاكم يريد لأمته الخير والوحدة والاتحاد ، أن يتصرف بحكمة ولباقة ، وأن ينبه فقط إلى خطورة هؤلاء على الناس دون أن يتخذ إجراء مادياً ضدهم ومن حقه أن يفعل هذا ويتخذ الإجراء المناسب لردعهم من أجل مصلحة الدولة وكيانها وسلامتها ، لأنهم فى حقيقة الأمر أخطر بكثير من اليهود ، وأهم عنصر من عناصر الضعف فى قلب الأمة أى أمة ، وسنتحدث عن المنافقين فى صفحات تالية إن شاء الله .

وقد عالج النبي ﷺ موقف اليهود فى براعة وقدرة ، واختار الوقت المناسب ليتحرك سياسياً نحوهم ، ليتغلب على حساسية الموقف ، وذلك لمحالفة بنى قينقاع لبعض بطون من الخزرج ، وكانت هذه المحالفات لا يزال لها أثر فى نفوس هذه البطون [1] .

فكان لابد أن يعمل النبي حساباً لشعور هذه البطون المسلمة ، فصبر حتى تحين الفرصة ليقلم أظفارهم حتى رأى نفسه مضطراً فى النهاية إلى التخلص منهم نهائياً .

ولقد دل حادث بنى قينقاع على ضعف رابطة اليهود الاجتماعية فى الحجاز

---

(١) راجع زاد المعاد ص ٧١ ج ٢ ، مكة والمدينة ص ٤١٥ .

وإذا كانوا قد سيطروا على شمال الحجاز فما ذلك إلا لكثرة عددهم ووفرة ثروتهم ، وجمع المال من الغرائز المركوزة فى روح اليهودى على عكس الغريزة السياسية عندهم ، فهى مفقودة أو ضعيفة على الأقل [1] .

ولقد تصرف الرسول تجاه اليهود تصرفاً حكيما عادلا حيث اتخذ من إجراءات الطرد والقتل بمقدار الضرورة ، وبقصد إزالة الضرر والخطر فقط ولمن يستحق العقوبة وحده دون غيره ـ ويدل هذا أيضاً على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من نطاق الكلام إلى الغدر والعداء العملى فى وقت واحد ، وربما كان هذا بسبب أنهم كانوا كتلا مستقلة ، كل كتلة أو قبيلة تسكن فى محلة خاصة ، وكان الولاء لا يزال موزعا بين الأوس والخزرج اللتين كانتا فى خصومة قديمة قبل الهجرة .

كذلك فيهود بنى قينقاع يساكنون الرسول فى قلب المدينة وكانوا محتكين بالنبى والمسلمين أكثر من غيرهم ، واتصالهم بالمنافقين ومحاولاتهم الدس والخديعة والتحريض ضد الدولة كان ميسوراً وكان ظاهراً ومكشوفا ، أما يهود بنى النضير فكانوا لا يسكنون فى قلب المدينة وإنما كانوا ينزلون فى ضاحيتها من جهة الغرب فى بطحان ، وبنى قريظة يسكنون فى ضاحيتها من جهة الجنوب الشرقى فى مهزورا [2] .

---

(١) أمين سعيد ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ .

الدولة الإسلامية وبنى النضير

عرفنا مما سبق أن الرسول ﷺ حين أصدر أمره بإجلاء يهود بنى قينقاع عن المدينة إنما كان ذلك إجراء وقائياً اتخذه كحاكم بعد أن ثبت له خروجهم على الدولة وكيدهم لنظامها الدينى والسياسى ومحاولاتهم تفتيت وحدة الأمة وتضليلهم وتحريضهم على نبذ تعاليم الإسلام ، واعتداءهم على حرمة الأعراض وسبهم للرسول ومحاولة تحريفهم لكلام الله . الأمر الذى لا يمكن السكوت عليه .

ولما كان الرسول ﷺ قد رأى أو ظن فى أول الأمر ، أن يهود بنى قينقاع وحدهم هم سبب كل هذه المشاكل أو هم على الأقل أكثر اليهود تحريضاً وخروجاً على الدولة ، صنع بهم وحدهم ما صنع ولم يتعرض ليهود بنى النضير أو يهود بنى قريظة ، لعله أو اعتقاده أنهم لم يشاركوا فى هذا التمرد والانحراف ، أو لعله عرف عنهم شيئاً من هذا . إلا أنه لم يصل إلى الحد الذى يوجب اتخاذ اجراء ضدهم ، أو لعله ظن أن طرده لبنى قينقاع سيكون رادعا ونذيرا لغيرهم فلا يفكر فى الخروج على النظام أو معاداته والوقوف فى وجه الدعوة أو الدولة .

لكن الأيام أثبتت أنهم جميعاً يكيدون للاسلام ويتمنون زواله ولا يتركون فرصة للنيل منه إلا وصنعوها ، فانهم ما لبثوا بعد هزيمة المسلمين فى أحد . حتى بدأوا يدبرون مؤامرة خطيرة للتخلص من النبى والقضاء على الوضع القائم فى يثرب كله مستعينين فى ذلك بتلك الجماعة المنافقة بزعامة (عبد الله بن أبى) وقد بدأ النبى يحس بهذا الموقف فى المدينة إلا أنه استدرجهم ليكشف

من نياتهم [1] .

ولقد كان النبي ﷺ يظن أنه سيستريح وتهدأ الأحوال بعد التخلص من شاعرهم كعب بن الأشرف الذى انطلق يرسل الأشعار فى هجاء المسلمين ويشبب بنسائهم وذهب إلى مكة يرثى أصحاب القليب (قتلى قريش) ، ويحرض قريشاً على المسلمين بعد انتصار المسلمين فى بدر [2] .

فقد ذهب كعب ورهط من بنى النضير إلى مكة واتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي والمسلمين على رغم ما كان بينهم وبين بنى النضير من عهد وسلام [3] .

كان النبي يظن أنهم سيرتدعون وينتهون من عدائهم للمسلمين ، إلا أنه عرف أنهم جميعاً وبلا إستثناء يكيدون له ولأصحابه ، وأن زعيمهم (سلام بن مشكم) آوى أبا سفيان فى غزوة السويق بعد بدر وأطلعه على أسرار المسلمين [4] وتأكدت لديه خيانتهم حينما ذهب اليهم يطلب منهم أن يعاونوه فى دية قتيلين من بنى عامر قتلهما عمرو بن الحضرمى ، فاتفقوا فيما بينهم على أن يلقى أحدهم صخرة كبيرة عليه ليقتلوه بها [5] ، فما كان من النبى إلا أن أرسل إليهم (محمد بن مسلمة) يقول لهم إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، لقد أجلتكم عشراً فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه [6] .

---

(١) مكة والمدينة ص ٤٨٧ بتصرف

(٢) راجع ابن هشام ص ٥١ ، ٥٢ وما بعدهما القسم الثانى .

(٣) سيرة الرسول (دروزه) ١٢٠

(٤) مكة والمدينة ص ٤٨٧

(٥) ابن هشام ص ١٩٠ القسم الثانى وزاد المعاد ص ٧١ الجزء ٢

(٦) حياة محمد (هيكل) ص ٢٧٦

موقف الرسول ﷺ من خيانة بنى النضير

ولم يكن هذا أيضاً بسبب محاولة قتل الرسول فقط مع أنها تكفى لقتلهم جميعاً ، ولكنها كانت أيضاً ، الشرارة التى أشعلت الفتيل والنقطة التى ملأت الكأس ، فلقد قال الله فيهم فى سورة الحشر والتى يسميها ابن عباس سورة بنى النضير [1] .

ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب [2]

ومع أن اليهود مالوا فى أول الأمر إلى التسليم والجلاء إلا أن الدسائس التى دست والوعود التى بذلت جعلتهم يرفضون قبول الإنذار ويرسلون إلى النبى بلسان كبيرهم حيى بن أخطب قائلين : (إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع لنا ما بدالك [3] وقال لقومه (وما علينا إلا أن نرم حصوننا ندخل اليها ما شئنا ندرب أزقتنا وننقل الحجارة اليها وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤها لا ينقطع ولن يحصرنا محمد سنة كاملة [4]) ، وكان بن أبى قد أغراهم وشجعهم على المقاومة وأرسل إليهم يقول (لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصنكم فان معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان [5]) .

---

(١) سيرة الرسول (دروزه) ١١٧
(٢) سورة الحشر : ٣ ، ٤
(٣) أمين سعيد ص ٩١
(٤) المرجع السابق .
(٥) حياة محمد ص ٢٧٧ .

ولكن النبي تحرك إليهم بقواته واتجه إلى حصونهم ، ولما رأوه مقبلا قاموا إلى حصونهم وتحصنوا بها ومعهم سلاحهم ، وضرب المسلمون الحصار حولهم واستمر الحصار خمسة عشر يوما ، وهى المدة التى حوصر بها بنو قينقاع ، وقيل عشرين [1] ثم اضطروا إلى التسليم بعد أن تأكدوا من تصميم المسلمين على حصارهم وخذلان بن أبى لهم وبعد تقطيع بعض نخيلهم ارغاما وارهاباً [2]

ودارت مفاوضات انتهت بالوصول إلى اتفاق على القواعد الآتية [3] :

١ ـ جلاء بنى النضير عن منازلهم وأراضيهم .

٢ ـ تصان دمائهم وأرواحهم .

٣ ـ يحق لهم أن يأخذوا متاعهم .

٤ ـ يسلمون سلاحهم للمسلمين .

وخرجوا يحملون متاعهم ، فنزل منهم من نزل خيبرا وسار آخرون إلى أذرعات بالشام [4] .

وهكذا كان اخراج بنى النضير بسبب أنهم (شاقوا الله ورسوله) وناصبوا الرسول العداء أيضا ، وحاولوا قتله مرتين حيث حاولوا قتله قبل هذه المرة لما دعوه لوليمة لكنهم أخفقوا [5] ، ولم يفاجئهم الرسول ﷺ

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٨

(٢) دروزه ص ١١٩ ج ١ وراجع فى هذا الموضوع ابن هشام من ص ١٩١ إلى ص ١٩٥ القسم الثانى .

(٣) أمين سعيد ص ٩٣ ج ٢ وراجع ابن هشام ص ١٩١ ، ١٩٥ القسم الثانى .

(٤) حياة محمد ص ٢٧٨

(٥) محمد رسول الله (مولاى محمد على ص ١٣٠) .

بهذا الإنذار ولم تكن هذه أول مرة يخونون فيها بل إن الرسول ﷺ بعد أن رأى منهم ما رأى (قبل محاولتهم قتله فى المرة الأخيرة) عرض عليهم أن يختاروا بين اثنين إما الخروج من المدينة وإما الرجوع إلى العقل والاتزان وتجديد الحلف مع المسلمين . ولكنهم برغم قبول بنى قريظة لتجديد الحلف مع المسلمين عن طيب خاطر ، رفضوا هم ذلك الحلف الجديد فأصبحوا أعداء الإسلام السافرين [1] .

ولقد حدث منهم ذلك فى مرحلة عصيبة فى حياة المسلمين . فالمسلمون موتورون بهزيمتهم فى أحد وبقتل الدعاة الذين أرسلهم الرسول ﷺ إلى القبائل العربية لتعليمهم وكانوا من خيرة صحابة رسول الله ﷺ حين أرسل الرسول وفدا مكونا من عشرة من خيرة الصحابة . على رأسهم عاصم بن ثابت إلى قبائل عضل والقارة فغدروا بهم وقتلوهم [2] .

ثم أرسل وفدا آخر من سبعين من الدعاة مع أبى براء مالك بن عامر الملقب بملاعب الأسنة برئاسة المنذر بن عمرو للتبشير بالدين الإسلامى ونشره فى منطقة نجد ، لكن عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابى (ابن أخى ملاعب الأسنة) استنفر بعض القبائل عليهم فغدروا بهم وقتلوهم [3] .

حدث من بنى النضير ما حدث فى فترة حرجة فى حياة الدولة والاسلام ، وفى الوقت الذى كان فيه جميع أعداء الاسلام متشققين الـسـلام يحاولون تسديد الضربة القاضية إليه .

---

(١) نفس المرجع .

(٢) راجع ابن هشام ص ١٦٩ ، ١٧٠ القسم الثانى .

(٣) راجع القصة (ابن هشام ص١٨٤، ١٨٥ القسم الثانى) ويروى ابن هشام أنهم كانوا أربعين فقط لكن محقق السيرة النبوية لابن هشام ذكروا أن البخارى ومسلم وشرح المواهب وغيرهم ذكروا أنهم كانوا سبعين .

إن الهجوم من الخارج مخيف ، ولكن الإنفجار الداخلى الذى قد يحدث فى أى لحظة أدعى إلى الرعب القاتل ، ولما كان الاحتراس نوعا من أنواع الدفاع إن لم يكن أهمها ، كان الشغب المفاجيء الذى قد يحدث داخل أسوار المدينة نفسها معناه ضربة فى الصميم [١] .

ولما كان بنو النضير يظهرون الود والصداقة لأعداء الإسلام علانية . وكان رفضهم تجديد الحلف مع المسلمين بمثابة إعلان للحرب علاوة على محاولتهم إغتيال النبى الكريم . لم يكن فى الإمكان معاملتهم إلا معاملة الأعداء المعاندين ، ومع ذلك فقد اكتفى النبى ﷺ بطردهم والتصريح لهم بأخذ منقولاتهم فقط ، وجردوهم من سلاحهم واستولى على بساتينهم وقراهم الزراعية وذلك بسبب تمردهم وعدم قبولهم للجلاء فى أول الأمر .

وإذا كان المؤرخون يرون أن محاولة اغتيال الرسول هى السبب فيما حدث فإننا نقول أنها كانت السبب المباشر فقط والنقطة التى ملأت الكأس ، وأنه كان منهم قبل ذلك مواقف مشاقة مؤذية ومزعجة كثيرة طفح بها الكيل وحق عليهم من أجلها التنكيل [٢] .

---

(١) محمد رسول الله (محمد على) ص ١٢٠

(٢) دروزه ص ١٢٠ (سيرة الرسول) ج ١

ثالثا - الدولة الإسلامية ويهود بنى قريظة

أما يهود بنى قريظة فلقد كان الجزاء الذى وقعه الرسول ﷺ عليهم ، جزاء يتفق ويتناسب مع الجريمة التى ارتكبوها ، فبرغم الحلف المعقود بين الرسول وبينهم فقد وقفوا موقفاً عدائياً أشد خطورة من المواقف التى وقفها إخوانهم من بنى قينقاع وبنى النضير .

فاذا كان إخوانهم قد وقفوا موقفاً معادياً من الرسول وفكروا فى قتله واغتياله واكتفى الرسول برغم هذا بطردهم وإخراجهم من بلاده مع أنهم كانوا يستحقون أكثر مما حكم به عليهم ، إلا أن هؤلاء كان موقفهم من المسلمين موقفاً أخطر بكثير من مواقف إخوانهم .

فقد ذهب وفد من زعماء اليهود من بنى النضير المطرودين من المدينة إلى مكة ؛ ومن بين هذا الوفد (حيى بن أخطب وسلام بن أبى الحقيق وكنانة ابن أبى الحقيق ومعهم من بنى وائل هوذة بن قيس وأبو عمار [1]) .

وحرضوا زعماء مكة على غزو المدينة واستئصال شأفة النبى والمسلمين قبل أن يتفاقم أمرهم وليعلنوا تضامنهم معهم وأقسموا على ذلك عند أصنام المشركين فى فناء الكعبة (وهو ما تضمنته الآية ٥١) من سورة النساء (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) بل لم يكتفوا بهذا . وإنما ذهب الوفد إلى قبائل غطفان وقيس وغيلان وحرضها - على مثل ذلك . ومناها بخيرات

---

(١) ابن هشام ص ٢٦٤ القسم الثانى .

المدينة وأعلن تضامن اليهود معها وأخبرها بما تم الاتفاق عليه مع زعماء مكة فأجابوهم لذلك وتحالفوا معهم [(١)] .

ثم جاءوا إلى بنى قريظة ، وأقنعوهم بالإنضمام إلى جيش المشركين ضد الرسول ﷺ وأطلعوهم على ما تم الاتفاق عليه مع أهل مكة والقبائل العربية الأخرى التى ذهبوا إليها فوافقوا وانضموا فعلا إلى جيش الأحزاب المحاصر للمدينة .

وحين أرسل الرسول رسوليه (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) لمعرفة حقيقة انضمام اليهود للمشركين واتفاقهم معهم . سخر اليهود منهما وحاول سعد أن يقنعهم بعدم الخروج على الرسول ومعاداته مخافة أن يحل بهم ما حل ببنى النضير أو ما هو شر منه . (وكان سعد بن معاذ حليفاً لقريظة) لكنهم برغم ذلك سبوا رسول الله ، وقال كعب بن الأشرف مستهزئاً من رسول الله : (لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد [(٢)]) .

وحين وصل الأحزاب إلى خارج المدينة وحاصروها فوجىء المسلمون بقطع المدد والميرة عنهم [(٣)] . حينذاك وجد المسلمون أنفسهم محاصرين من الداخل والخارج حتى بلغ بهم الفزع وزلزلت قلوب ضعاف الايمان حتى قال بعضهم (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط [(٤)]) .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٥

(٢) راجع ابن هشام ص ٢٢١ وما بعدها القسم الثانى ، حياة محمد ص ٣٠١

(٣) حياة محمد ٣٠٢

(٤) ابن هشام ص ٢٢٢ القسم الثانى .

وفى هذا الموقف نزلت هذه الآيات من سورة الأحزاب - (إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتـلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) (١) .

ولولا أن النبى ﷺ استعمل الحكمة والسياسة وأشار على نعيم بن مسعود أن يخذل ما استطاع وكان قد أسلم فى خلال الحصار بعد أن جاء مع قومه غطفان لحرب الرسول ، ولم يعرف أحد باسلامه (٢) .

واستطاع نعيم بدهائه وثقة قريش واليهود وغطفان فيه أن يوقع بين قريش وقريظة وأن يوقع بينها وبين غطفان ولو لم يفعل ذلك ، فربما كان فى الأمر شيء آخر .

---

(١) سورة الأحزاب : ١٠ - ١٢
(٢) ابن هشام ص ٢٢٩ القسم الثانى

موقف الرسول من يهود بني قريظة

كان لابد من اتخاذ إجراء حاسم ضد بني قريظة وكان لابد جزاء ما صنعوا أن يلقوا جزاءهم العادل ليكونوا عبرة لمن يعتبر ، وحتى لا تتكرر أمثال هذه الخيانة فى المستقبل ، فأمر الرسول أن يؤذن مؤذن فى الناس (من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة [1] وحوصروا خمسة وعشرين ليلة [2] ثم اضطروا فى النهاية للتسليم ، وبعثوا إلى رسول الله يعرضون عليه الخروج إلى أذرعات تاركين وراءهم ما يملكون ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على الحكم [3] ، وحين طلب جماعة من الأوس من الرسول أن يقبل النبى من قريظة (وهم حلفاؤهم) ما قبله من حلفاء الخزرج [4] ، طلب الرسول أن يختار اليهود لهم من شاؤا فاختاروا سعد بن معاذ [5]

وقد أعماهم القدر الذى كتب لهم لوح حظهم فأنساهم مقدم سعد اليهم أول نقضهم للعهد وتحذيره إياهم ووقوعهم فى محمد ﷺ أمامه وسبهم المسلمين بغير حق .

وبعد أن أخذ سعد المواثيق على الفريقين (المسلمين واليهود) أن يسلموا لقضائه ويرضوا به ، أمر ببنى قريظة أن ينزلوا وأن يلقوا السلاح

---

(١) ابن هشام ص ٢٣٤ القسم الثانى

(٢) حياة محمد ص ٣٠٦ ، ابن هشام ص ٢٣٥ القسم الثانى

(٣) حياة محمد ص ٣٠٧

(٤) ابن هشام ص ٢٣٩ القسم الثانى .

(٥) المرجع السابق ٢٤٠

ففعلوا — فحكم سعد فيهم بقتل الرجال وتقسيم الأموال وسبي الذرية والنساء ونفذ فيهم الحكم .

وربما لو تركوا الأمر للنبي ما نالهم أكثر مما نال القبائل الشقيقة لهم من أمثال بني قينقاع وبني النضير واكتفى النبي بإبعادهم ، ولكن هكذا حكم سعد وهم الذين اختاروه لأنفسهم ، فقد عرف سعد أن خيانتهم في ساعة الخطر والحرج أمر فظيع وأن جريمتهم هذه التي ارتكبوها جريمة تستحق عقاباً صارماً رادعاً لهم ولغيرهم ، حتى لا تصبح المعاهدات والمواثيق في المستقبل شيئاً غير محترم ، والقصاص الذي يلحق بالعدو المهزوم وعلى الصورة التي جاءت في كتابهم المقدس (التوراة) التي يؤمنون بها : تقول التوراة : —

(وعندما يفتحها الله ربك إليك فسوف تقضي على كل رجل بحد السيف أما النساء والأطفال والأغنام وكل ما في المدينة من الغنائم فهو لك أنت وحدك ، وسوف تأكل غنائم أعدائك التي أعطاها لك الرب[1]) .

وقد جاء في سفر التثنية أصحاح ١٠ إلى ١٥ (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة غنيمة لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك)[2] ، لذلك نرى أن الرسول حين حكم سعد عليهم بما حكم يقول (لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة)[3] .

---

(١) محمد رسول الله (محمد علي) ص ١٢٣ .
(٢) عبقرية محمد (العقاد) ص ٦٣ .
(٣) ابن هشام ص ٢٤٠ القسم الثاني (الأرقعة = السموات) .

وإذا كان عقابهم أشد صرامة من عقاب من سبقهم فذلك لأن جريمتهم أشد أثرا وأبعد مدى ولم يعتبروا بما كان من إجلاء إخوانهم بنى قينقاع وبنى النضير ، فهم لم يكتفوا بالقعود عن الاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة عملا بما تقضى به العهود المكتوبة بينهم ، وكانت المدينة فى خطر شديد ، بل حرضوا وانضموا إلى أعداء المسلمين وخصومهم فى أشد ساعات الخطر وأدقها ، منتهكين حرمة القواعد الأخلاقية العامة .

ولئن كان الرسول قد عامل بنى قينقاع وبنى النضير بغير ما عامل به هؤلاء ، فلأن جريمة هؤلاء كما قلنا أشد وأخطر ، بل إن الرسول لم يعامل يهود خيبر بعدم معاملتهم ، مع أنهم حاربوه وظلت الحرب دائرة بينهم وبين الرسول أكثر من سبعة أيام ، فقد وافق الرسول على بقائهم فى أرضهم حين التمسوا منه ذلك بعد استسلامهم له وانتهاء القتال ، على أن يؤدى للمسلمين جزية مقدارها نصف النتاج[1] ، وقد قبل الرسول ملتمسهم برغم أنه كان يعلم أنهم لن يحفظوا عهده ، ولكن الرسول كان لا يعاقب إلا على قدر الجريمة التى تقع ، ولم تكن حرب الرسول بخيبر مجردة عن الأسباب وإنما عرف الرسول أنهم يعدون العدة لحربه ، خصوصاً بعد أن سمعوا أن قريشا قد حالت دون وصول النبى والمسلمين للبيت الحرام ، وأنه اضطر إلى عقد صلح بشروط رأوا فيها (كما تخيل بعض المسلمين أيضاً) — شيئاً من الإجحاف به ، فزاد هذا فى اعتقاد يهود خيبر أن الاسلام قد وهن ، وعادوا يدفئون صدورهم بآمال جديدة وأيقنوا بقرب زوال الاسلام واستئصاله من جذوره ، واتصلوا بغطفان يأتمرون من جديد ويطلبون منها تجريد حملة على المدينة ، وعلم النبى بما يضمرون واستوثق من الأمر بالتحرى الدقيق[2] .

---

(١) ابن هشام ٣٥٦ القسم الثانى .
(٢) محمد رسول الله (محمد على) ١٣٤

حينذاك لم يكن بد من التحرك لدفع الخطر قبل وقوعه ، فأصدر النبى أمره لقواته بالتحرك تجاه خيبر ودارت معارك انتهت باستسلام الخيبريين .

كذلك فربما كان من أسباب التساهل الكبير مع الخيبريين ومعاملتهم بغير ما عومل به بنو النضير حين أجلاهم عن أرضهم ، أنه أمن بسقوط خيبر بأس اليهود وأمن إلى أنه لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة أبدا ، وقد عاملهم الرسول معاملة حسنة فترك لهم كما قلنا أرضهم يزرعونها على أن يعطوا نصف ثمارها . ورد إليهم عدة صحائف من التوراة غنمها المسلمون حين الغزو ولم يصنع صنيع الرومان حين فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة ، وداسوها بأرجلهم ، ولا هو صنع صنيع النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التوراة [1]

وصالح النبى يهود فدك على إعطائه لهم نصف أموالهم من غير قتال بعد الذى علموا من أمر خيبر [2] .

ودان كل يهود الجزيرة العربية لسلطان الدولة الاسلامية وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى شبه الجزيرة وأصبح الرسول صلى الله عليه وسلم يأمن من ناحية الشمال إلى الشام ، وبرغم معاملة الرسول لهم معاملة طيبة إلا أنهم اضطروا لمهاجرة تلك البلاد بعد أن كانوا بها أعزة آمنين .

---

(١) حياة محمد ص ٣٦٠

(٢) ابن هشام ٣٥٣ القسم الثانى ، حياة محمد ٣٦٠

هل كان الاسلام خصماً لليهودية كدين ؟

حين يقرأ القارئ الحوادث والوقائع التي كانت بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) واليهود وما كان من إجلائهم عن المدينة ، ربما يتصور أنه كانت هناك فكرة مضادة لليهود من البدء كعنصر ولليهودية كدين وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يفعل ذلك إلا لأنه كان يود ألا يشاركه دين آخر في الجزيرة العربية غير الاسلام .

ولقد اتهم بعض المستشرقين[1] ، الرسول بأنه جعل الاسلام خصما لليهودية ثم خصما للنصرانية أيضاً .

خصوصاً بعد أن خاب أمله في اليهود خيبة مريرة وأنه حين جعل اليهود الاسلام خصما لهم ولم يعتبروه كاليهودية ، فإن الرسول جعل الاسلام خصما لليهودية مقابلا لذلك خصوصاً وأنهم لم يعترفوا بنبوته ولم يعترفوا بأن الوحي الذي أنزل عليه هو الوحي الذي عندهم[2] .

وقالوا : إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان قد بيت نية التنكيل وأثار حربا عنصرية دينية ضدهم من البدء ، وأنه إذا لم يكن قد نفذ فيهم ذلك مرة واحدة فلأنه لم يكن له قبل بهم جميعاً .

وقالوا : إن الرسول كان طامعاً في أموالهم لإغداقها على المسلمين ، وقد نكث بما عاهدهم عليه من الحرية الدينية والاقتصادية والاجتماعية[3] .

---

(١) يوليوس فلهوزن في تاريخ الدولة العربية ص ١٧ ترجمة محمد عبد الهادي أبوريده .

(٢) نفس المرجع السابق .   (٣) دروزه ص ١١٢ ج ٢

ولكن الحقيقة أن الرسول (ﷺ) لم ينظر إلى اليهودية ولا إلى النصرانية نظرة عداء وإنما : أقر بهما ديانتين سماويتين ممهدتين للاسلام . ولم ينظر إلى أتباعهما نظرة عنصرية كما قالوا .

بل كان يتصور أن اليهود والنصارى سيستجيبون للدعوة أكثر من غيرهم باعتبار أن الإسلام لا يطالب بالغاء هاتين الديانتين وإنما يطالب بالتصحيح ؛ وأن يعملوا بمقتضى كتبهم التى أنزلها الله على أنبيائه وهى مبشرة بالاسلام وجاء كتاب الاسلام مصدقا لما فيها . بعد أن دخلهما التحريف والتبديل . ولذلك لا يطالبهم الرسول ﷺ بأكثر مما طالبتهم به الديانتان السماويتان السابقتان عليه (يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله [1]) .

كذلك فان الرسول لم يكن يحارب اليهود طمعاً فى أموالهم والحصول على غنائمهم . ولا كرها لهم باعتبارهم يهود . وإنما كان الرسول يتمنى أن يعتنقوا الإسلام . وهو لا يزيد عن تصحيح ما غيروه وبدلوه فى دينهم . وكان يتمنى أن يكونوا هم أول المؤمنين به وأن يتحملوا هم عبء الدعوة إلى الله بما أوتوه من علم وما عرفوه من كتب سماوية . ولكنهم استغلوا علمهم ومعرفتهم بما فى الكتب السماوية ضد هذه الدعوة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين [2]) .

ولا يتصورن أحد من الناس أن محمدا ﷺ لم يدعهم إلى الاسلام فرادى ومجتمعين .

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤

(٢) سورة البقرة : ٩

وقد روى أن عليا (رضى الله عنه) سأل الرسول ﷺ حين ولاه القيادة فى اليوم السادس فى حرب المسلمين مع خيبر وقال له (أقاتلهم حتى يصبحوا مثلنا) ؟ فقال له الرسول : (أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الاسلام . ثم أخبرهم بما يجب من حق الله فيهم فو الله لأن يهدى بك الله رجلا واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم [١]) .

ففى وسط هذا الجو الرهيب العميق والذى تنعدم فيه أمام العين التى تفقأ أو الذراع الذى يبتر أو الدم الذى يراق بسيف يقطع كالنار . كل القيم التى ترتبط بالصفح أو العفو أو الخير أو السلام . لم ينس محمد ﷺ أن يحمل قائد المعركة فى يومها السابع [٢] أن يدعو القوم وهم المتآمرون الناكثون المتمردون للاسلام ويقول له : (ولأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) .

كذلك فان الرسول ﷺ قبل أن يصطدم ببنى قينقاع ذهب إليهم فاجتمع بهم فى السوق ودعاهم إلى الاسلام والدخول فى دينه لأن ذلك أفضل وسيلة لحل مشكلتهم لو تم ، وقال لهم (يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فانكم قد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وفى عهد الله اليكم [٣]) لكنهم هددوه وقالوا له (لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) [٤]

---

(١) زاد المعاد ص ٣٤، ج ٢ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) ابن هشام ص ٤٧ القسم الثانى .
(٤) المرجع السابق .

وقد كان مجرد إعلان اسلام أى قبيلة من القبائل وأى فرد من الناس حاقنا لدمائهم مهما صنعوا مع المسلمين .

ولا يمنع أن تفلت برغم هذا فئة من اليهود وفيها فريق من العلماء من المؤثرات المتنوعة . العنصرية . والاقتصادية . والنفسية . والأنانية التى تخضع لها اليهود فلم يسعهم إلا أن يروا أعلام النبوة واضحة جلية فصدقوا وآمنوا بالنبي والتنزيل القرآني ولم يبالوا بما عليه قومهم أو بما يمكن أن يلقوه من جفاء وسخط واضطهاد وتكذيب .

ومعنى هذا أن الدعوة قد قوبلت من بعض اليهود فى المدينة باستجابة حرة لا اكراه فيها . وكانت هناك فئة أخرى منهم لم تندفع ولم تتورط فى العداء والكيد [1] على أن مواقف الكيد والدس والجحود والتآمر إنما كانت لأسباب لا تمت إلى الحق والانصاف والرغبة فى الهدى . بل إلى هوى الأحبار والربانيين والزعماء وأغراضهم وتأثرهم بالمؤثرات الدنيوية والجبلة الخلقية وتأثيرهم فى العامة وسوقهم وراءهم . فى الطريق التى ساروا فيها ، كما كان شأن أكثر أهل مكة . زعماء وعامة أيضاً .

ولعل هذا وذاك يلغى أى فكرة مضادة لليهود منذ البدء كعنصر واليهودية كدين . ويؤيد عالمية الدعوة وكونها عامة للناس جميعاً تدعو إلى الله وإلى مكارم الأخلاق بالحكمة والموعظة الحسنة بغير إكراه ولا سيطرة (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون الا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم

---

(١) دروزه ص ١٣٧ ج ٢ .

إلا قليلا منكم وأنتم معرضون [١]) .

والدليل على أن اليهود كان فيهم من لم ينساق ولم يتورط فى العداء والكيد ما تفيده هذه الآيات من سورة المائدة (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقين[٢] (وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون [٣]) . (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون [٤] . ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون [٥]) .

وقد جاءت هذه الآيات فى سياق يدل على أنها فى حق اليهود[٦] وعبارات أكثرهم وكثيرا منهم وكثير منهم . تدل على الأقل على أن هناك فريقاً قليلا لم يتورط فيما تورطت فيه الكثرة من الدس والكيد وعمل السوء والفساد . وهذا المعنى بارز بروزا أكثر فى جلة (منهم أمة مقتصدة) كما هو ظاهر [٧] .

---

(١) البقرة ٨٣ .
(٢) البقرة ٥٩ .
(٣) البقرة ٦٢ .
(٤) المائدة ٦٦ .
(٥) المائدة ٨٠ .
(٦) عزه دروزه ص ١٢٨ ، ١٢٩ ج ٢ .
(٧) نفس المرجع السابق .

وأما آيات آل عمران التالية فإنما تلهم روحها أن بعضهم ممن آمنوا بالنبوة المحمدية . كما أن أقوال المفسرين والرواة تؤيد ذلك [١] . (ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين [٢]) .

وقد جاءت هذه الآيات عقب آيات تضمنت حملة على اليهود لأنها ذكرت أوصافهم .

وفي نفس السورة (وإن من أهل الكتاب إلا لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا . أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب [٣] .

وقد جاءت هذه الآية الأخيرة بعد فصل سابق تناول اليهود بحملة شديدة . مما يجعل الاحتمال كبيراً من أن يكون موضوع الآيات فريقاً من اليهود وهي صريحة الدلالة على إيمانهم بالنبوة المحمدية والتنزيل القرآني [٤] .

أما هذه الآية من سورة النساء فإنما تدل دلالة واضحة على أن فريقا من علماء اليهود قد أبى عليه علمه ودينه أن يندمج فيما يتورط فيه سائرهم فينكر نبوة محمد أو يكابر في صدقها أو في ما نزل عليه من القرآن . وإنما آمن به وبما نزل عليه ولم يعبأ بموقف قومه وزملائه . وفي ذلك يقول القرآن .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) سورة آل عمران : ١١٢ - ١١٤ .
(٣) سورة آل عمران : ١٩٩ .
(٤) عزه دروزه ص ١٢٩ ج ٣ .

(لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيما [١]) .

ورائع أن يسجل الله الحسنة لصاحبها . وأن يذكر الفضل لذويه، وأن ينوه بإحسان المحسن . وهذا مما يظل مصدر تلقين قرآنى جليل الشأن ويدحض حجة المغرضين . فالدعوة لم تتوقف . وقد أثمرت وإن كان أتباعها من اليهود أقل مما كان ينتظر لهم . ولكن مما لا ريب فيه أنها أثمرت فى بعض اليهود وبعض علمائهم وأحبارهم أمثال عبد الله بن سلام وغيره ممن تحدث عنهم القرآن واعترف بإيمانهم من زعماء اليهود وعامتهم .

ومع أن الرسول ﷺ جرب عهود اليهود واتفاقاتهم ونقضهم إياها (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة [٢]) .

إلا أنه برغم هذا كان يدعوهم إلى الإسلام والدخول فيه والانضمام إلى هيئته الجديدة ليكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . ويعرض هذا عليهم قبل منازلتهم برغم الذى صنعوه . لأن الرسول كان يرى أن هذه هى الوسيلة الوحيدة لحل الخلاف بينه وبينهم . وحتى يطمئن إليهم .

ولم يكن هذا إجباراً لهم أو فرضاً للاسلام عليهم . وإنما رغبة من رسول الله ﷺ فى هدايتهم للخير وحبا منه فى السلم والمسالمة . ولأمن جانبهم والاطمئنان إليهم . ولقد كان الرسول مضطراً فى النهاية إلى منازلتهم وإخراجهم من البلاد بعد الذى صنعوه معه . ولم يحارب يهود خيبر لأنه يحب الحرب لذات الحرب . ولا مشى إليهم طمعاً فى غنيمة أو مال كما ادعى بعض المستشرقين

---

(١) النساء ١٦٢ .
(٢) الانفال ٥٦ .

وإنما كان الرسول مضطراً إلى ذلك اضطراراً . لأنهم (المسلمين) كانوا بين شرّين . شر ترك الخيبريين وقد عرف عنهم أنهم يفكرون فى حربهم وقد اتصلوا فعلا بغطفان . ولا يؤمنون أن يؤلبوا عليهم بقية القبائل كما فعل بنو النضير . أو ينضموا إليهم لمحاربة المسلمين كما فعل بنو قريظة يوم الأحزاب وبين شر قتالهم وإجلائهم وهو الأخف والأفضل بالنسبة إليهم . ومع ذلك دعوهم إلى الدخول فى دينهم والاشتراك فى الهيئة الاجتماعية الجديدة التى أنشأوها والمساهمة فى أسواقهم فأبوا . ولما لم يبق مناص من القتال أقدموا عليه بعد ما استنفدوا الجهد فى بلوغ السلام والوفاق وغايتهم دفع الخطر الذى كان يتهددهم من ناحية خيبر لا مهاجمتها بالذات .

ولم يعامل النبي ﷺ أحداً من يهود الحجاز ـ وكانوا يبلغون بضعة عشر ألفا[1] ـ بما عامل به بنو قريظة لا قبل هؤلاء ولا بعدهم نظراً لفظاعة جرمهم كما قلنا .

ومع أن فوز المسلمين على يهود بنى قينقاع وبنى النضير من الناحية القانونية يعتبر فى حقيقته فوزاً عسكرياً . وشرائع أيامهم تطلق يد الغالب فى معاملة المغلوب اطلاقاً تاماً . فله أن يقتله أو يسترقه ويستخدمه فى جميع شئونه ومرافقه مدى الحياة مع أهله وولده من دون قيد ولا شرط ، إلا أن النبي لم يعاملهم بمقتضى هذه الشرائع التى كان العالم كله يخضع لها آنئذ . وعاملهم بالرفق والإحسان وتركهم يذهبون حيث شاءوا حاملين متاعهم وأموالهم يغنون وينشدون ويرقصون [2] .

ولا نظن أن غالبا فى ذلك العصر عامل مغلوبه أفضل مما عامل به النبي (صلى الله عليه وسلم) بنى قينقاع . مما يؤكد أنه لم يكن هناك عداء عنصرى بين الرسول واليهود .

---

(١) أمين سعيد ص ١٥٧ ج ١ .   (٢) المرجع السابق .

موقف الرسول من المنافقين ولماذا لم يعاملهم معاملة اليهود

كان وجود طائفة من عرب المدينة من الأوس والخـــزرج ومن بعض المتهودة ومن رجال بعض البطون اليهودية الصغيرة الذين دخلوا فى الاسـلام ظاهرياً . من عناصر الضعف فى الكيان الداخلى للدولة الاسلامية القائمة فى المدينة والذى من شأنه مع وجود اليهود فيها لولا اليقظة الشديدة والسياسة المرنة . أن يقضى على هذه الدولة الناشئة .

هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم المنافقين . كان موقفهم شديد الخطورة على كيان الأمة الداخلى وان كان لم يصل إلى الحد الذى وصل اليه موقف اليهود فمع أنهم كانوا يخذلون الدولة فى المواقف الحرجة ولا يتعاونون تعاوناً صادقاً عند الخطر كما حدث من عبد الله بن أبى حين رجع بثلث جيش الرسول فى غزوة أحد [1] .

وكما تخاذل المنافقون فى غزوة الأحزاب[2] .

إلا أن هذه المواقف برغم خطورتها لم تصل إلى مواقف اليهود .

فهم لم يتصلوا بالعدو كما اتصل اليهود . ولم يمهدوا له دخـــول المدينة والقضاء على أهلها كما فعل اليهود . لأنهم يعتبرون أنفسهم أهل البلاد . وهم

---

(١) راجع القصة ابن هشام ص ١٦٤ القسم الثانى .
(٢) المرجع السابق ٢٢١ ، ٢٢٢ .

إن لم يدافعوا عنها حماية للدين قاتلوا من أجل أحسابهم وأعراضهم . ولذلك كان النبي يستشيرهم حين يدهم المدينة داهم .

ولقد استشار عبد الله بن أبي في غزوة أحد وأشار عليه عبد الله برأى سديد لأن الموقف كان يمس وطنه . بل أن بعض المنافقين قاتل فى هذه الغزوة قتالا رائعاً . فلقد أبلى (قزمان) وهو منافق بلاءا شديداً فى أحد وقتل ثمانية أو سبعة من الأعداء منهم من كان يحمل لواء قريش وحين جرح وأشرف على الموت جاء إليه بعض المسلمين يبشره بالجنة فقال (بماذا أبشر فوالله أن قاتلت إلا على أحساب قومى ولولا ذلك ما قاتلت [1] .

ولقد كان خطر المنافقين على الدولة كبيراً مع وجود اليهود فى يثرب حيث كانوا يشجعونهم ويحرضونهم . وكانوا على صلة دائمة بهم . وما أن تم تطهير يثرب من اليهود حتى ضعف أمر النفاق وأصبح النبي لا يخشى خطرهم .

ولقد كان النبي حكيما موفقاً فى التغلب على المتاعب التى واجهته فى جبهته الداخلية . فقد تغلب عليها بمنتهى اليقظة والحذر والحزم . وزاوج فى التغلب عليها بين اللين والشدة حتى استقام له الأمر .

ولئن كان النبي لم يتخذ إجراء حازماً مع المنافقين وهم لا يقلون خطورة على الدعوة من اليهود . وكان يجب أن يأخذ على أيديهم بالشدة كى يرتدعوا لولا أن النبي ﷺ كان حكيما وحذرا .

فالنبي لم يفعل ذلك لأسباب : —

كما أنه ليس من السهل التخلص منهم بإخراجهم من يثرب كما فعل النبي

---

(١) ابن هشام ص ٨٨ القسم الثانى .

باليهود . ولو فعل ذلك لكان موقف الرسول ﷺ صعباً أمام أهل يثرب وهم أهلوهم وهؤلاء أبناؤهم .

كما أن النبي لو أراد أن يتخلص منهم بالقتل لتعرض لأن يقال إنه يقتل أصحابه . وفي هذا إضعاف لمركز الدعوة الإسلامية بين القبائل، خصوصاً ما لو شن العدو دعاية من هذا النوع .

كذلك فالمنافقون في الظاهر مسلمون ويعتبرون من أصحاب الرسول، والنفاق شيء داخلي محله القلب وإثباته ليس سهلا . ولهذا استشعر النبي الحرج ورفض ما أشار به عمر بن الخطاب بقتل عبد الله بن أبي . بعد أن سعى بالفتنة بين المهاجرين والأنصار في غزوة بني المصطلق وقال النبي لعمر (كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه [1] .

ولقد جعل النبي ﷺ عشائر هؤلاء وازعا يردّ عنه وعن دعوته فتنتهم وكيدهم وكبح جماحهم . ولهذا نجد عبد الله بن عبد الله بن أبي يعرض على الرسول أن يقتل أباه حين علم بما صنعه أبوه إلا أن النبي لم يقره على ذلك . وحين تذاكر النبي ﷺ وعمر موقف عبد الله بن أبي وتعنيف قومه له قال (كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي أقتله لأرعدت له آنف . لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته [2]) .

ولهذا فان الرسول ﷺ حين اتخذ هذا الموقف من المنافقين وهم ما يمكن أن نطلق عليهم بمفهوم العصر الحديث اسم (الطابور الخامس) إنما ضرب للناس مثلا في كيفية علاج أمثال هذه المواقف الحرجة والحساسة للزعماء

---

(١) ابن هشام ص ٢١١ القسم الثاني .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٤ .

والحكام الذين يبغون الخير لبلادهم وأوطانهم : ولو كان الرسول ﷺ قتل هؤلاء جميعاً أو بعضاً منهم ما كان إنسان ليستطيع أن يقف فى وجهه أو يعترض على ما يصنعه .

ولكن حساسية الموقف وأهميته . جعلت رسول الله ﷺ يفكر فيما هو أبعد من ذلك . فانه مما لا شك فيه أن أقوام هؤلاء وعائلاتهم وبطونهم سيتأثرون حتما حين يتخذ إجراء بالقتل أو الحبس أو الطرد طالما أن هناك طريقة أخرى يمكن بها إبعاد الخطر عن البلاد .

ولهذا فالحاكم العادل الذى يرغب فى استتباب الأمن وإقرار النظام ويجد فى بلاده من يعارض حكمه لأى سبب من الأسباب . يجب عليه أن يثبت حسن نيته ويعالج هذا الموقف بحذر ولا يكون القتل والسجن إلا نهاية المطاف والذى أعتقده أنه لو حاول اقناع الشعب بصحة موقفه وعدالته لكان الشعب كفيلا بالأخذ على يد هؤلاء ومنعهم . لأن المعارضة لابد من وجودها فى أى دولة وفى كل نظام،ويجب أن ينظر اليهم كأصحاب حق فى التفكير والاقتناع بما يرون . ولقد كان المنافقون فى دولة الاسلام جبهة معارضة، وإن كانت جبهة غير سافرة وهى أخطر منها ما لو كانت سافرة ظاهرة . ومع ذلك لأنهم أبناء الشعب والطبيعة الإنسانية هى الطبيعة الإنسانية حيث تتغير النفوس وتتأثر حين يضار إبن من أبناء العائلة الواحدة أو الدم الواحد . لهذا ترك الرسول أمر المنافقين لأقوامهم . وكانت طبيعة مبادئه ووضوحها من أقوى العوامل التى قضت فيما بعد على هذا النفاق وانمحت أو ضعفت على الأقل المعارضة من البلاد .

ومن هنا استطاع عمر بن عبد العزيز بعدله أن يسكت المعارضة أيام حكمه حين راح يضع الحاكمين والمحكومين وجها لوجه أمام مسئوليتهما المشتركة

فأعطى الشعب حقه فى التفكير والاعتراض . بل وأعطاه حق أن يقتحم داره وهو الحاكم لا ينتظر إذناً ولا يقف على باب . وأرسل منشوراً موجزا إلى جميع الأقطار قال فيه (من ظلمه إمامه مظلمة فلا إذن له على[1]) .

وكان يعرف أن أكثر الخارجين على الحكم فى أى بلد من البلاد إنما يطلبون العدل ويبغون الحق . إلا قليلا منهم يعارضون لأسباب شخصية ولأغراض خاصة لكنها مع ذلك ما تلبث أن تزول حين لا تجد لها منفذا تنفذ منه أو خطأ يتشبث به لهذا الحاكم الذى تناجزه وتعارض حكمه . ولذلك دان لعمر بن عبد العزيز أعداؤه واستسلم له معارضوه ، فقد كتب إلى ولاته قائلا :

(إنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً . ألا إن أولاهم بالمعصية الإمام الظالم) .

ثم يقول : (أى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم[2]) .

حتى معارضيه الذين يحملون السيف ويخوضون معارك ضد الدولة ذهب خلالها ألوف الضحايا . الخوارج الذين انشقوا على علىّ واغتالوه ، وكان لهم مع نشاطهم المسلح آراء وعقائد لا يزكيها قرآن ولا سنة . يرى هذا الحاكم العادل أنه يستطيع أن يكسب هذه المعارضة وأن يفحمها بالحق والمناظرة . فهو سل إلى زعيمهم كتاباً يقول فيه أما بعد :ـ

(فقد بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولرسوله ولست أولى بذلك منى فهلم

---

(١) الاسلام والثورة الاجتماعية ص ٢٤٢ صابر طعيمه .
(٢) المرجع السابق

أناظرك فان لم يكن الحق معنا ندخل فيه وإن يكن الحق معك نراجع أنفسنا وننظر فى أمرنا (١)) .

وتكون النتيجة أن يخجل هؤلاء من أنفسهم حين يناظرونه ويقتنعون بعدله وإخلاصه . ولهذا أسكت المعارضين وأقام الحجة والبرهان عليهم . مع أن هؤلاء كانت طائفة تعيش وحدها وتكاد تكون منفصلة تماما عن المواطنين فى دولة عمر بن عبد العزيز ، والاقتناع بالحجة والمنطق أحد وأقوى من اقناع السيف . لكن إذا كان المعارضون من أبناء البلاد ويتوزعون بين الشعب كله ولهم رأى آخر يخالفون به نظام الحكم القائم ، كان هؤلاء أولى بالاقناع والحجة والمنطق وفى إمكان بقية الشعب وهم أهلوهم إفحامهم وإبعاد خطرهم إذا كانوا من أصحاب المبادىء الهدامة ، بعدل الحاكم وسماحة النظام ، لأن الشدة فى هذه الحالة وكما يحدث فى كثير من البلاد العربية تؤدى إلى تفكك الأسر وحقد هذه الأسر على السلطة إذا أضير أبناؤهم منها بسوء وأدى هذا إلى الفرقة وتفتيت الجبهة الداخلية ، وهذا ما تحاشاه القائد الأعظم والحاكم العادل محمد ﷺ فلم يصطدم بالمنافقين ولم يعاملهم معاملة اليهود .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤٩

الدعوة إلى الإسلام في المدينة
وهل تغيرت عنها في مكة .. ؟

رد على المستشرقين :

قلنا فى فصل سابق أن بعض المستشرقين ادعى أن الرسول ﷺ تغير فى المدينة عنه فى مكة ، وأنه كان فى مكة ثائراً على قومه ، غير راض عن نظامهم وعباداتهم ولم يوفق فيها ، فلم يزد فى مكة عن مجرد الدعوة إلى الاسلام ، أما فى المدينة فقد بلغ ما كان يرمى إليه ، وأحدث تغييراً كبيرا بعد أن أصبح رئيساً لجماعة سياسية ، وأنه إزاء هذا صار الطابع السياسى يزداد بروزا ، والطابع الدينى يزداد تراجعاً ، بل ويرون أن الحكومة التى كان يرأسها الرسول ﷺ كانت من حيث السياسة الفعلية متغيرة عنها لما كانت فكرة ، وهم يعللون هذا بأن المعارضة دائما ما تتغير عندما تصل إلى السلطة وأن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التى تقوم عليها لأن تقديرها للأشياء يكون فى أول الأمر بحسب الإمكان لا بحسب الواقع[1] .

ويرى بعض المستشرقين أيضاً[2] أن الإسلام فى المدينة كان له طابعه الخاص وأنه اتخذ صورة غير الصورة التى كان عليها فى مكة وأن الرسول رؤى فى المدينة بعد أن أصبح حاكما سياسياً ، ينظم أعمالا حديثة ، كتوزيع الغنائم والأسلاب ووضع قوانين لتنظيم الأموال والمواريث ، بعد أن كان زاهداً

---

(١) راجع تاريخ الدولة العربية (يوليوس فلهوزن) ص ٥ ، ٦

(٢) جولد تسيهر فى العقيدة والشريعة فى الاسلام ص ١٦ ، وما بعدها .

فى المال وجمعه ، وأنه كان يشعر فى مكة بأنه نبى يتمم برسالته سلسلة رسل التوراة ، وأنه لهذا ، فعليه مثل كل الرسل أن يقوم بانذار أمثاله فى الإنسانية وإنقاذهم من الضلال ، أما فى المدينة فقد تغيرت الظروف الخارجية وعندها تغيرت مقاصده وخططه واتجه اتجاها آخر بحكم تلك الظروف الخارجية ولأنه وجد فى بيئة تختلف عن بيئة مكة .

لكنه من الإنصاف أن أذكر أن بعض المستشرقين كان منصفاً فذكر أنه لم يتغير ولم يطرح مهمة الداعى فى المدينة كما ادعى البعض بل دافع عن الرسول ﷺ ورد على دعوى التغير :

قال أرنولد فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام [1]) .

(وقد أكد الكتاب الأوربيون مراراً أن النبى سلك مسلكا جديدا تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك .

وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذى كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذى أوحى اليه ، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصباً مندفعاً يستغل كل ما فى سلطته من قوة ومهارة سياسية فى فرض نفسه وفرض آرائه ، ثم يقول أرنولد على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمدا فى المدينة قد طرح مهمة الداعى إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه ، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين .

ثم عرض أرنولد إلى الكتب التى بعث بها النبى من المدينة إلى شيوخ القبائل العربية وكتب الملوك التى يدعوهم فيها إلى اعتناق الإسلام .

---

(١) ص ٥٤

ثم أخذ يضرب أمثلة من البعوث الدينية التى أرسلها لتبلغ الأســلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم[1] .

وقد قلنا أن الرسول ﷺ لم يتغير فى المدينة عنه فى مكة ولم تشغله الدنيا عن الدين . ولم تتغير نظرته إلى الحياة . بعد أن وصــل إلى قمة السلطة التى كان كما قلنا يعمل لها من أول يوم بعثه الله تبارك وتعالى . لا لمجرد الوصـول اليها . ولـكن ليشرع للعالمين وليرسم المنهج الصحيح السليم لـما يجب أن تـكون عليه الدولة التى لابد منها لحماية الدين .

وقلنا إن الله تبارك وتعالى بشره بها فى مكة ، وأنه كان مضطراً فى مكة للعمل من أجل التوحيد فقط باعتباره الأصل والأساس ، فركز على الدعوة إلى الخير ، خصوصاً وأن مكة مسقط رأسه كانت مركزاً من المراكز الهامة الخطيرة لعبادة الأوثان والأصنام والتى هى مقر للـكعبة المقدسة التى كانت المادية وكبرياء الجاهلية قد طغت فيها وتحـكم الأغنياء فى الفقراء ؛ ثم يعمل بعد ذلك من أجل استقرار الحق واستمراره ؛ واقرار العدل ودوامه ، وتقرير الخير والعمل به لاقامة الدولة التى من غيرها وبدونها لا يكون خير أو عــدل أو نظام ، وهو كرسول لا يمكن له أن يتغير ولا أن يتبدل ؛ وإنما هو منفذ لأمر الله ومشيئته يعطيه الله من الوحى بقدر ما يحتاج إليه الناس ، ويترك الله له كبشر ما يمكن أن يوضح به لاتباعه ما يحتاجون إليه إنسانيا وبالهام من الله أيضاً وتوفيق (وما ينطق عن الهوى)[2] ؛ لأنه : معلم ومشرع وأستاذ .

أما عن دعوى كونه قد تأثر بالسلطة بعد الوصول إليهـا وتراجع الطابـع الدينى بعد أن برز الطابع السياسى ، فإن هذا ينقصه الواقع وإن كنا دائما

---

(١) راجع صفحات ٤٥ إلى ٦٠ من كتاب الدعوة إلى الاسلام لأرنولد .

(٢) النجم ٣ .

نؤكد أنه لا فرق إطلاقاً بين ما يسمى دين أو سياسة ، وأنه إذا كانت حياة مكة قد اقتضت التركيز على نقاط معينة ، وهى البدء بالأصل والأساس التى ستقوم عليه الدولة ، وهو « هدم الشرك والوثنية وإقامة التوحيد والعدل » فقد كان هـذا ممـا تقتضيه أصول التدرج فى التشريع كما أن إقامة التوحيد والعدل مما يقتضيه وجود الدولة نفسها .

ومع هذا فقد ظل الرسول ﷺ بعد توليه الحكم ، وإلى أن صعدت روحه إلى الرفيق الأعلى ، يدعو إلى الله بشتى الوسائل والطرق ، بل وقعّد القاعدة العامة التى تكلف المؤمنين بالاستمرار فى هذه الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

وإن كانت الوسيلة فى المدينة وبعد تكوين الدولة قد تغيرت عنها فى مكة ، فهذا شىء طبيعى فان الوضع قد تغير فى المدينة عنه فى مكة ولم يكن هذا تغيراً بمعنى التبديل ، وإنما كان تطويراً فى الأسلوب فقط وليس فى أصل الدعوة نفسها ، فمـكة مثلا كان الرسول فيها وحيداً والمسلمون مستضعفون والدعوة تسير فى خطى بطيئة وئيدة ، بدأت بالأفراد ثم وصلت إلى تكوين الخلايا والمجموعات ، ثم عرض نفسه على القبائل حين زيارتها لمـكة لمحاولة الاتصال بالأفراد والمجموعات الصغيرة فى القبائل والأسواق وعند الـكعبة ثم تطور الأمر إلى عرض الإسلام على المدن كما حدث حين اتصاله بأهل الطائف ، ولم تـكن هناك وسيلة لعرض الدعوة غير هذه الوسائل ، لـكنه بعدأن تطور الأمر وأصبح الرسول قائداً لدولة كان لابد أن تتطور ، فـكان يبعث البعوث ويوفد الوفود ، ويعرض الاسلام عـلى المقاتلين ، ويناقشهم ويحاججهم ، كما فعل مع اليهود ووفد نصارى نجران ، ثم تطور الأمر إلى إرسال الـكتب إلى الملوك ودعوتهم إلى الإسلام ولم تفتر أبداً عزيمته . ولم يتخلف يوما واحداً عن الدعوة إلى الإسلام .

وكان نظام الدولة العام نفسه بكل أركانه ومقوماته وسيلة من وســائل الدعوة بلا إكراه ولا إجبار . كالجهاد والجزية . وجمع الزكاة . وإعطائهــا لأصحابها . والقضاء العادل . وسماحــة المسلمين أنفسهم الذين تشبعوا بروح الإســلام ومبادئه وتعاليمه فكانت حياتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم دافعاً لغير المسلمين أن يعتنقوا هذا الدين .

وكانت هذه الصفات فى المسلمين وسيلة أخرى من وســائل الدعوة إلى الإسلام .

ويمكننا أن نقول أنه بعد اكتمال كل مقومات الدولة فى أخريات حياة الرسول ﷺ . وبعد أن تحول الموقف السياسى فى جزيرة العرب إلى جانبه بعد الحديبية . فإن الدعوة أصبحت بعد هذا الاكتمال السياسى بالغة النضج وأصبحت جـديرة بأن تكون دين الناس كافة . فهى لم تقف عند التوحيد وما يقتضيه من عبادات ، بل انفرج ميدانها وتناولت من صــور النشاط الاجتماعى ما يوازى بينها وبين سمو فكرة التوحيد ، وما يجعل صاحبها أدنى إلى بلوغ مراتب الكمال الانسانى وإلى تحقيق المثل الأعلى للحياة [1] .

ونقول ذلك لأن صورة المجتمع الإنسانى الذى أراده الرسول ﷺ بدأت تظهر واضحة بعد أن نزل كثير من الأحــكام الإجتماعية ووضح التشريع وقدرت الحقوق والواجبات ، وتحددت المسؤليات ونظمت الأسرة وطبقت هذه القواعد تطبيقاً عملياً .

لهذا نرى أن إرسال الرسل إلى ملوك العالم المحيط بالجزيرة العربية لدعوتهم وشعوبهم إلى رسالة الإسلام .

لم يحدث إلا بعد هذا الإكتمال والنضج والوضوح . والله أعلم .؟

---

(١) مكة والمدينة ص ٥٠٩

اختيار الرسول لسفرائه للملوك والرؤساء

كان اختيار الرسول (صلى الله عليه وسلم) لسفرائه وحملة كتبه لايتم إلا بعد معرفة دقيقة لهؤلاء السفراء ، واطمئنانه لهم وثقته فى قدرتهم على إثبات وجودهم وتمثيل النبى ﷺ تمثيلا صحيحاً .

ولقد كان هؤلاء السفراء (حملة الكتب) دعاة مخلصين للدعوة يؤمنون بهذا العمل إيماناً كبيراً ، ليسوا مجرد حاملى كتب ، وقد عرفوا بالحكمة والفصاحة والفطنة ، وهى أمور لابد أن تتوفر فى السفير حتى تجدى سفارته وتثمر وفادته ، وإلا فما تجدى رسالة تحمل بضعة أسطر فيها آية ، وفيها طلب عام ودعوة للإسلام ، دون أن يكون حامل هذه الرسالة عارفا بمضمون مافيها مستعداً لشرح وتوضيح ماغمض منها ، قادراً على الاقناع بالحجة والبرهان على صدق مافيها .

ولقد روى الإمام الحافظ أبى عبدالله بن القيم الجوزى فى كتابه زاد المعاد[1]

أن حاطب بن أبى بلتعة سفير الرسول وحامل كتابه إلى المقوقس ظل يحاول إقناعه بصدق هذه الرسالة كما ظل يوضح له أساس هذه الدعوة وأصلها ، مفهماً إياه أن هذا الذى يدعو اليه الرسول هو نفسه الذى كان يدعو به عيسى .

---

(1) ص ٦١ ج ٢

قال حاطب للمقوقس :

إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخـــذه الله نـكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولايعتبر غيرك بك .

وحين قال له المقوقس : (إن لنا ديناً لن ندعه إلا لمـا هو خير منه ، ردّ عليه حاطب وقال له (ندعوك إلى دين الإسلام الـكافى به الله فقد ماسواه ؛ إن هـــذا النبي دعا الناس فـكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى مابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، ومادعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ؛ وأنت ممن أدركهم هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولـكننا نأمرك به[1] .

أسلوب جميل ؛ وحجة قوية منطقية حاول بها حاطب أن يقنع المقوقس ويلزمه الحجة .

ولعل المقوقس طلب من حاطب أن يزيده توضيحاً عن الاسلام وناقشه فى كثير من الأمور المتعلقة بهذا الدين ، خاصة وقد رأينا للقوقس يقول : (إنى قد نظرت فى أمر هذا النبي فوجدته لايأمر بمزهود فيه ولاينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال والـكاهن الـكاذب ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى وسأنظر[2] .

فـكيف عرف المقوقس كل ذلك عن الرسول ويخـــبره أنه فهم مافيه

(١) نفس المرجع .

(٢) زاد المعاد ص ٦١ ج ٣

ومايدعو إليه ، وأنه علم أن نبياً تبقى وكان يظن أنه سيخرج بالشام وبعث مع الكتاب بهداياه[1] .

وقد ذكر الجوزى أيضاً[2] ، قصة إرسال عمرو بن العاص بكتاب رسول الله ﷺ إلى (ملكي عمان) يدعوهما فيه إلى الإسلام وقد ذكر عمرو أنه التقى بهما ودارت بينه وبينهما مناقشات واستوضحا من عمرو مايدعو إليه الإسلام ، وأحوال الناس مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهل أقره قومه واتبعوه ؟ وهل آمن به الأساقفة والرهبان ؟ وغير هذا من الأمور . واستطاع عمرو بذكاءه ودهائه وإخلاصه للدعوة التى يدعو إليها أن يقنع ملكي عمان ، مرة بالتهديد والتخويف ، ومرة بذكر محاسن الإسلام ومايدعو إليه ، استطاع أن يقنعهما باعتناق الإسلام والتخلية بينه وبين جمع الصدقات وإعانته على من خالفه[3] .

ومن هنا نرى أن مبعوثى الرسول إلى الملوك لم يكونوا مجرد حملة كتب وإنما كان لهم فضل كبير فى التبشير بالدين والدعوة إليه وإقناع هؤلاء الملوك باعتناق الإسلام وعدم الوقوف فى طريقه أو محاربته ، ولقد كان المسلمون جميعاً يؤمنون بأن عليهم جميعاً مسئولية التبشير بالإسلام والدعوة إليه بقدر استطاعتهم ، مؤمنين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو مبلغ للرسالة،وأن على المسلمين جميعاً فى كل زمان وفى أى مكان، نشر الدعوة والعمل على انتشارها حيث آمنوا بقول الله تعالى : (ولتكن منكم أمة

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ٦٢

(٣) راجع نص حديث عمرو بن العاص ص ٦٢ ، ٦٣ (زاد المعاد) ج ٣

يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[١] .

ويؤمنون بضرورة وجود جماعة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة على بصيرة ، تنفيذاً لقول الله تعالى . (فلولا نفر كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)[٢] .

واعين لقول الله لرسوله (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى)[٣] .

والله أعلم ؟

(١) آل عمران : ١٠٤
(٢) التوبة : ١٢٢
(٣) يوسف : ١٠٨

الدعوة الإسلامية وغزوات الرسول

قامت حروب بين المسلمين فى زمن الرسول وبين المشركين فى الجزيرة العربية . وفى خلال تسع سنوات من عشر قضاها الرسول (ﷺ) فى المدينة وصل عدد السرايا إلى ثمانية وثلاثين سرية وعدد الغزوات إلى ست وعشرين غزوة . على خلاف بين المؤرخين[1] . وبرغم هذا العدد الضخم من السرايا والغزوات فإننا لو حاولنا إحصاء عدد الذين قتلوا من المسلمين فى جميع الغزوات والسرايا وعدد قتلى خصومهم ومنافسيهم من العرب واليهود لقلنا إنه لم يكن هناك قتال بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة . ولتبين أنه لم يكن هناك إرهاب ولا إرهاق ، وأن السيف لم يكن له علاقة مطلقا فى فتح الحجاز واليمن وبعض أطراف الشام . وإنما تم الفتح بسبب تضامن المسلمين فيما بينهم والتفافهم حول نبيهم وحرصهم على اتباع تعاليمه وشدة إيمانهم بسمو الغاية التى يعملون من أجلها ويستميتون فى سبيلها .

وقد كتب أحد المؤرخين[2] بيانا بالغزوات التى غزاها الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأسمائها وما حدث فيها وعدد القتلى من المسلمين وخصومهم وكتب بيانا آخر عن السرايا وأسمائها وعدد القتلى فيها من الفريقين .

ومن هذا الإحصاء يتبين لنا أن عدد الذين قتلوا من المسلمين فى جميع

---

(١) نشأة الدولة الإسلامية امين سعيد ص ١٥٦ ، راجع أسماء وعدد الغزوات والسرايا بابن هشام ص ٦٠٨ ، ص ٦٠٩ القسم الثانى

(٢) راجع من ص ١٥٤ إلى ١٥٧ ج ١ امين سعيد (نشأة الدولة الإسلامية) .

الغزوات التى غزاها النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يزد عن مائة وثمانية عشر قتيلا . كما أن عدد قتلى السرايا بما فيهم قتلى سريتى الدعوة والتبشير بالدين (الرجيع وبئر معونة) . والذين أرسلوا للتبشير لا للغزو مائتين وسبعة عشر قتيلا . فإذا أخرجنا منهم أربعة وسبعين وهم عدد قتلى التبشير بالدين فمعنى ذلك أن يكون جميع قتلى السرايا العسكرية (مائة وثلاثة وأربعين قتيلا) ويكون جميع ما فقده المسلمون فى كل حروبهم وبعوثهم العسكرية التى استمرت على مدى تسع سنوات وأتموا فيها فتح الحجاز واليمن وجانبا من الشام هو (مائة وثمانية وخمسين قتيلا فقط) .

أما عدد قتلى خصوم المسلمين ومنافسيهم فهو بناء على ما وصل الينا وما ذكر فى هذا البيان . لا يزيد عن مائتين وعشرين قتيلا فقط فى كل الغزوات والسرايا بما فى ذلك قتلى اليهود فى خيبر وعددهم ثلاثة وتسعين يهوديا . وإذا أخرجنا منهم قتلى اليهود . لم يبق سوى مائة وسبعة وعشرين قتيلا وعلى فرض إضافة مثلهم فى المعارك التى لم يذكر فيها عدد القتلى وهو أكبر تقدير . يكون المجموع حوالى مائتين وأربعين قتيلا سقطوا فى خلال تسع سنوات ، ولا يدخل فى هذا الإحصاء قتلى بنى قريظة[1] من اليهود ومعناه كما قلنا أنه لم تكن هناك حروب بمعناها المفهوم منها .

ونحن هنا لا نحب أن نذكر تفصيلات مادار فى هذه المعارك ولا أسبابها . إنما أحب أن أذكر بإجمال أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يود على الإطلاق أن يدخل معركة من هذه المعارك ولا أن يراق دم عربى ، مسلم

---

(١) نشأة الدولة الاسلامية أمين سعيد راجع بيان الغزوات والسرايا واسمائها من ص ١٥٤ إلى ١٥٧ .

ولا غير مسلم حتى ولا دم يهودى ، وإنما كان الرسول ﷺ مضطراً لدخول هذه المعارك ولإرسال هذه السرايا . لا حباً فى الحرب لمجرد الحرب فقد كان النبى ﷺ راغبا كل الرغبة فى أن يبتعد عنها دائماً ولا يؤمن بهـــا كوسيلة لنشر دعوته . لهـــذا كانت حروبه كلها حروب دفاع ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد التأكد من نكث العهد ، وإصرار العدو على القتال . يستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم . ففى غزوة تبوك عاد الجيش الاسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية . فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره [1] .

وما حيلة محمد ﷺ وقد دفعته قريش دفعاً إلى الحرب ؟ فإن كان النبى قد حارب فإنما قبل أن يتخذ الحرب كوسيلة لحماية نفسه ودينه ودعوته . وليس حبا فى الحرب ولا رغبة منه فى اتخاذها وسيلة من وسائل لنشر دعوته .

وقد راعى فيها الحرمات الإنسانية وفى هذا كله تهذيب لفكرة الحرب نفسها .

ولم تخرج حرب الرسول ﷺ عن الصفة التى وصفه الله تبارك وتعالى بها (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . هذه الرحمة التى جاءت بها الرسالة المحمدية هى نفسها التى دفعت إلى القتال . وليست رحمة الاسلام الشفقة المجردة . إنما رحمة الاسلام هى الرحمة التى تعم ولا تخص . ومن الرحمة بالمجموع الأخذ على

---

(١) عبقرية محمد (العقاد) ص ٣٠

يد الظالم . ومن الرحمة بالعالمين دفع شر المعتدين . فكان الدافع إلى القتال هـو الرحمة . ولذلك كان القتال فى أضيق صورة وكانت الرحمة تظل القتال أيضاً [1] .

وحين نحاول استعراض الرحمة فى حروب الرسول ﷺ نجد ما يؤكد وجهة نظرنا من أن الحرب كانت من أبغض الأشياء إلى قلب الرسول ﷺ رغم معرفته أنها من ضرورات الحياة وأنها من أسباب حماية الحضارات وتركيزها والمحافظة عليها وأن القتال والنزعة الحربية فى فطرة الناس ومن غرائزهم . ولذلك هذب الرسول فكرتها فى النفوس وحصرها فى أضيق حدودها . وأسلم طرائقها . وحدد أهدافها وحاول تنظيم هذه النزعة أسمى تنظيم . وإنزالها فى المنزلة التى خلقت من أجلها .

فى بدر مثلا تجلت هـذه الرحمة فى دفنه قتـلى المشركين ورفضه أن تظل جثثهم نهباً للسباع والطيور ، ورفضه التمثيل ببعض الأسرى . فحين طلب منه بعض المسلمين أن يخلع ثنيتى سهيل بن عمرو مع أنه كان يؤذيه ويهجوه رفض . بل رفض مجرد أن يذمه عمر بن الخطاب . ورفض أيضاً رأى عمر بقتل أسرى قريش ببدر ، وكان فى أحلك المواقف وأشدها عليه يدعو ربه دائماً بطلب الرحمة والمغفرة لقومه وهم أشد أعدائه ويرجو أن يتركوه وشأنه يبلغ رسالات ربه ويقول :

(اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون) .

وكان هكذا فى كل حروبه حتى نراه يعطى قريشا جثة نوفل بن عبد الله

---

(١) العبقرية العسكرية (محمد فرج) ص ٦١ .

ابن المغيرة الذى أراد اجتياز الخندق علـى فرس له بعد ما غربت الشمس أثناء حصار الأحزاب للمدينة فهوى هو وفرسه فى الخندق وصرع وتحطم . ويرفض الرسول عرض أبى سفيان قائد جيش الأحزاب بدفع دية جثته مائة من الإبل ويعطيهم إياها بلا مقابل [١] .

ولقد كانت هذه المعاملة الطيبة من الرسول ﷺ للمشركين ومحاولته بذل أقصى ما فى وسعه من جهد للحد من فظائع الحرب وحصرها فى أضيق نطاق مستطاع . سببا من أسباب انتشار الاسلام ،ولقد أعطى النبى الأوامر المشددة الصارمة بعدم قتل غير المحاربين . حتى أنه حين وصل إلى علمه أن امرأة وجدت بين القتلى فى إحدى المعارك غضب وقال (لم تكن محاربة)[٢] .

ولقد كان ذلك سبباً من أسباب اعتناق كثيرين للاسلام بعد ما رأوا فيه هذه السماحة وهذه الرحمة حتى فى الحروب .

وحين عرض على الرسول ﷺ الصلح فى الحديبية وتفاوض معه رسل قريش من أجـل الصلح . كان حبه فى السلام وكرهـه فى الحرب من العوامل التى جعلته يوافق على هذا الصلح ويقبل شروطاً فى ظاهرها إجحاف بالاسلام والمسلمين بل قال (لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها [٣])

وقال أيضاً : (والله لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمة من حرمات الله إلا أعطيتهموها [٤]) .

---

(١) حياة محمد (هيكل) ص ٣٠٣ .
(٢) العبقرية العسكرية ص ٩٠ .
(٣) ابن هشام ص ٣١٥ القسم الثانى .
(٤) زاد المعاد جـ ٣ ص ١٧٣ .

وحين سمع الرسول أن قريشاً صممت على منعه من دخول مكة قال : (يا ويح قريش وقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فان هم أصابوني كان الذى أرادوا وأن أظهرني الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين . وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهرنى الله أو تنفرد هذه السالفة [1]) .

ولعل هذا النص يوضح إلى أى مدى كان الرسول ﷺ يرغب فى السلام ولا يريد الحرب ، وكان كل همه أن يترك ليؤدى الرسالة التى كلف بها ويدعو إلى الإسلام . ويفهم من هذا النص أيضاً أن قريشا كانت تحول بينه وبين سائر العرب بما لها من نفوذ عليها . ولذلك يقول الرسول ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ثم يقسم الرسول بأنه سيظل يجاهد ما استطاع لتبليغ الرسالة وتوصيلها إلى كل الناس حتى الموت . ولهذا حين عقدت معاهدة الحديبية وتم الصلح بين الرسول والمشركين وكان فى هذا الصلح ترك الحرية للعرب ليختاروا الدين الذى يرغبون فيه . رحب الرسول ﷺ بها واعتبر ذلك نصراً وفتحاً .

فقد كان الرسول ﷺ يتمنى ويرجو أن تنتهى هذه الحرب بينه وبين قريش حتى تعطى المسلمين فرصة لنشر الدين والتفرغ للدعوة وتعليم الناس أصولها وقواعدها وما اشتملت عليه من مبادىء ونظم . وقد أعطت هذه الهدنة فعلا فرصة لنشر الدعوة والتفرغ لها . فحين تركت قريش المسلمين وشأنهم ولم تقف فى طريق دعوتهم . دخل الناس فى دين الله أفواجاً ؛

---

(١) ابن هشام ص ٣٠٩ القسم الثانى

ولقد كانت هـــذه المعاهدة فعلا فتحاً . بل كانت من أعظم الفتوح فى تاريخ الاسلام كله ، فقد أمن الناس بعضهم بعضاً . واختلط المسلمون بالكفار وتحدثوا معهم عن الإسلام وجادلوهم فيه وأسمعوهم القرآن وناظروهم عـــلى الإسلام جهرة آمنين غير خائفين .

وظهر من كان مختفياً بالإسلام وتركت الحرية للناس يدخلون فى الاسلام أو يظلون على دينهم كما يشاؤن [1] .

وظهرت تعاليم الاســـلام واضحة جلية وعملت الدعاية له والإعلام به عملهما . وأحس الناس بالفرق الكبير بين ما فى الإسلام من تعاليم وما هم عليه من ضلال . ونشطت الدعوة نشاطاً كبيراً . وتحرك اتباع الاسلام هنا وهناك بلا خوف يدعون إلى الله على بصيرة بألسنتهم وأعمالهم . وتسامع العرب جميعاً بهذه المعاهدة ، وأصبح الإسلام ديناً معترفا به فى الجزيرة العربية فبدأ العرب يدخلون فى دين الله أفواجا . واعترفت قريش بدولة الإسلام وأعطتها الحق فى دخـــول رعاياها مكة لزيارة البيت بعد أن حرموا منه طيلة ست سنوات . والتقى المسلم المهاجر بأهله وعشيرته من المشركين رعايا مكة .

وكأن هذه المعاهدة كانت فتحا لطريق الدعوة بعـــد أن كان مسدوداً مغلقاً . ولذلك قال المفسرون : إن المقصود بالفتح هو الانتصارات التى تلت هذا الصلح وجعلت خلقاً عظيما يدخلون الاسلام .

والحقيقة أن الحديبية كانت فتحاً مبيناً فعلا لا يقل فى أثره وعظمته عن أكبر معارك الاسلام ، وإذا كانت بدر قد ثبتت قواعـــد الدولة الناشئة

---

(١) زاد المعاد ص ١٣٠ ج ٢ بتصرف .

فان الحديبية قد فتحت أمامها المجال لتصل إلى الهدف الذى كان النبى يرمى إليه وهو توحيد العرب فى دولة واحدة تكون نواة لدولة إسـلامية كبرى تشمل الإنسانية وتحقق رسالة العدالة والخير لبنى الإنسان على الأرض . وانفتح بصلح الحديبية المجال أمام النبى ليتابع إبلاغ رسالته للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها .

ومع أن الصلح كان فى الصورة الظاهرة ضيما وهضما للمسلمين . إلا أنه كان فى الباطن عزا وفتحاً ونصراً ، وكان الرسـول ﷺ ينظر إلى ماوراءه من الفتح العظيم والعز والنصر من وراء ستر رقيق . وكان يعطى المشركين كلما سألوه من الشروط التى لم يحتملها أكثر الصحابة ورسول الله يعلم مافى ضمن هذا المكروه من محبوب [1] .

(وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيراً لكم [2]) .

وربمـا كان مكروه النفوس إلى

محبوبها سـببا مامثله سبب [3]

ولم يكن الرسول ﷺ فى حالة ضعف أو خوف فاضطر لقبول الصلح . ولكنه كان على استعداد للدخول مع أهل مكة فى حرب لو صمموا عـلى الحرب ولذلك نراه حين ينصحه بديل بن ورقاء الخزاعى بالعودة إلى المدينة ويخبره بأن قريشا لن تسمح له بدخول مكة وأنهم سيقاتلونه ويصدونه عن البيت الحرام، يقول (إنا لم نجىء لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين .

(١) زاد المعاد ص ١٣٠ جـ ٢ .
(٢) البقرة ٢١٦ .
(٣) زاد المعاد ص ١٣٠ جـ ٢ .

وأن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاؤوا ماددتهم ويخلوا بينى وبين الناس . وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا . وإلا قد جموا . وإن أبوا إلا القتال فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره[1] .

والحقيقة أن النبى أظهر بهذا الصلح . بعد النظر ودقة التقدير ، وأثبتت الأيام أن قبول الرسول لهذه الشروط التى ظنها بعض المسلمين فى صالح قريش أنها كانت فى مصلحة المسلمين ، فقد ذهب النبى فيها بالنصيب الأوفر ، وحقق بواسطتها أهدافه الكبرى ، لأن فترات النضال بين قريش والمسلمين ، لم تدع للناس وقتاً للتفكير ، حتى إذا ما تمت هذه الهدنة بدأ الكثيرون من العرب يفكرون فى الإسلام ، وأتاحت لمن يريد من القبائل الإنضمام إلى صفوف الرسول ﷺ صراحة ، وأتاحت له فرصة العمل بحرية وهو آمن ، وأخذ المسلمون المستضعفون فى مكة يظهرون ويتحركون فى حرية وأمان ، وبدأ كثيرون من أبطال قريش وزعمائها يفكرون فى الإسلام ومبادئه وتقدمه ويسرعون إلى المدينة معلنين إسلامهم كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة حارس الكعبة[2] ، ولم يسلم خالد فى صمت وهو بطل مكة المغوار وفارسها فى أحد وله مكانته العظيمة فى قريش وإنما قال على ملأ من قريش (لقد استبان لكل ذى عقل أن محمداً ليس بشاعر ولا ساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين لحق على كل ذى لب أن يتبعه[3] .

---

(١) زاد المعاد ص ١٢٤ ج ٢

(٢) مكة والمدينة ص ٤٦٧ وراجع اسلام عمرو بن العاص وخالد ابن الوليد وعثمان بن طلحة فى ابن هشام ص ٢٦٦ — ٢٨٨ القسم الثانى :

(٣) مكة والمدينة نقلا عن الواقدى ص ٤٦٧

وباسلام هؤلاء الثلاثة الكبار أسلم عدد كبير من أهل مكة ، وأصبحت مكة فى حكم البلد الذى فتح أبوابه للدعوة الاسلامية ، ولم يبق إلا أن تفتح أبوابها وتسلم القياد للمسلمين .

وكأنى بقريش بعد هذا الانتصار السياسى الباهر وإعلان إسلام كثير من قادتها قد أصبحت فى فوضى سياسية وعدم تحكم فى مواطنى دولتهم .

ولم تعد لهم سيطرة على القبائل العربية التى كانت إلى هذا التاريخ تعمل لقريش ألف حساب وتخضع لها ولنفوذها ، حتى رأينا بعد أقل من عام رجال هذه القبائل نفسها تؤلف القوى الكبرى فى جيش الرسول المتقدم لفتح مكة حيث انتشر الإسلام فى خلال هذه المدة القصيرة انتشاراً سريعاً فى هذه القبائل حتى كان عدد من دخل الإسلام فى هذه المدة القصيرة أضعاف ما دخله منذ بعثه النبى ﷺ لذلك رأينا الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد اثنين وعشرين شهراً فقط من هذا الصلح ، يقود جيشاً قوامه عشرة آلاف متجهاً بهم لفتح مكة بعد نقضهم للمعاهدة ، وكان معظم هذا الجيش قد دخل الدين فى خلال فترة الصلح .

إذا فإن صلح الحديبية قد أتاح الفرصة للرسول ﷺ والمسلمين أن يعملوا للدعوة بعد أن شغلتهم الحروب المتصلة بينهم وبين أهل مكة ، فقد جعلت هذه الهدنة الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً بعد أن كانت القبائل التى تقيم جنوبى مكة بعيدين عن سلطان الدين الجديد لإنقطاع وسائل الاتصال ، ولم يكن الطريق سهلا أو ممهداً أمام الدعاة ، والمعروف أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد هجرته للمدينة ، لم يكن فى وسعه الإتصال بسهولة بهذه القبائل القريبة من مكة ، ولم يعد الرسول يلتقى بهم كما كان يلتقى وهو فى

مكة بوفودهم القادمة للحج وزيارة البيت أو للتجارة ، ولم تكن لهذه القبائل علاقات بالمدينة كعلاقتهم بمكة وأهلها ، وإن كان لا يألو جهداً فى تكليف بعض أفراد ممن اعتنقوا الاسلام من هذه القبائل العربية ويطلب منهم دعوة قبائلهم للإسلام ، لكن هذا على ما أعتقد لم يكن ليلقى القبول الكامل لدى هذه القبائل ، خاصة وأن هؤلاء الدعاة الجدد لا يعرفون من تعاليم الإسلام إلا القليل ، وربما كانت علاقة الدعاة الجدد بأهل مكة وارتباطهم بهم بمحالفات وخضوعهم لهم دينياً باعتبار أنهم سدنة البيت ، سببا أيضاً من الأسباب التى تؤخر فى إعتناق هؤلاء للاسلام .

يدل على هذا قصة اسلام الطفيل بن عامر ، فالمعروف أن الطفيل جاء إلى النبى وهو فى مكة قبل الهجرة واعتنق الإسلام وتحمس تحمساً شديداً لهذا الدين الجديد ، وطلب منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يعود إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، وحين رجع إلى بلده استطاع أن يقنع أباه وزوجه لكنه وجد قومه غير راغبين فى ترك عباداتهم الوثنية القديمة ، فرجع إلى النبى وقد استولى عليه اليأس مما أصابه بسبب الإخفاق فى دعوته ، وطلب من الرسول أن يستنزل لعنة الله على بنى دوس ، ولكن النبى شجعه على المثابرة وقال : ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم ، ودعا النبى لقومه بالهداية وقال اللهم اهد دوسا[1] .

ولا أستطيع أن أقول إن الطفيل قد فشل فى نشر الدعوة بين قومه بل على العكس بلغ من نجاح الطفيل فى بث الدعوة إلى الإسلام أنه وفد على المدينة فى السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة

(١) راجع قصة إسلام الطفيل بن عامر (ابن هشام) ص ٣٨٢ - ٣٨٤ القسم الاول .

من قومه كان الاسلام قد ظهر بانضمامهم اليه [1] .

كل ما هنالك أن هذا الانتشار لم يكن بالسرعة التي كان ينتشر بها الاسلام خصوصاً بعد صلح الحديبية .

وأعتقد أن القبائل العربية . اعتبرت صلح الحديبية انتصاراً لمحمد وهزيمة للمشركين القرشيين، وخصوصاً حين وجدت أن المسلمين قد أصبحوا يعملون فى حرية ويظهرون إسلامهم دون خوف من أحـــد ؛ ومعنى مهادنة قريش للرسول ﷺ وقبول دخوله مع المسلمين إلى مكة حتى وإن كان مشروطاً بشرط أو محدداً بمدة إنمـا هو فى حد ذاته هزيمة لأهل مكة ؛ كما أن هذا الصلح أباح لبعض القبائل فرصـــة الدخول فى عقد محمد والإنضمام إلى صفوفه صراحة . وبخاصة قبيلة خزاعة التى كان جزء كبير من الأحابيش الذين كانت تعتمد عليهم قريش من بطونها [2] .

وبذلك ضم الرسول جزءا كبيراً من هذه القوة إلى جانبه وأضعف مركز قريش الحربى إلى حد كبير . ولقد تأكد لكثير من القبائل العربية صدق دعوة الرسول ﷺ فما أن وجدوا الفرصة أمامهم سانحة للتفكير ووجدوا أن الرسول ﷺ يزداد قوة ونفوذاً وتزداد قريش أمامه ضعفاً وانهيارا ، حتى بادر معظمهم إلى مبايعته على هذا الدين الجديد وهم الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون : دعوا محمداً يقاتل قومه فان نجح فهو نبى حقا [3] .

---

(١) المرجع السابق ٣٨٥ .
(٢) مكة والمدينة ص ٤٦٩
(٣) الدعوة إلى الإسلام (أرنولد) ص ٥٧

السرايا وأثرها في تدعيم الكيان السياسي وحرية الدعوة

لئن ظن بعض الناس أن الرسول ﷺ قد استراح بعد هجرته إلى المدينة وهنيء ببعده عن أعدائه الذين ناصبوه العداء ووقفوا في طريق دعوته في مكة فقد جهلوا طبيعة هذه الرسالة وهذا الرسول الذي لم يكن انتقاله من مكة إلى المدينة إلا مجرد تخطيط للتحرك بطريقة أوسع وأنظم لتبليغ هذه الدعوة ولتوصيلها إلى العالمين ، ولتولي مهام منصبه السياسي رسمياً في المدينة بعد أن بايعه الأنصار من أهل المدينة ممثلين في ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين في العقبة وهي ما تعرف ببيعة العقبة الثانية ، وأصبح كما قلنا ابتداء من هذه البيعة زعيما سياسياً ، وقائداً لهذه الجماعة المؤمنة ، ورئيساً للدولة الناشئة التي كان يعمل لتأسيسها بوحي من الله منذ بدء الدعوة ، والتي بشره الله تبارك وتعالى بها وبقيامها وهو في مكة وذكرنا بعضاً من هذه الآيات المكية في فصل سابق .

كان انتقال الرسول ﷺ من مكة للمدينة عبارة عن خطة ثانية استمرارا لاستكمال إقامة الكيان الدستوري الكامل بجميع تشريعاته وتقنيناته الإلهية وليس من حق إنسان أن يدعى أن السياسة طغت على المهمة الرسمية للرسول وهي تبليغ الدعوة وأنه تغير في المدينة عنه في مكة .

ولكن قلنا إنه لا يمكن إطلاقاً أن نفصل بين السياسة والدين بل يجب أن نؤمن بأن سياسة الرسول كلها بلا استثناء دين وشرع

كما أن سياسة أصحابه نفسها خصوصاً الخلفاء الراشدين ، إنما هي تشريع ديني ، وإذا كان الرسول ﷺ في مكة كان كل همه ، أو همه الأكبر في

الدعوة ونبذ عبادة الأصنام وتغيير معتقداتهم الفاسدة ومحاولة اقناعهم بوحدانية الله ، فإنما كان هذا بسبب أن الأصل فى الدين وكل الأديان هو (الإيمان أولا بوحدانية الله وعمل الخير) ولم يكن هذا موجوداً فى مكة ، فكان من الطبيعى أن يصرف كل همه فى ذلك ، وأما الدولة وقيامها وتأسيسها فقد كانت تابعة لقيام الدين ، وتأسيس الدولة وقيامها هو الوسيلة العملية التطبيقية لتقرير هذا الدين وإقراره والدعوة اليه ، وهل تتأسس دولة بلا أتباع ؟

ولذلك حين أحس الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو عرف بوحى من الله أن أهل مكة لن يجد منهم بعد هذا كله إلا الصد والمحاربة والبطش به وبأصحابه ، انتقل إلى موقع آخر يستطيع منه أن يتحرك وأن يخطو خطوات أوسع .

وهذه سنة الله مع الأنبياء والمرسلين جميعا ، بل تكاد تكون الهجرة عن الوطن فى سبيل الدين من أهم مظاهر الرسالة القوية فى بيت إبراهيم عليه السلام ، وكان هو أول من اشترعها لأبنائه الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام .

فقد هاجر ابراهيم من أرض الجزيرة بالعراق إلى الشام وإلى مصر وإلى الحجاز ، حيث يجد للحق أعواناً ولكلمة الله أنصاراً ، كذلك هاجر موسى ببنى إسرائيل عن مصر وهاجر عيسى من الناصرة وفرّ إلى كفر ناحوم حين أرادوا قتله وإلقاءه من فوق الجبل وخرج من بينهم وهو يقول : (ليس نبى مقبولا فى وطنه [1]) .

---

(١) انجيل يوحنا الاصحاح الرابع - ٤٤ .

وكأن هذا الأمر كان معروفاً مقرراً حتى يقول ورقة بن نوفل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى مبدأ الرسالة (ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فيقول الرسول أو مخرجى هم ؟؟ فيقول ورقة نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودى .

بل إنا نلمح ذلك من الآية الشريفة ، ونلمح منها أيضاً أن الهجرة من أولى علائم فوز الدعوة وأمارات انتصارها . .

(وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا[1]) .

كذلك فإن المدينة كانت تختلف عن مكة ، فهو فى المدينة صاحب الأمر والنهى فيها ، لا تقف فى طريقه عقبة وليست أمامه قوى كبرى تمنعه من التقنين والتشريع للدولة الجديدة .

وكان طبيعياً أن يهتم الرسول (صلى الله عليه وسلم) كصاحب دولة ودعوة ، بالقوة التى تحمى له هذه الدولة وهذه الدعوة .

كما قلنا كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) محاطاً بالأعداء من كل جانب ، والقبائل العربية المحيطة بالمدينة كانت لا تزال على شركها وربما فكرت فى غزو المدينة أو احتلالها .

لهذا وبعد وصول النبى إلى المدينة بحوالى سبعة أشهر فقط وبعد استقرار أصحابه المهاجرين واطمئنان كل واحد منهم على مكان اقامته وطريقة معيشته

(١) الاسراء ٧٦—٧٧

رأينا الرسول يبدأ فى إرسال السرايا العسكرية التى يمكن أن نسميها بمفهوم هذا العصر (مظاهرات عسكرية أو مناورات حربية) . وهى التى تتقدم عادة لاعلان الحرب بين الدول فى هذه الأيام وإذا كان بعض المؤرخين يرى أن هـــذه السرايا لم تكن أكثر من سرايا استطلاع ، فانى أقول بأن سرايا الإستطلاع لا تكون بهـذا العدد ، كما أن الإستطلاع عادة يكون فى حالة تخفى وبأعداد أقل من هذا بكثير .

وحتى على فرض أن المسلمين كانوا يبغون من وراء تسيير سراياهم هذه التحرش بقريش (دولة مكة) والإنتقام منها وسلبها أموالها .

فإن المسلمين كان من حقهم أن يفعلوا ذلك وأن يستردوا الأمـوال التى سلبتها مكة منهم ، وحالة الحرب قائمة بالفعل بين المسلمين وبين القرشيين ، والمســلمون معتدى عليهم ، وبعض المسلمين فى مكة مضطهدين ولا زالوا يقاومون ويعذبون ، ولا زالت قريش تقف فى طريق الدعوة وتحاربها بشتى الطرق ، بل لعلها كانت تحرض قبائل العرب الأخرى وهم أحلافها وتحاول ما استطاعت القضاء على الدولة والدعوة .

ولم يكن هذا بممنوع ولا غير معترف به فى القديم أو الحديث ، فهو من قبيل مصادرة الدولة لأموال أعدائها فى حالة قيام حرب فعلية أو غير فعلية وانقطاع العلاقة بين دولتين يجوز لكليهما أن تحجز ما عندها من أمـوال الدولة الأخرى ، بل يجوز لها أن تأسر الذين فى بلادها من رعاياها ، ويجوز لها أن تجعل الأموال المحجوزة ضمانا لسداد المغارم التى تنزل بها وبأبنائها ، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها فى

سجون الدولة الأخرى [1] .

وقد حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يدافع عن موقف الرسول من إخراج هذه السرايا وإثبات أن هذه السرايا لم تكن للسطو على القوافل كما كانت العادات الشائعة فى جزيرة العرب قبل الإسلام .

ومع أن لى رأى آخر فى خروج هذه السرايا ، إلا أن الرسول لو كانت نيته الإستيلاء على قوافل قريش المارة بطريق المدينة فإن القانون يعطيه هذا الحق . فحالة الحرب كما قلنا كانت قائمة بين المسلمين والمشركين وأموال المسلمين المهاجرين انتهبت وصودرت ، والمسلمون المستضعفون لا يزالون فى مكة يعذبون ويفتنون فى دينهم ، فلا جرم ولا اعتداء حينما تخرج هذه السرايا تناوش هؤلاء أو حتى تقاتلهم وتستولى على مامعهم من أموال تعويضاً لهم عن أموالهم وحملا للمشركين على تغيير موقفهم من الإسلام والمسلمين .

ولقد هاجم الرسول القوافل القرشية فى ذهابها إلى الشام وعودتها منه ، وأعتقد أنه لم يكن برغم ذلك وبرغم حقه فى الإستيلاء على هذه القوافل ومصادرتها كما قلنا يقصد الاستيلاء حقيقة على هذه القوافل ، وإنما أراد بذلك مجرد تخويف قريش وإرغامها على مهادنته ومسالمة المسلمين ولذلك انتظر الرسول ﷺ هذه المدة دون أن يتعرض لقوافلهم رغبة منه فى محاسنة قريش ، وترك الصادر والوارد من تجارتهم دون أن يتعرض له علّ ذلك يؤثر فيهم فيحملهم إلى مقابلة الجميل بمثله والاحسان فى معاملة من بقى من المسلمين فى مكة .

لكنهم لما ظلوا على موقفهم العدائى اضطر الرسول إلى اتخاذ هذا الموقف منهم ، ولم يكن على ما أعتقد يبغى الدخول معهم فى حرب ، ولكن

---

(١) عبقرية محمد (العقاد) ص ٤٩ ، ٥٠ بتصرف .

كل ما كان يؤمله ويرجوه أن تؤثر هـذه السرايا فى قريش فيضطرون إلى مسالمته وترك الحرية للدعوة وعدم الاعتداء عـلى مستوطنى مكة من المسلمين .

ولم يخرج المسلمون من المدينة إلا بعد أن جاءتهم الأخبار المفصلة عن القافلة وعن عدد رجالها وعما تحمله ، وقد كان بينهم عدد غير قليل اشتغل بالقوافل وشرّق وغرّب وأنجد وأتهم، أى أنهم كانوا مستعدين عند خروجهم فى كل مرة لأنهم كانوا يعرفون استعداد المكيين الذين كانوا يحتاطون دائماً لكل احتمال خصوصاً مع قوافلهم التى كانوا يخشون عليها السلب والنهب .

وقد روى كثير من المؤرخين أن السرية الأولى التى أرسلها الرسول ﷺ وكانت مكونة من ثلاثين مهاجراً عـلى رأسهم حمـزة بن عبد المطلب عم الرسول قد خرجت للقاء قافلة لقريش والاستيلاء عليها إذا أمكن ، إلا أنى أستبعد أن يكون خروج هذه السرية لهذا السبب خاصة إذا عرفنا أن المكيين كانوا يحتاطون دائماً لكل احتمال خصوصاً مع قوافلهم التى كانوا يخشون عليها السلب والنهب ؛ ولذلك فقد روى أن عدد رجال هذه القافلة كان ثلاثمائة رجـل يقودهم أبو جهل زعيم بنى مخزوم وأعدى أعداء المسلمين [1] .

وقد قالوا عن هذه القافلة أن الجميعين التقيا على ساحل البحر الأحمر قرب العيص فى ديار جهينة واصطفا وكاد القتال أن ينشب بينهما لولا توسط مجدى بن عمرو الجهنى الذى حال دون اشتباك الفريقين [2] .

---

(١) راجع القصة (ابن هشام) ص ٥٩٥ القسم الأول .
(٢) المرجع السابق .

ولا شك أن ما حدث كان انذارا لقريش بظهور المسلمين وتهديداً لهم بأن المسلمين يستطيعون منازلتهم وقتالهم إذا استمروا على عدائهم ، ولا يعنينا أن نتحدث بتفصيل عن هذه السرايا ولا عن وقائعها ، كل ما هنالك أنني رغبت في توضيح موقف الرسول من أهل مكة ومدي ما صنعته هذه السرايا السلمية في تدعيم كيان الدولة وفي حرية الدعوة ، فقد ثبت أن الرسول استمر في إرسال هذه السرايا وأرسل سريتين أخريين بمعدل سرية كل شهر ، وقد خرج الرسول ﷺ بعد عودة السرية الثالثة بشهرين أى فى صفر فى نهاية العام الأول للهجرة[1] خرج بنفسه على رأس ستين مهاجراً قاصداً (ودان) وهى قرية فى شمال المدينة قرب (الأبواء) ولذلك سموا هـــذه السرية غزوة الأبواء[2] . . ورأيي أن الغاية من هذه الغزوة أو السرية[3] ، نفس الغاية من إرســال السرايا الثلاث . . أى ازعاج قريش ولفت أنظارها إلى قــوة المسلمين وإلى محاولة التفاهم معهم ومسالمتهم ، ومع أن رسول الله ﷺ لم يدرك القافلة ، التى أري أنه تعمد عدم الإلتقاء بها ، وإن كان قد حاول أن يفهم العرب أنه خرج لمصادرة هذه القافلة أو فهموا هم ذلك . إلا أن الرسول برغم عدم إدراكها والحصول عليها أصاب فوزاً سياسياً وعسكرياً لا يستهان به أعتقد أنه كان المقصود الأول من خروجه ، وهو يدل على شدة يقظة الرسول وبعد نظره وسياسته الحكيمة ، فقــد عقد الرسول أول محالفــة بينه وبين إحدي قبائل الشمال مما يدل على أن التخطيط المحمدى كان تخطيطاً دقيقاً محكماً

---

(١) ابن هشام ٥٩١ القسم الاول .

(٢) المرجع السابق .

(٣) اصطلح المؤرخون الاسلاميون عـلى اطلاق لفظ سرية عـلى كل قوة عسكرية سيرها الرسول بقيادة أحد رجاله أما التى يقودها بنفسه فقد أسموها غزوة .

وكانت هذه المحالفة ، مما سيظهر لنا عند الإطلاع على نصها ، من ضرورات الأمن للدولة الإسلامية ، لا لحماية الدولة فقط ، وإنما للتمكين للدعوة نفسها من أن تشق طريقها بين القبائل العربية ، وحتى لا تقف هذه القبائل عقبة فى طريق نشرها وانتشارها كما وقفت قريش فى طريقها فى مكة .

(هل أفادت السرايا الدعوة الاسلامية ؟) :

أثبت المؤرخون أن النبى ﷺ اتصل وهو فى ودان بمخشى بن عمرو الضمرى سيد بنى ضمرة وعقد معه عقداً تعهد فيـــه المسلمون بالدفاع عن بنى ضمرة إذا هوجموا وبأن لا يقاتلوهم[1] ، وهذا نص المعاهدة :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم بسوء بشرط أن لا يحاربوا فى دين الله ما بلّ بحر صوفة ، وأن النبى إذا دعاهم لنصر أجابوه عليهم بذلك ذمة الله ورسوله[2] .

ولو حاولنا تحليل نص هذه المحالفة التى عقدها مع بنى ضمرة لوجدنا أنهـا محالفة عسكرية بالمعنى المفهوم من التحالف العسكرى فى اصطلاح عصرنا .

لقد نصت هذه المعاهدة على تعهد كل فريق بالدفاع عن الآخـر فى حالة الدفاع والهجوم . فالنص يقول : وأن لهم أي بنى ضمرة النصر على من رامهم بسوء ، وأن النبى إذا دعاهم إلى نصر أجابوه ، ولـكن الرسول ﷺ شرط عليهم ألا يحاربوا فى دين الله حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم

---

(١) زاد المعاد ص ٨٣ جـ ٢ .
(٢) أمين سعيد ص ٤٤ .

أو حاول الاعتداء ، وفى هـذا إبعاد للعقبات التى يمكن أن تقف فى طريق الدعوة الاسلامية ، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بنى ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين أو يقفوا فى طريقه ، وبهذه المعاهدة أصبح بنو ضمرة أول قبيلة حجازية مالت إلى المسلمين وحالفتهم دون أن تدخل فى الدين الجديد ، وتعتبر فوزا سياسياً وعسكرياً للمسلمين لا يستهان به بالنسبة لحالتهم فى تلك الأيام .

وودان هذه تقع فى شمال المدينة قرب الأبواء كما قلنا ، بينها وبين المدينة حوالى ٢٨ كيلو مترا[١] ، وخروج النبى إلى هذه المسافة وتحالفه مع بنى ضمرة أو مع غيرهم يعطينا معنى من معانى الحيطة والحذر الذى كان يعمل له الرسول ﷺ فهو يريد أن يؤمن الدولة ويفتح مجالا للدعوة فى جميع بلاد العرب وهو مطالب بتبليغ الرسالة ، ولا مجال لتبليغها إلا باتخاذ هـذه الوسائل السياسية والعسكرية معاً .

ويخرج الرسول ﷺ فى الشهر التالى أى فى ربيع الأول يقود مائتين من المهاجرين حتى يصل إلى بواط وهو مكان قريب من ينبع ، وتبعد ينبع عن المدينة حوالى ٢٣٠ كيلو مترا إلى الغرب[٢] .

المؤرخون يقولون أنه خرج يطلب قافلة لقريش بعد أن علم من مصادره الخاصة أنها على وشك المرور من هناك ، ولـكنى أرى أن الرسول ﷺ كان ظاهر خروجه طلب القافلة ، إلا أنه كان ينظر إلى أبعد من هذا بكثير ، فالرسول خرج إلى مكان بعيد جـداً عن المدينة والقوافل القادمـة من مكة والشام تمر قريباً من المدينة ، ولم يكن فى حاجة إلى المغامرة بالابتعاد عنها هذه

---

(١) أمين سعيد ٤٣

(٢) زاد المعاد ص ٨٣ ج ٢ وأمين سعيد ص ٤٧

المسافة الطويلة ، فلم لا يكون قصده بهذه المظاهرة العسكرية إرهاب القرشيين وإنذار من تسول له نفسه من القبائل المنتشرة فى جزيرة العرب محاولا الاعتداء على المسلمين أو التصدى لدعوتهم ؟ ولعله رغب أيضاً فى عقد محالفات أخرى على غرار محالفته مع بنى ضمرة ، ولا شك أن خروجهم ما كان يخلو من تأثير أدبى كبير يؤثر فى نفوس أعدائهم وفى نفوس سكان الجزيرة العربية كلها وقد قصده النبى أيضاً ، خصوصاً وأن سكان الجزيرة كانوا يرقبون باهتمام عظيم نتائج هذا النضال بين محمد والقرشيين .

والملفت للنظر ، الزيادة المستمرة فى عدد أفراد هذه السرايا التى بدأت بثلاثين محارباً فى سرية حمزة ثم ارتفع إلى الستين فى السرية الثانية ، ثم هبط إلى العشرين ، ثم ارتفع مرة ثانية إلى الستين فى غزوة الأبواء ، ثم ها هو يرتفع إلى المائتين ، وهو تقدم يدل على أن المسلمين كانوا يعملون بدون انقطاع على تنمية جيشهم .

ولقد وجدنا الرسول ﷺ يخرج بعد فترة قصيرة من خروجه إلى بواط قيل فى جمادى الأولى وقيل فى جمادى الآخرة[1] ، إلى أقرب مكان إلى مكة بلغته سرايا المسلمين العسكرية منذ بدأوا تسييرها ، فقد وصلوا إلى (العشيرة) على رأس مائتين من المهاجرين ، وقالوا أيضاً أنه خرج لمصادرة قافلة قريش التى لم يلتق بها ، ورأيى أيضاً فى سبب الخروج هو رأيى السابق ، خصوصاً وقد رأينا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقد عاد بعد أن وادع بنى مدلج من سكان هذه الناحية وعاهدهم على ما عاهد عليه بنى ضمرة ولم يعد إلى المدينة إلا بعد

---

(١) راجع ابن هشام ص ٥٩٩ ، زاد المعاد ص ٨٣ جزء ٢ وفيه أن عدد المسلمين ١٥٠ فقط .

مرور شهر وبضعة أيام[1]. قالوا ظل الرسول فيه يدرس حالة قريش ويستقصى أخبارها[2].

ولكنى أقول لعله ظل هذه المدة الطويلة يحاول الإتصال ببعض القبائل والتفاهم معهم ، خصوصاً وأن تقصى الأخبار ليس فى حاجة إلى هذه المظاهرة العسكرية ، ولعله أراد ببقائه هذه المدة الطويلة على رأس هذا العدد الكبير من الجيش إعلام العرب جميعاً بموقف الإسلام وقوة أتباعه ، وفى هذا عرض للدعوة أيضاً وإعلام بها ، خصوصاً وأن الرسول بقى خارج المدينة حينما خرج إلى الأبواء ، (١٥ ليلة) وبقى كما قلنا حين خرج إلى بواط شهراً وبضعة أيام[3].

وحين لم تجد هذه السرايا والمظاهرات فى حمل قريش على اتخاذ موقف المسالمة من الإسلام والمسلمين ، ووصل الأمر إلى تحدى قريش للرسول واستهتارها بهذه السرايا والغزوات . وجاءت بجيشها إلى قرب المدينة عند بدر برغم معرفتهم بتفلت القافلة التى خرج الرسول ومعه ثلاثمائة وأربعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار للاستيلاء عليها ، كان لابد والرسول فى هذه الحالة مدافع لا مهاجم . من الصدام الحربى المسلح بين المسلمين والمشركين والذى انتهى بهزيمة المشركين هزيمة منكرة فى أول لقاء لهم مع جيش محمد (صلى الله عليه وسلم) .

---

(١) ابن هشام ص ٥٩٩ القسم الأول .
(٢) أمين سعيد ص ٤٧ .
(٣) زاد المعاد ص ٨٣ ج ٢

ولقد كان الرسول يرغب فى مهادنة كل القبائل العربية ومسالمتهم ولم يكن لديه مانع أيضاً من أن تسالمه قريش ، بل إنه كان يتمنى ذلك ويعمل له ويرجو أن تتركه يبلغ رسالات ربه ، ولكنها اتخذت موقفاً عدائياً ، وظلت تحاول ما استطاعت القضاء عليه وعلى الدعوة التى يدعو إليها .

والمتتبع للحروب التى قامت بين الرسول والقرشيين يجد أن الرسول كان دائماً فى موقف المدافع لا المهاجم ، وكان موقفه من أعدائه حتى فى أثناء حروبهم له موقفاً يتسم بالرحمة والرأفة والعدل المطلق ، فلم يقتل أسراهم ولم يتشف فى قتلاهم كما صنعوا هم ببعض شهداء المسلمين فى أحد [1] .

وقد رأينا كيف رفض أن يخلع ثنيتى سهيل بن عمرو أسيره فى بدر رغم إيذائه للرسول وهجوه والتحريض عليه وقال (لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبياً [2]) .

ولقد طلب الرسـول من المسلمين فى بدر ألا يتعمدوا قتـل عمه العباس وبعض القرشيين من بنى هاشم [3] ، لخدمتهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) برغم انضمامهم رسمياً لجيش الأعداء ، فقد قيل إن العباس عم النبى كان يرسل بأخبار قريش أولا بأول [4] ، لابن أخيه ، مما يفسر استنتاجنا السابق .

---

(١) راجع تمثيل المشركين بحمزة والمسلمين ص ٩١ وما بعدها ابن هشام القسم الثانى .

(٢) راجع ما نزل فى النهى عن المثلة (ابن هشام) ص ٩٦ القسم الثانى .

(٣) حياة محمد (هيكل) ص ٢٣٢

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٤

من أن العباس كان مضطراً للخروج مع المشركين فى بدر حين صدر الأمر من حكومة قريش بالنفير العام ، بل إن الرسول علل سبب أمره بعدم قتل العباس فى بدر بأنه أكره على الخروج فقال :

(من لقى منكم أحداً من بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقى العباس ابن عبد المطلب فلا يقتله فإنما خرج مستكرها [1]) .

ومع أن الحرب كانت تتيح للنبي (صلى الله عليه وسلم) استرقاق أسرى الأعداء ، وكانت الشرائع الموجودة فى زمانهم تبيح هذا ويبيحه الشرع أيضاً إلا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما عمل على استرقاق عربى قط ، وكان يتحايل بشتى الطرق لفك أسراهم واطلاق سراحهم ، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان ينظر إلى أبعد من هذا ، فهو يعرف أنهم حملة الوسالة من بعده ، ولعل ما صنعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين غزوه لبنى المصطلق وزواجه من (جويرية بنت الحارث) واطلاق سراح الأسرى منهم دليل على ذلك [2] كما أن موقفه من أهل مكة بعد فتحها وصل إلى أكثر من هذا فهو لم يوافق على استرقاق المكيين برغم أن فتح مكة كان عنوة وليس صلحاً [3] ، بل إنه رفض أن ترد أملاك وأموال المهاجرين من

---

(١) أمين سعيد ص ٧٨ ، ابن هشام ص ٢٦٩ القسم الأول وفيه أيضاً نهيه عن قتل أبى البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد .

(٢) راجع غزوة بن المصطلق ص ٢٨٩ وما بعدها ابن هشام القسم الثانى.

(٣) راجع زاد المعاد ٦٩ ، ١٧٢ ج ٢

المسلمين التى استولى عليها أهل مكة قبل الهجرة [١] .

وأعاد سبايا هوازن إليهم وألح كثيرا على المسلمين في أن يطلقوا السبايا برغم أنها أصبحت شرعاً ملكاً لهم ووعدهم بتعويضهم عنها [٢] .

فالرسول لا يحب الحرب للحرب ويكره أن يراق دم عربى مسلماً كان أو مشركاً طالما هناك وسيلة لمنع إراقة هذا الدم .

والله أعلم ،،،،

(١) المرجع السابق ص ٦٩ ج ٢ .
(٢) ابن هشام ص ٤٨٩ — ٤٩٠ القسم الثانى .

الجهاد ونشر الدعوة الاسلامية

تمهيد :

تهدف كثير من الدول إلى سيادة شعوبها على غيرها من الشعوب . وتحاول كل دولة ما استطاعت أن توسع ملكها بين الدول حتى تكون أعظم دولة فى الأرض وحتى تستأثر بكل خيرات الأرض .

ولهذا تقوم الحروب بين الدول . وأسبابها هذا الطمع المرذول والجشع الممقوت والطغيان الذى يؤدى إلى هذه الحروب ويثيرها بين الشعوب .

أما دولة الاسلام أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم الدولة العربية الاسلامية، التى أسسها محمد ﷺ وتولى حكمها من بعده الخلفاء الراشدون ، فكانت أهدافها لا ترمى الا إلى تبليغ الدعوة الاسلامية ليس طمعاً فى ملك أو إمارة أو لسيادة شعب على شعب آخر . وإنما كان القصد من الدعوة الاسلامية هو توحيد الله والحكم بالعدل بين الناس وهما غايتان من أشرف الغايات .

وحين ننظر إلى وصية الرسول (ﷺ) التى أوصى بها أمراء الجيش الذى أرسله إلى خارج بلاد الحجاز لغزو الأراضى الجنوبية لبلاد الشام حيث كان يقيم الغساسنة وكان هذا سنة ٨ هجرية نرى فى هذه الوصية قصد الرسول (ﷺ) من هذه الحرب، حيث لم يرسل هذا الجيش بقصد الاستئثار بخيرات الأرض، ولا بقصد الجشع والطمع كما تفعل كثير من الدول . وإنما أرسله كما قلنا يدعو إلى توحيد الله وإلى الحكم بالعدل بين الناس وقد جاء

فى هذه [1] الوصية (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا . اغزوا بسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله . ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم وا كفف عنهم ، ادعهم إلى الدخول فى الاسلام . فإن فعلوا فاقبل منهم وا كفف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وإن دخلوا فى الاسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين ويجرى عليهم حكم الله ولا يكون لهم فى الفيء ولا فى الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فان فعلوا فاقبل منهم وا كفف عنهم . فان أبوا فاستعن بالله وقاتلهم).

فكأن الأصل فى الجهاد هو العداوة التى بيننا وبينهم وإنما جعلت الحرب خروجا من هذا المأزق . والإسلام يلغى هذه العداوة وينهى كل المشاكل .

وقد طلب الرسول أن يدعوهم إلى الدخول فى الإسلام فإن اعتنقوه كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وصاروا حينذاك رعايا لدولة الاسلام وبالتالى فلن تكون هناك العداوة الموجودة الآن . وحينذاك تنتهى الحرب ولا احتلال ولا فرض نفوذ ولا غير ذلك . حيث صاروا هم والمسلمون سواء . وان رفضوا قبول الاسلام . فليعطوا الجزية وهى عبارة عن ضريبة بسيطة يدفعونها مقابل حمايتهم واعترافا منهم بخضوعهم لحكم الدولة الإسلامية : وليست الجزية إلا معاهدة بينهم وبين المسلمين على عدم

---

(١) إمتاع الأسماع جـ ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١٢ ص ٣٧ ، ٣٨ .

الاعتداء أو التعرض لنشر الدعوة ؛ ومقابل دفعهم لهذه الجزية يتكفل المسلمون بحمايتهم والدفاع عنهم[1] .

ولا تكون الحرب إلا بعد تخييرهم بين هذه الثلاث التي ذكرت في الوصية .

والغريب أنهم بعد إسلامهم يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ولهم أيضاً في الفيء والغنيمة إن جاهدوا مع المسلمين . ويجرى عليهم حكم الله كما يجرى على المسلمين . فلا يعاملون معاملة المهزومين ولا يفرق بينهم وبين الفاتحين ما داموا قد أسلموا .

وتستمر وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لجيشه وقواده . فلا يأمرهم بالتخريب ولا بالانتقام من هؤلاء المحاربين كما تصنع الدول حين تحتل بلادا غير بلادها . حيث تخرب وتحطم ما شاء لها التخريب والتحطيم . إذلالا لهذا الشعب المهزوم وتحطيمها لمعنوياته واقتصادياته .

أما الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول لأصحابه : لا تقتلوا وليدا ولا تغدروا ولا تخونوا .

ولقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) حريصا على الدعوة من غير أن يضطر إلى القتال . ولذلك لم يوافق على أن يقاتلهم على غرة وكان يخيرهم قبل القتال بين الإسلام أو العهد أو القتال . بل ويجب أن يتحرى القائد

---

(١) راجع بحثنا للدكتوراه في موضوع الجزية من ص ٣٨١ إلى ص ٣٩٤ .

فلا يقاتلهم الا إذا منعوه من الدعوة . وأكثر من هذا لا يقاتلهم الا إذا قاتلوه أولا وقتلوا من أصحابه .

فقد أوصى الرسول ﷺ معاذا بذلك حين أرسله مع طائفة من المؤمنين لفتح اليمن وعرض الدعوة الإسلامية وتأمينها . وقال لهم[١] : لاتقاتلوهم حتى يبدؤوكم فان بدؤوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلا ثم أروهم ذلك وقولوا لهم هل إلى خير من هذا السبيل ؟ فلأن يهدى الله على يديك رجلا واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت .

وقد جاء فى مبسوط السرخسى[٢] أنهم كانوا يطلبون من القائد إذا أبوا (أى الأعداء) الاسلام أو العهد أو القتال ألا يحارب فور ذلك . بل يذهب إلى الصلاة مع جيشه حتى إذا أتم الصلاة عاد فجدد الدعوة . وقالوا : أكثر من ذلك أنه يحسن ألا يقاتلهم فور الدعوة والسكوت . بل يبيتهم أى يتركهم يبيتون ليلة يتفكرون ويتدبرون ما فى مصلحتهم .[٣]

وهكذا نرى أن المقصود واضح وهو أن يؤخذوا برفق ليسهلوا موضع وصول الدعوة إلى الشعب . وكان المسلمون يستمسكون بهذا أشد الاستمساك ويفعلون ذلك عن بصيرة وعدالة . ويروى فى ذلك أن قتيبة بن مسلم دخل جزءا من سمرقند من غير أن يخيرهم ، فجاء أهل سمرقند إلى الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز يشكون إليه أن قتيبة دخل أرضهم من غير أن يخيرهم .

(١) ابحاث علماء المسلمين (المؤتمر الرابع) خاص بالجهاد ص ٩٦ بحث الشيخ محمد أبو زهرة .
(٢) المرجع السابق : ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) ص ٩٧ من المرجع السابق .

فأرسل عمر بن عبد العزيز إلى القاضى بشكواهم وأمر أن يجلس ليستمع إليهم فإن ثبت ما قالوا أمر جيش قتيبة أن يخرج من أرضهم ويعود إلى معسكره . ثم يخيرهم . فحقق القاضى الأمر وتبين له صحة شكواهم . فأمر الجند أن يعودوا إلى ثكناتهم ويخيرهم ذلك التخيير فدخلوا فى العهد آمنين مطمئنين .

وواضح أن العهد يكون على أساس العدالة وتمكين الدعوة الاسلامية. فان نكثوا وحاربوا الدعوة نبذ إليهم عهدهم . لعدم الوفاء من جانبهم . وان أخلوا بالعدالة فى رعاياهم رد عهدهم ، ووجب ألا يشتمل العهد على تمكينهم من ذلك . وإلا بطل اشتراط هذا العهد لأنه شرط على خلاف ما عليه الأحكام الإسلامية المستمدة من كتاب رسول الله (ﷺ) .

والإسلام ليس دين استسلام ، وليست الفضيلة فى الاسلام فى الركون إلى الدعوة . إنما الفضيلة فى الاسلام هى رد الاعتداء ومنع الخضوع للأقوياء . ولذلك شرع القتال لمنع الفساد فى الأرض إذ أنه لو ترك الأشرار يعيثون فسادا من غير رادع يردهم ولا مانع يمنعهم . لعم الفساد فى البر والبحر ولصار هو الهوان الذى يسيطر . والرحمة بالأشرار قسوة بالأخيار . وإن الذين يهذب نرط حبهم للتسامح مع الأشرار وهم لا يلوون على شىء إلا جعلوه خرابا . إنما يحرضون على الشر . ورب تسامح يحوى فى ذاته أكبر الجرائم فتكا بالجماعة الإنسانية . ولذلك قال الله تعالى :

(ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين[1] .

---

(١) البقرة ٢٥١ وراجع الجهاد مؤتمر علماء المسلمين (الرابع) ص٢٦٨ .

وكما قلنا لا بد لكل دعوة من قوة تحميها وترد عنها أذى المعتدين . حتى لا يذهب الخير ولا يبقى إلا الشر . ولهذا أذن الله بالقتال دفاعا عن الفضيلة .

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله[1] .

ولقد فرض الجهاد للضرورة التى تلزمه وتحث عليه ضرورة الدفاع عن النفس والحوزة . ولو لم يمنع المسلمون من الدعوة إلى الله وتركهم الناس فى دعة واطمئنان ما تعرضوا بالقتال لأحد . لأنه فى هذه الحالة يكون اعتداء (والله لا يحب المعتدين) .

فالقتال فى ذاته غير مرغوب فيه بل هو مما تكرهه النفس وتأباه (كتب عليكم القتال وهو كره لكم[2] .

والجهاد باب من أبواب الدعوة . والقتال لإزالة الحواجز التى تقف فى وجه هذه الدعوة وتمنع وصولها إلى الناس ـ هو آخر درجاتها وأعلى مستوياتها . فالمسلم يقدم نفسه للموت وهى أغلى ما فى الإنسان . وهذه أعلى درجات الايمان . وإن كان جهاد النفس جهادا شاقا له ثمراته خصوصا حين يجعل المؤمن أعماله كلها لله لا يبتغى سوى مرضاته . وقد أثر عن النبى أنه قال بعد رجوعه من احدى الغزوات رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر .

---

(١) الحج ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) البقرة ٢١٦ .

وأول درجات الجهاد الدعوة إلى الحق بالتى هى أحسن والمجادلة بالحسنى ، وان كانت هذه هى غايته المقصودة ، وفى هذا يقول الله (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن [1] .

والقلوب ليست مفتوحة لكل دعوة خير ، وليست العقول مستعدة لأن تزن الحق مجردة من الهوى والتقليد ، وإنما سيقولون دائما (بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون [2] .

ولهذا كان الداعى دائما ما يجد صعوبة بالغة فى توصيل الحق ، حيث أن تغيير المألوف الذى يكون فيه اتباع الهوى وسيطرة الشهوات ، من أعسر الأمور وأصعبها ، ولذلك كان الدعاة الى الاسلام لا يسلكون سبيلا معبدا بل يسلكون سبيلا وعرا ولا يجدون قلوبا صاغية ولا آذانا مستمعة ، فلا يكفى أن يبينوا بل عليهم أن يجاهدوا ، وقد ضرب الله مثلا صادقا فقال سبحانه :

(واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا اليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين ، قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون [3] .

---

(١) النحل : ١٢٥
(٢) البقرة : ١٧٠ .
(٣) يس : ١٣ الى ١٩ .

وكانت أعلى صورة من هذا النوع من الجهـاد هو جهاد النبى (صلى الله عليه وسلم) فى مكة قبــل الهجرة ، حيث ذاق النبى فى سبيل ذلك الأذى والعذاب بهذا الصبر الجميل ، وتحمل الأذى كان رفيق الدعوة والجهاد الأول فى الإسلام ، وليس ذلك عن ضعف فى شخص الداعى ولـكن عن رفق فى الدعوة نفسها ليدخل الناس طائعين مختارين مطمئنين إلى الحق ، وليـكون من بعد ذلك رجال جهاد صابرين يفدون الحق بأنفسهم وأموالهم ، وقد كان النبى يتحمل الأذى فى الدعوة لتكون رفيقة من جانبه وليـكون الايمـان صادراً عن رغبة لا عن رهبة أيا كانت صورتها وشكلها [1] .

وبعد تأسيس الدولة الإسلامية وهجرة النبى إلى المدينة بدأ نوع جديد من الجهاد ، وهو العمل على حماية هذه الدولة التى نشأت ، ومنع الاعتداء على المستضعفين من المسلمين الذين يخضعون لسلطان غير المسلمين ، ومع استمرار فتنتهم ، فكان ثمت جهادان .

١ — جهاد فى تبليغ الدعوة الإسلامية والإعلام بها .

٢ ـ وجهاد فى منع العدوان والاعتداء على الدولة الإسلامية ، وعــلى المسلمين عموما فى كل مكان .

وقد أرســل الرسول ﷺ إلى الملوك والزعماء يدعوهم إلى الإسلام وأن يخلوا بينه و بين شعوبهم ويدعونهم إلى الإسـلام ، فأرسـل إلى ملوك عصره وزمانه كبارهم وصغارهم لتستمر الدعوة فطريقها (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته [2]) .

---

(١) الجهاد أبحاث علماء المسلمين (الرابع) ص ٨٢ بتصرف .
(٢) المائدة ٦٧

ونحن باعتبارنا حملة أمانة الدعوة الاسلامية بعد الرسول والتعريف بها للعالمين ، مسئولون عن تبليغها وتوصيلها وذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فوجب علينا أن ندعو الناس إلى الإسلام وأن نبين لهم حقائقه ، يهتدى به من يهتدى ويضل به من يضل بعد أن نبينه لهم ؛ وهذه شعبة من شعب الجهاد ، تطالب به الأمة ؛ وعليها ممثلة فى ولى أمرها أن يكون فيها طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[1]) .

كانت أول آية نزلت فى القتال باجماع المفسرين هى آية سورة الحج :

(أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير[2]) .

وقد بينت هذه الآية السبب الذى من أجله أبيح للمسلمين القتال ، وهو أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لأنهم قالوا ربنا الله : يعنى أنهم ظلموا من أهل مكة وأوذوا بسبب اعتقادهم ، وتعتبر هذه بمثابة تفسير لآية الشورى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق[3]) .

فقد أراد الله تبارك وتعالى أن يوضح أسباب إذنه لهؤلاء بالقتال وبالانتصار بعد الظلم فبين أن هذا الإذن ليس مخالفاً لما تقضى به سنة التدافع بين الناس حفظاً للتوازن ودرءاً للطغيان وتمكينا لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم والبقاء على عقيدة التنزيه ، ثم وصفت المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال

---

(١) آل عمران ١٠٤
(٢) آية ٣٩ .
(٣) آية ٤١

بأوصاف هي فى الحقيقة تنبيه لهم إلى ما يجب أن يفعلوه إذا هم انتصروا على من ظلمهم ، وذلك أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

والآية فى مبناها ومعناها تنطق بأنه ليس فيها شائبة من شوائب الإكراه فى العقيدة ، وأنها تقرر أن التدافع بين الناس من سنن الله الكونية لابد منها لحفظ النظام وبقاء العمران .

وقد شغلت الآيات القرآنية فى موضوع الجهاد من حيث كثرتها وعددها حيزا كبيراً يكاد يبلغ نصف القرآن المدنى ، وفى هذا دلالة على أن هذا الموضوع كان من أهم أدوار السيرة النبوية فى العهد المدنى أو أهمها [1] .

فقد كان النبى محوطاً بالأعداء من كل جانب ، اليهود فى قلب المدينة وحواليها ولهم حصونهم وقراهم ومزارعهم وأموالهم الكثيرة ، ولهم مركزهم القوى المتغلغل فى حياة العرب ، ومكة بقيادة زعمائها الأقوياء وما كان بينهم من عداء شديد ، والقبائل العربية الأخرى تنظر إلى هؤلاء وأولئك فترى أن النبى ما يزال ضعيفاً ومنعزلا مع مسلمى الأوس والخزرج ومهاجرى مكة القليلين ، فكان منهم من يقف موقف المتربص ومنهم من يقف موقف المناوىء ، ومنهم من يجرؤ على الغدر والخيانة ، ليتقرب بعمله هذا إلى مشركى مكة أو يهود المدينة ، وكان هذا كله يحتاج إلى الحرب والدفاع والتنكيل وإرسال البعوث والسرايا والغزوات حسب ظروفه وبصورة دائمة ومستمرة ويكفى أن نعلم أن عدد الغزوات والسرايا والبعوث قد بلغ ٦٥ قاد النبى ﷺ

---

(١) سيرة الرسول (دروزه) ص ٢٢٠ ج ٢

منها بنفسه ٢٧ [1] .

وكان هذا كله فى حوالى تسع سنوات ، ومن هنا كانت الحكمة من شغل الجهاد لذلك الحيز الكبير من القرآن .

وآيات الجهاد فى القرآن على نوعين : نوع تضمن الدعوة إليه بالنفس والمال والحث عليه والترغيب فيه ، وتضمنت بعض سوره لمواقف من الدعوة إلى الجهاد ، ونوع آخر أشير فيه إلى وقائع جهاد الرسول البارزة وما كان فيها ، ولم تكن سرداً للوقائع وسيرها ونتائجها وإنما كانت بمثابة تعقيبات عليها قصد بها التشريع أو التنبيه أو التنويه أو التنديد أو الطمأنة أو التسكين أو غير ذلك مما اقتضته ظروف كل واقعة وسيرها ، بل إن هذه النواحى هى البارزة فيها أكثر من مشاهد الوقائع وسيرها وهذا ما يفسر عدم ذكر وقائع حربية مهمة فى حياة الرسول ذكرتها روايات السيرة مثل غزوات مؤته والبحين وفتح الطائف ، ويفسر لنا أيضاً اكتفاء القرآن باشارات خاطفة إلى وقائع مهمة كفتح مكة وخيبر وماتم فى أثناء غزوة تبوك من شئون [2] .

وقد كانت وقائع الجهاد كلها فى حياة الرسول تسير ضمن المبادىء القرآنية وكل سرية أو غزوة وقعت فى زمن النبى ﷺ إنما كانت رداً على عدوان وانتقاما منه أو دفعاً لأذى أو تنكيلا بناكث أو غادر ، أو تأديباً لبغاة الأشرار أو ثأرا لدم إسلامى أهدر ، أو طمأنة لحرية الدعوة والإستجابة المهددتين أو المعطلتين بغيا وعدوانا ، ولا يمكن أن يكون قد وقع من النبى ﷺ نقض

---

(١) راجع عدد الغزوات والسرايا والبعوث ابن هشام ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ القسم الثانى .

(٢) دروزه بتصرف ص ٢٢١ ج ٢

للمبادىء التى قررها القرآن وبلغها النبى ﷺ [١] .

بل إن المشركين الذين كانوا يدخلون فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) شددت الآيات بالوفاء لهم ما داموا محافظين على عهدهم غير غادرين به ، كما أنه كان هناك مشركون يلتزمون الحياد والمسالمة فى حرب بين المسلمين وبين قومهم فنبه القرآن إلى أنه لاسبيل عليهم (إنما ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين [٢]) .

(إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا [٣]) .

ولم يرد فى الروايات خبر وثيق بأن النبى ﷺ رفض طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين ، كما أنه لم يرد خبر بأنه قاتل أناساً مسالمين وحياديين دون سبب مبرر بدى منهم مما هو متسق مع المبادىء والتلقينات القرآنية التى لاشك فى أنه أشد المسلمين وأسبقهم تمسكا بها والتزاما لها [٤] .

ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين [٥] : (كان النبى صلى الله

(١) المرجع السابق ص ٢٢٥
(٢) الممتحنة ٨ ، ٩
(٣) النساء
(٤) راجع دروزه ص ٢٢٦ جـ ٢
(٥) رسائل الاصلاح جـ ٢ ص ١٣

عليه وسلم) يجاهد فى مكة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد عرفتم ما كان يلاقيه من المشركين من أذى ، وما ينالون به أصحابه من سوء العذاب حتى هاجر بعض أصحابه إلى الحبشة وهاجر هو وبقية المسلمين إلى المدينة المنورة ؛ وهناك تألف حوله حزب من المهاجرين والأنصار وأصبح هذا الحزب بين أربعة أصناف من المخالفين : —

١ — معاهدون : وهم اليهود وبعض قبائل من العرب كبنى مدلج وبنى ضمره .

٢ — منافقون وهم الذين أظهروا الاسلام وأبطنوا الكفر .

٣ — محاربون : — وهم كفار قريش ومن شاكلهم فى المجاهرة بالعداوة والسعى للقضاء على هذه الدعوة قبل ظهورها .

٤ — متاركون : — وهم القبائل التى لم تتعرض لحربه ولم تدخل معه فى عهد .

وقد جرى حكم معاملاته صلوات الله عليه لهذه الأصناف الأربعة على مقتضى الحكمة ، وهو رعاية حق المعاهدين ما استقاموا على عهد ، والأخذ فى معاملة المنافقين بظاهر حالهم ، ومسالمة المتاركين ماداموا على حيادهم ، وإعلان الحرب على من وقف موقف العدو الذى لا يرعى عهداً ولا يقبض يده عن شر .

ومن درس غزواته (صلى الله عليه وسلم) وسراياه وجدها إما حربا لعدو لم يدع أذى وصلت إليه يده إلا فعله كغزوة بدر ، أو دفاع عن عدو مهاجم كغزوة أحد وغزوة حنين أو مبادرة لعدو تحفز للشر كغزوة بنى قريظة وغزوة المريسيع وغزوة دومة الجندل وغزوة ذات السلاسل .

أو كسر لشوكة عدو نقض العهد وعرف بمحاربة الدعوة واتخذ كل وسيلة للانتقام من القائمين بها والقضاء عليها كفتح مكة .

ولست هنا فى معرض الحديث عن المراحل المتعددة فى تشريع الجهاد والتى بدأت بالجهاد السلبى قبل الهجرة وانتهت بالأمر بالحرب العامة ضد كل المشركين[1] ، أيا كان نوعهم وجنسهم ومكانهم وزمانهم حيث صدر الأمر الإلهى (قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين[2]) .

ولست هنا فى معرض الحديث عن مراحل الجهاد ، ولكنى أريد أن أوضح فقط أن مراحل الجهاد لا تخرج عن مبدأ الدفاع الذى تؤكده وقائعه المذكورة فى كتب السيرة أو القرآن الكريم .

ولم يكن الرسول ﷺ يتعرض فى قتاله لغير قريش ، ولم يكن بينه وبين غيره من مشركى العرب خلاف أو عداء يؤدى إلى الدخول معهم فى حرب ، ولهذا نرى أن الدستور أو الصحيفة التى كتبها الرسول ﷺ وألزم أهل المدينة بها بما فيهم اليهود ، كانت تبيح للمسلمين واليهود أيضاً أن يجيروا من يشاءون إلا القرشيين فقط ، وذلك لما بينهم وبين الرسول من عداء ، فكانت حالة الحرب تعتبر قائمة بين الدولة الإسلامية فى المدينة وبين دولة مكة (القرشيين) فهم قد اعتدوا والمسلمون ظلموا . (إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وأمروا برد العدوان القائم فعلا (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم

---

(١) راجع الدعوة الاسلامية ووسائلها من القرآن الكريم البحث المقدم للدكتوراه د : أحمد غلوش .

(٢) التوبة : ٣٦ .

ولا تعتدوا[1]).

وكان هذا هو السبب في أن الرسول لم يفكر إطلاقاً في قتال أي قبيلة من قبائل العرب غير أهل مكة لما اعتدوا أو فكروا في العدوان إلا ما كان من صد لاعتداء أو منع لعدوان، كما حدث حين أغار كرز بن جابر الفهري على المدينة، واستاق بعضاً من إبلها في أثناء غياب الرسول خارج المدينة[2] وكما حدث من تجمع بني ثعلبة ومحارب من غطفان يريدون الغارة على المدينة مما اضطر الرسول إلى الخروج إليهم في أربعمائة وخمسين من أصحابه بعد أن خلف على المدينة عثمان بن عفان.

وحين اتحد مشركو العرب مع أهل مكة ضد المسلمين، كان الأمر الإلهي بقتال المشركين كافة وصار الجهاد عاما ضد من ليس له كتاب من العرب (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة[3]) وعندئذ قال الرسول (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله[4]) ولهذا كان هناك شبه إجماع في أن الرسول قصد بلفظ الناس هنا ليس عموم الناس، وإنما مشركي العرب خاصة.

وليس من شك في أن حروب الرسول ﷺ قد أفادت كثيرا مع من

---

(١) البقرة : ١٩٠

(٢) راجع ابن هشام ص ٦٠٢ القسم الأول

(٣) الأنعام : ٣٦

(٤) الحديث بطوله متفق عليه بين البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه وهو حديث صحيح (الجامع الصغير) ج ١ ص ١١٠

حاربوه ، إذ أسلم بعضهم للرسـول بعد أن رأوا حمـاس المسلمين وإخلاصهم للدين وتأكدوا من صحة هـذا الدين حين رأوا سماحته ورفقه بالمحاربين ، فضلا عن أن وقوع هذه الحروب قد حمل ذكـر الاسلام إلى الآفاق البعيدة فكان خير دعاية له ، كذلك يمكن أن نعتبر طرد اليهود من المدينة وانتشارهم فى بلاد العرب والشام دعاية صامتة للاسلام رفعت من ذكره فى تلك الآفاق التى شاءت قدرة الله أن تخفق عليها راية الإسلام بعد سنوات [1] .

هل انتهت مشروعية الجهـاد ؟

يعترض أعداء الدولة الإسلامية عـلى الجهـاد الإسلامى ويذكرون أنه أكبر مظهر من مظاهر الإضطهاد للحرية لأنه يعرض حياة الناس للهلاك ، فهم إما أن يؤمنوا وإما أن يقاتلوا ، وهم يدعون أن الدعـوة انتشرت بحـد السيف .

ويرى بعض شراح الاسلام الآن ، أن الجهاد الذى هو مقاومة الاعتداء هو فريضة مؤقتة بوقت الرسالة ، أى بوقت الرسول ودعوته ، أى طلبوا إنهاء العمل بالجهاد بعد قيام الجماعة الاسلامية واستقرارها منذ فتح مكة ، وفسر بعض آخر من شراح الاسلام الجهاد على أنه رياضة نفسية روحية وليس ردا لاعتداء مادى خارجى وكان مؤدى هذا التفسير هو نفس مؤدى توقيت الجهاد [2] .

ونحن فى هذه الصفحات نحاول إن شاء الله أن نثبت ، أن الجهاد ليس

---

(١) محمد حبيب أحمد ص ٧٥

(٢) راجع ص ٢٥٣ وما بعدها الفكر الاسلامى الحديث د . / محمد البهى

فريضة مؤقتة بوقت الرسالة، وليس رياضة نفسية روحية، ونحاول أيضاً رد شبهة أن الاسلام انتشر بقوة السيف وأن الدعوة الاسلامية لم تنتشر إلا بضغط الجهاد وغيره من ضغوط أخرى، كذلك فإن بعض العلماء رأى فى سبب مشروعية الجهاد أنه طريق من طرق الدعوة إلى الاسلام، وأنه لا بد لغير المسلمين أن يدينوا بالاسلام طوعا بالحكمة والموعظة الحسنة أو كرها بالغزو والجهاد، وبناء على ذلك فهم يؤسسون السياسة الخارجية للدولة الاسلامية على الأسس والقواعد التالية[1] .

١ — الجهاد لا يحل تركه بأمان أو موادعة، إلا أن يكون الغرض من الترك الاستعداد حين يكون بالمسلمين ضعف وبمخالفيهم فى الدين قوة . فان اعتدى على المسلمين كان فرض عين على كل مسلم أهل للجهاد، وإلا فهو فرض كفاية إذا قام به فريق من الأمة سقط عن الباقين، وإذا لم يقم به فريق من الأمة كانت الأمة كلها آثمة .

٢ ـ أساس العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم فى الدين الحرب مالم يطرأ ما يوجب السلم بإيمان وأمان .

٣ ـ دار الإسلام هى الدار التى تجرى عليها أحكام الإسلام، ويأمن من فيها بأمان المسلمين، سواء كانوا مسلمين أو ذميين ؛ ودار الحرب هى الدار التى لا تجرى عليها أحكام الإسلام ولا يأمن من فيها بأمان المسلمين .

وقد ذكر الأستاذ عبد الله غوشة فى بحثه المقدم للمؤتمر (مؤتمر علماء المسلمين الرابع) تحت عنوان الجهاد طريق النصر ؛ الأدلة التى استدل بها

---

(١) الجهاد (غوشه) ص ١٨٨

هؤلاء على ما يقولون ، وحددها بأربعة أدلة نختصرها فيما يلي [١] .

١ - أن آيات الأمر بالقتال جاءت مطلقة ولم تقيد بدفع عدوان أو مقابلة قتال ، مثل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار [٢]

ومثل (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة [٣]) .

٢ - نهى الله فى كثير من آيات القرآن عن اتخاذ الكافرين أولياء والإلقاء إليهم بالمودة مثل قول الله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة[٤]) ، ومثل قوله (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين [٥]) .

ويستدلون بمثل هاتين الآيتين على أنه لا يجب أن تكون للمسلمين بغيرهم محالفة أو مودة .

٣ - ويستدلون بحديث الرسول (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) بأنه نص على أن الأمر بقتال الناس هو للدخول فى الإسلام أى أن القتال طريق الدعوة إليه .

٤ - يرون أن من يدعون إلى الإسلام على وجهه الصحيح لا عذر لهم فى البقاء فى غيره .

---

(١) ص ١٨٨ (غوشه) .
(٢) التوبة : ١٢٣ .
(٣) التوبة : ٢٦
(٤) الممتحنة : ١
(٥) آل عمران : ٢٨ .

وإذا لم يجيبوا بالحكمة والموعظة الحسنة فلا مندوحة من أن يساقوا إلى خيرهم وهداهم بوسائل قهرية .

ولكن الصحيح وهو ما عليه الجمهور ، أن الجهاد شرع لحماية الدعوة الاسلامية ودفع العدوان عن المسلمين ، ولا يصح أن يبدؤا باعتداء على من لا يحل قتاله طالما أنه لا حاجة إلى دفع عدوان ، أو لا توجد عوائق وحواجز تمنع وصول الدعوة إلى الناس ، وعلى هذا تقوم السياسة الخارجية للدولة الإسلامية على : ـ

١ ـ أن الدعوة لغير المسلمين فرض كفاية على الأمة الإسلامية إذا قام بها فريق سقط عن الباقين ، وإذا لم يقم به فريق كانت كلها آثمة ، إلا أنه يجب على المسلمين في كل عصورهم وأزمانهم ألا ينقطعوا عن هذه الدعوة لتبليغ ما أنزله الله على رسوله إلى كل من لم يبلغه ، وأن يكون أول شئونهم الخارجية تنظيم الدعوة إلى الإسلام وإعداد الدعاة وبثهم بين الأمم التى تدين بالاسلام فى مختلف البلدان مع مدهم بجميع الوسائل التى تمكنهم من القيام بواجبهم[١] .

٢ ـ السلم هو أساس العلاقة بين المسلمين ومخالفيهم في الدين إلا إذا طرأ ما يوجب الحرب[٢] .

٣ ـ دار الإسلام هى التى تسود فيها أحكامه ويأمن فيهما المسلمون على الإطلاق ، ودار الحرب هى التى تبدلت علاقتها السلمية بدار الاسلام بسبب اعتداء أهلها على المسلمين أو على بلادهم أو على دعوتهم ودعاتهم .

وعلى هذا إنما يتحقق إختلاف الدارين بين بلاد الدولة الإسلامية وبلاد

(١) الجهاد ص ١٩٠ عبد الله غوشة .
(٢) المرجع السابق ص ١٩١

غير المسلمين الذين بدأوا المسلمين بالعدوان أو حالوا بينهم وبين بث دعوتهم وقاموا بمـا يجب عليهم من دفع العدوان عنهم وحماية دعوتهم وقطعوا بتلك البلاد علاقتهم . وانقطعت العصمة بينهم بحيث يصبح أهل البلدين لا يأمن واحدمنهم فى بلاد الآخر .

أما الأمة غير الإسلامية التى لم تبدأ المسلمين بعدوان ولم تعترض دعاة الإسلام وتركتهم أحراراً يعرضون دينهم على من يشاؤون ويقيمون براهينهم بما يريدون لا تقاوم داعيا ولا تفتن مدعوا ، أو لم ترسل إليها بعثة من الدعاة فهذه لا يحل قتالها ولا قطع علاقتها السلمية بها ، كما أن الأمان بينها وبين المسلمين ثابت لا يبدل (ولا يكون عقد ذمة) وإنما هو ثابت على أساس أن الأصل السلم ولم يطرأ ما يهدم هذا الأساس من عدوان على المسلمين أو على دعوتهم .

وحين نحاول الإستدلال على صحة هذا الكلام ونؤيد به رأى الجمهور فإنمـا نستدل على ذلك بما جاء فى القرآن الكريم وبمـا صنعه الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده ، فبخصوص السبب الذى من أجله أذن فى القتال والذى ذكر فى كثير من آيات القتـال فى القرآن الكريم فإنمـا يرجع ذلك لأحد أمرين .

إما دفع الظلم والعدوان أو قطع الفتنة وحماية الدعوة . فقد كان اليهود والمشركون فى زمن الرسول ﷺ يؤذون المؤمنين ويحاولون ما استطاعوا فتنتهم عن دينهم ويحاولون تثبيط عزيمة من يفكر فى الدخول فى الإسـلام كانوا يريدون إخماد الدعوة وسد الطريق فى وجه الدعاة ، ولهذا أوجب الله على المسلمين قتالهم لا عدوانا عليهم وإنمـا دفعاً لاعتدائهم وإزالة للعقبات

التى يضعونها فى طريق الدعوة والدولة ، ولذلك كان الأمر الإلهى بقتال من يقاتلهم ، وبعدم العدوان (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين [1]) .

وقال تعالى : (ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء [2]) .

وقال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله [3]) .

فليس فى هذه الآيات كلها وفى غيرها من آيات القتال شائبة من شوائب الإكراه فى العقيدة وهى تقرر أن الحرب أمر لابد منه حفظاً للنظام وتقويضاً لدعائم الظلم والبغى والعدوان .

بل إنها لم تنظر إلى المسلمين خاصة ، وإنما أشار القرآن الكريم فيها إلى أنه لولا الحرب لفسدت الأرض ، وهدمت أماكن العبادة للمسلمين وغيرهم وفى هذا يقول : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا [3]) .

الإسلام لا يوافق على قتل النفس لمجرد أنها لا تدين بالإسلام . كما أنه لا يوافق على قتال غير المسلمين إلا إذا وقع منهم عدوان على بلاد المسلمين أو على دعوتهم ، ولهذا أمرنا بإيثار السلم على الحرب إذا جنح لها ونتوكل على الله [4] .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٠
(٢) سورة النساء : ٧٥
(٢) سورة الأنفال : ٣٩
(٤) سورة الحج : ٤٠

والأصل في الدعوة عدم القهر والاكراه وليس هذا من طرقها فالإيمان القلبي والاعتقاد هو أساس الدين ، ولا يمكن أن يكون هذا الإيمان والإعتقاد بالقوة ولا بالسيف . وإنما يكون بالحجة والاقناع . فالعقائد لاتغرس بالإكراه لأن العقيدة انفعال النفس بقضية من القضايا . والنفس تأبى أن تهضم شيئا تمجه طبيعتها .

كما أن الاكراه على اعتناق الأفكار قضاء على الحرية التي جاءها الاسلام وهو طعن أيضا في كرامة الانسان وأهليته للخلافة في الأرض . لذلك قال الله تعالى : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)[1] .

ولقد رأينا في حديث رسول الله ﷺ وأمره لقادة الجيش المتوجهين إلى بلاد الشام الأمر بعدم قتل النساء والصبيان وكبار السن والرهبان ونحوهم .

ولو كان الغرض فرض الدعوة واعتبار القتال طريقاً من طرقها ما استثنى هؤلاء . ولكن استثناؤهم . إنما هو دليل على أن القتال لم يكن إلا دفعاً لعدوان .

أما استدلال من يرى أن القتال قد شرع لفرض الدعوة . وبأن آيات الأمر بالقتال جاءت مطلقة ولم يقيد فيها القتال بسبب . فإنا نقول لهم إن إطلاق هذه الآيات ليس دليلا على حجتهم . وذلك . لأن كثيرا من الآيات جاءت مقترنة بالسبب الذى من أجله شرع القتال وفي هذه الحالة يمكن حمل المطلق على المقيد .

إن الله تعالى أذن في القتال لقطع الفتنة وحماية الدعوة ودفع الاعتداء .

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

فتارة يذكر القتال مقروناً بسببه وتارة يذكره مطلقاً لعلمه السبب فى آيات أخرى[1] .

وأما حديث أمرت أن أقاتل النـــاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله .
فان جميع المســـلمين متفقون على أن المراد بالناس فى هذا الحديث مشركو العرب الذين غدروا بعهودهم وأهدرت دماؤهم لأن غيرهم من أهل الكتاب كمشركى غير العرب . حكمهم يخالف ما جاء فى الحديث . وهو أن يقاتلوا إذا رفضوا الإسلام ولم يعطوا الجزية . فالحديث فى طائفة خاصة والقتال فيه لدفع الشر لا الدعوة ولو كان للدعوة لكانوا هم وغيرهم سواسية .

ولقد كان مع الأمر بقتال الذين يقاتلون المسلمين ، نهى قاطع محكم غير قابل للنسخ بعدم الاعتداء فى قوله (ولا تعتدوا) لأن الله لا يحب المعتدين .
ولو أن بعض الناس تصور أنه كان فى بعض غزوات وسرايا الرسول بدء من المسلمين .

فانما كان هذا أيضاً دفاعاً ومنعاً لعدوان واقع فعلا فقد كانت حالة الحرب بينهم وبين المشركين مستمرة . وكان عــــدوان المشركين ابتداء ومستمراً على المسلمين الذين لم يتمكنوا من الهجرة . والدفاع لا يشترط أن يكون فى كل معركة . فان المشركين لم ينفذوا عهودهم مع الرسول حتى بين الله للمسلمين بأنهم إنما نقضوا العهد ونكثوا الأيمان لأنهم لا عهود لهم يلتزمونها بعقيدة وجدانية ولا نظام متبع . ولذا قال :

(ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم

---

(١) راجع الجهاد (المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية) عبدالله غوشة .

أول مرة) . أى بالقتال ثم بنقض العهد فهم معتدون[١] .

يقول الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده . كان المشركون يبدأون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم ولو لم يبدأوا فى كل واقعة لـكان اعتداؤهم لإخراج الرسول من بلده وفتنة المؤمنين وإيذائهم ومنع الدعوة . كل ذلك كان كافياً فى اعتبارهم معتدين[٢] .

ونحن لا ندرى على أى أساس اتهم الإســلام بنشر الدعوة بالقوة ولا ندرى أيضاً فى أى عصر كان هذا الارغام والإجبار .

وقد وضحت آيات كثيرة من آيات القرآن الـكريم والتى ذكرنا بعضاً منها منذ قليل بأنه لم يكن ثمة إكراه فى الدين بعد أن تبين الرشد من الغى . وكان الأمر بالدعوة بالحـكمة والموعظة الحسنة .

(ادع إلى سبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة[٣]) . (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر[٤]) . (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب[٥]) . (لـكم دينـكم ولى دين[٦]) .

هل كان الرسول وهو فى مكة وقد بدأ دعوته وحيداً لا مال معـه ولا سلاح يجبر الناس على اعتناق دينه ؟ وهل يمـكن أن نقول أن اعتناق

---

(١) الوحى المحمدى ص ٢٥٤ (رشيد رضا) .
(٢) الجهاد ص ١٩٦ غوشة .
(٣) النحل آية ٢٩ .
(٤) الغاشية ٢١ ، ٢٢ .
(٥) الرعد ٤٢ .
(٦) الـكافرون ٦ .

أبى بكر وعمر وحمزة وطلحة والزبير وعثمان وسعد بن وقاص وغيرهم من عظماء الرجال كان بالقوة وقد دخلوا فى الإسلام واعتنقوه مرغمين تحت تهديد السلاح ؟

ان الواقع يشهد بأن القوة والسيف كانا يقفان فى وجه الدعوة حملا للناس على عدم اعتناقها لا على اعتناقها . وهل يمكن أن نقول أن الإسلام قد انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

وسأثبت عند حديثى عن الفتوح الإسلامية فى مكانه فى الجزء الثانى ان شاء الله أن الإسلام انتشر بين الشعوب بذاته ومبادئه وليس عن طريق القوة والقهر كما ادعى المغرضون .

أما أولئك الذين يرون أن الجهاد فريضة مؤقتة بوقت الرسول ودعوته . ومن يرون أنه رياضة نفسية روحية وليس رداً لاعتداء مادى خارجى فأعتقد أنه من خلال اثباتنا خطأ دعوى انتشار الإسلام بالقوة وإثبات أن الجهاد شرع لرد الاعتداء أو إزاحة السلطة التى تمنع الدعوة من الانتشار وتقف فى طريقها وطريق دعاتها . إنما هو دليل على أن الجهاد قائم طالما وجدت مجابهة ومحاربة للإسلام والدعوة الإسلامية .

ان الجماعة الإسلامية جماعة مستقلة لها كيانها واستقلالها ولها هدفها وغايتها ومنهجها فى الحياة . وهى مترابطة بترابط أفرادها بعضهم ببعض حتى تحرص على هذا الاستقلال . ولا بد من أن تكون عندها القوة والقدرة على رد العدوان عليها وعدم التهاون فى ذلك . ولهذا طلب الإسلام من الجماعة الإسلامية أن تكون على حذر واستعداد مادى وروحى معاً لمقاومة من يحتك بها قاصداً إضعافها وإذهاب استقلالها . ولكن هذه التعبئة المادية والروحية إنما يطلبها الإسلام من المؤمنين به ليضعها دائماً فى خدمة السلام

لا للغزو والاعتداء[1] . فيقول القرآن الكريم : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم[2] .

ما دامت الجماعة الإسلامية كما قلنا جماعة مستقلة فى مواجهة غيرها من الجماعات الأجنبية عنها وطلب الله منها أن تعيش مع الجماعة الأجنبية الأخرى على أساس من إقرار مبدأ السلم بادىء ذى بدء (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة[3] .

إلا أنه قد يقع اعتداء عليها فى أى وقت ولأى سبب من الأسباب . حينذاك يكون الجهاد الإسلامى الذى هو دائماً دفاع ورد لعدوان وكان الأمر فيه بعدم الزيادة فى الاعتداء (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) .

والجماعة الإسلامية . المفروض فيها أن تكون لها غاية وشخصية مستقلة ، وهى حينذاك لا تسعى إلى تأمين استقلالها فقط وإنما الواجب عليها كذلك أن تؤمن فكرتها وغايتها فى الحياة . بل يجب عليها « ألا تهادن الكفر بفكرتها . إذ فى الكفر وحده يكمن العداء لها والخطر على وجودها والكفر أينما وجد هو مصدر عدائها . والكفر يتمثل فى الشرك كما يتمثل فى الإلحاد[4] » .

ومن هنا كان دفع هذا الخطر فرضاً لازماً لقيام الجماعة الإسلامية فى

---

(١) الفكر الاسلامى الحديث ص ٢٢٣ .

(٢) الأنفال ٦٠ .

(٣) البقرة ٢٠٨ .

(٤) الفكر الاسلامى الحديث ص ٢٢٤ .

أطوار حياتها وفى كل أجيالها وعليها أن تكون متهيأة بصفة مستمرة للقدرة على دفعه وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

(كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون[١]) .

وما دام المفروض فى الجماعة الإسلامية أن يكون لها استقلالها من التهيؤ لإمكان صيانة استقلال الجماعة وإمكان تنفيذ إقرار السلم العالمى أمر يجب أن تكون له صفة الاستمرار والدوام فى حياة الجماعة نفسها[٢]) .

وما دمنا مطالبين بتنفيذ الأمر الالهى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر[٣]) .

ملتزمين بنشر الاسلام ونحن حماته فإن مبدأ الجهاد لا يسقط أبدا ولم يكن وقفاً على وقت الرسالة . كما أنه ليس رياضة نفسية روحية . حتى يمكن لنا رعاية هذه الرسالة واستقرارها وتمكينها .

فالجهاد جزء لا يتجزأ من الاسلام والإسلام ليس مقصوراً على الأفراد دون الجماعة وإلا ألغيت شخصية الجماعة الاسلامية .

والواضح من قول الله تعالى (كتب عليكم القتال) أن هذا فرض الجهاد على المسلمين فهذا التعبير يفهم منه الفرض تماماً كما استعمل نفس التعبير فى فرض الصيام (كتب عليكم الصيام) (وبذلك توطد الجهاد فى الاسلام

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ .
(٢) البقرة ٢١٦ .
(٣) آل عمران ١٠٤ .

كركن من أركانه إذا لم يقم به المسلمون حينما تدعوا الحاجة إليه وقعوا فى الإثم ملتزمين بالمبادىء العامة التى وضعت وفى نطاق الحدود التى رسمت له فى الآيات القرآنية[1] .

ودعاة هذه الأفكار كانت لهم أغراض شخصية . وكان هذا تخطيطاً مرسوماً وسياسة مقصودة من الاستعمار خصوصاً إذا عرفنا أن صاحب فكرة وقتية الجهاد هو السيد أحمد خان زعيم الحركة الاصلاحية فى الهند فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وأخيراً ليس الإسلام وحده هو الذى جاء بالجهاد والحرب للدفاع وتأمين الحريات . فقد كانت الحرب فى القديم وما تزال وسيلة من الوسـائل لحل المشاكل الاجتماعية إلى عهدنا هذا مع بلوغ الانسانية أشدها ونيل العقول رشدها .

فالحياة لا تبقى والحقوق لا تصان إن بقوة تحميها ...

والله أعلم . ؟

(١) دروزه ص ٢٢٢ سيرة الرسول ج ٢ .

المراجع مرتبة حسب الحروف الهجائية

اسم المرجع	اسم المؤلف

(أ)

اسم المرجع	اسم المؤلف
١ ـ القرآن الكريم	
٢ ـ الاناجيل الاربعة	
٣ ـ امتاع الاسماع	المقريزى
٤ ـ أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر	على الطنطاوى وناجى الطنطاوى
٥ ـ الإسلام والنصرانية	الإمام محمد عبده
٦ ـ الاسلام فى الواقع الايدلوجى المعاصر	الدكتور محمد البهى
٧ ـ الاسلام ظهوره وانتشاره فى العالم	حامد عبد القادر
٨ ـ الاسلام والثورة الاجتماعية	صابر عبد الرحمن طعيمه
٩ ـ الاسلامية فى عز العرب	محمد كرد على
١٠ ـ الادارة العربية	س أ. ق حسينى ـ ترجمة ابراهيم العدوى
١١ ـ الأزاهير المضمومة فى الدين والحكومة	الشيخ أمين ظاهر خير الله ضاليبا

(ب)

اسم المرجع	اسم المؤلف
١٢ ـ بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب	محمود شكرى الالوسى

(ت)

اسم المرجع	اسم المؤلف
١٣ ـ تفسير القرطبي	أبى محمد بن أحمد الانصارى القرطبي
١٤ ـ تفسير القرآن العظيم	الامام اسماعيل بن كثير
١٥ ـ تفسير القرآن الحكيم ـ الشهير بتفسير المنار	الشيخ محمد رشيد رضا

اسم المرجع	اسم المؤلف
١٦ــ تيسير الوصول	ابن الديبع الشيبانى
١٧ــ تاريخ التشريع الاسلامى	الشيخ عبد الوهاب خلاف
١٨ــ تاريخ الاسلام السياسى والثقافى والدينى والاجتماعى	الدكتور حسن ابراهيم
١٩ــ تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الاموية	المستشرق الالمانى يوليوس فلهوزن ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريدة
٢٠ــ تاريخ التمدن الاسلامى	جورجى زيدان
٢١ــ التاريخ الاسلامى والحضارة الإسلامية	الدكتور أحمد شلبى
٢٢ــ التاريخ السياسى للدولة العربية	الدكتور عبد المنعم ماجد
(ج)	
٢٣ــ الجهاد	أبحاث المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية مطبوعات المجمع
(ح)	
٢٤ــ حقيقة الاسلام وأصول الحكم	الشيخ محمد بخيت المطيعى
٢٥ــ حياة محمد	دكتور محمد حسين هيكل
٢٦ــ حياة الصحابة	الشيخ محمد يوسف بن محمد الياس الكاندوهلى
(خ)	
٢٧ــ الخلافة والإمامة ديانة وسياسة	عبد الكريم الخطيب
(د)	
٢٨ــ دراسات إسلامية	عبد المتعال الصعيدى
٢٩ــ دولة القرآن	طه عبد الباقى سرور
٣٠ــ ديوان العبر وتاريخ المبتدأ والخبر « تاريخ ابن خلدون »	ابن خلدون

اسم المرجع	اسم المؤلف
٣١ - الدعوة إلى الاسلام	سير توماس أرنولد ترجمة د/ حسن ابراهيم وآخرين
٣٢ - الدعوة الاسلامية لتحقيق السعادة وإقرار السلام	بحث الدكتوراه / د/ أحمد غلوش سنة ١٩٧١
٣٣ - الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه	الشيخ عطيه صقر
(ر)	
٣٤ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم	الالوسي
٣٥ - رسائل الاسلام	الشيخ محمد الخضر حسين
(ز)	
٣٦ زاد المعاد في هدى خير العباد	ابن القيم الجوزى
(س)	
٣٧ - سيرة الرسول	محمد عزه دروزه
٣٨ - السيرة النبوية	ابن هشام
٣٩ - السيرة النبوية	ابن كثير
٤٠ - السياسة الشرعية	الشيخ عبد الوهاب خلاف
(ص)	
٤١ - صحيح مسلم	شرح النووى
(ع)	
٤٢ - عبقرية محمد	عباس العقاد
٤٣ - العبقرية العسكرية في غزوات الرسول	محمد فرج
٤١ - العقيدة والشريعة	المستشرق: اجناس جولد تسيهر - ترجمة د/ محمد يوسف موسى وآخرين
(ف)	
٤٥ - فقه السيرة	الشيخ / محمد الغزالى

اسم المرجع	اسم المؤلف
٤٦ - الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى	د / محمد البهى

(ق)

٤٧ - قصة الحضارة	(ول ديورانت) ترجمة محمد بدران

(م)

٤٨ - محمد رسول الله	(مولاى محمد على) ترجمة مصطفى فهمى وعبد الحميد جوده السحار
٤٩ - مكة والمدينة فى الجاهلية والاسلام	محمد أحمد الشريف
٥٠ - مذكرات فى التاريخ الاسلامى	محمد حبيب أحمد
٥١ - المختار من تيسير الوصول فى شرح أحاديث الرسول مع شرح للاحاديث	المرحوم الدكتور / محمد عبد الله دراز
٥٢ - الملل والنحل	المرحوم / محمد فتح الله بدران

(ن)

٥٣ - نظام الحكم فى الاسلام	الدكتور / محمد يوسف موسى
٥٤ - نشأة الدولة الإسلامية	أمين سعيد
٥٥ - نظرية الدولة	د / طعيمه الجرف

(و)

٥٦ الوحى المحمدى	محمد رشيد رضا
٥٧ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى	السمهودى
٥٨ - الوزراء والكتاب	الجهشيارى

(ى)

٥٩ - اليهود فى موكب التاريخ	صابر طعيمه

فهرست الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الايداع ٦٢٠٠ / ١٩٧٢

مؤسسة الوفاء للطباعة

شارع الدكتور عبد الغفار عزيز - دار السلام الجديدة